دولة الإسماعيلية في إيران

د. محمد السعيد جمال الدين



الدار الثقافية للنشر

دولة الإسماعيلية فى إيران

بحث

فى تطور الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة

مع ترجمة للنص الفارسى

الذى ورد عنها فى كتاب (تاريخ جهانگشاى)

لعطا ملك الجوينى

د. محمد السعيد جمال الدين

الناشر

الدار الثقافية للنشر

ص.ب (134) بانوراما أكتوبر

تليفون وفاكس: 4027157 - القاهرة

عنوان الكتاب: دولة الإسماعيلية فى إيران

اسم المؤلف: محمد السعيد جمال الدين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٨/١٤٦٩٣

الترقيم الدولى: 977-5875-61-7 :ISBN

اسم الناشر: **الدار الثقافية للنشر**

اسم المطبعة: المطبعة العصرية – بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م



الدار الثقافية للنشر – القاهرة

ص.ب 134 بانوراما اكتوبر – هاتف وفاكس 4027157

email: sales@thakafia.com

Website: www.thakafia.com

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين
أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها
بكلية الآداب بجامعة عين شمس

يسرني أن أقدم للمكتبة العربية وللمشتغلين بالدراسات الشرقية الإسلامية كتابًا قيمًا عن دولة الإسماعيلية فى إيران مع ترجمة ما جاء عنها فى كتاب جهانكشاى لعطا ملك الجوينى من الفارسية إلى العربية.

وصاحب هذا الكتاب الزميل الدكتور محمد السعيد جمال الدين، وهو دارس متخصص فى الدراسات الشرقية الإسلامية فضلا عن أن الكتاب كان رسالته التي تقدم بها لنيل درجة الماجستير وحصل عليها بتقدير ممتاز.

والكتاب ينقسم إلى قسمين:

الأول: بحث عن دولة الإسماعيلية فى إيران، وتعريف بدعاتها، وفى مقدمتهم الحسن ابن الصباح مؤسس هذه الدولة فى إيران، وقد شك البعض فى طبيعة الكيان الذى أقامته الإسماعيلية فى إيران، ولكن البحث أثبت أنهم أقاموا دولة لها مقوماتها ونظمها الخاصة بها.

الثانى: ترجمة النص الذى أورده عطا ملك الجوينى فى الجزء الثالث من تاريخه المعروف (جهانكشاى). وقد نقل عطا ملك ما أورده فى هذا الجزء من معلومات عن كتب الإسماعيلية أنفسهم، وهي التى عثر عليها بنفسه واستخرجها من مكتبة الموت حينما كان يرافق هولاكو المغولى فى حملته على قلاع الإسماعيلية فى إيران.

وقد تمت ترجمة النص عن الطبعة التي نشرتها مؤسسة (جب) التذكارية، وتوفر على تحقيقها العلامة محمد عبد الوهاب القزوينى. وقد شملت الترجمة العربية الهوامش التى

كتبها القزوينى للتعليق على المسائل الواردة فى المتن أو لتوضيحها، كما أضاف المترجم بعض التعليقات المهمة لزيادة توضيح المسائل المختلفة التى تضمنها النص الفارسى.

والواقع أن نشر البحث والترجمة يزود المكتبة العربية بكتاب مهم لا غنى عنه للدارسين المتخصصين فى الدراسات الشرقية الإسلامية خاصة، والتاريخ الإسلامى بوجه عام.

وإنى أتمنى للزميل الدكتور محمد السعيد جمال الدين مزيدًا من التوفيق فى خدمة الدراسات.

والله ولى التوفيق

عبد النعيم حسنين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتمتع الإسماعيلية بمركز ممتاز في التاريخ الإسلامى؛ فقد حظوا – منذ ظهورهم حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى– باهتمام المؤرخين وعنايتهم، فدرسوا نشأتهم وعقائدهم، وأساليب دعوتهم وتواريخ دولهم التى أقاموها فى المغرب ومصر واليمن والبحرين والهند.

بيد أن هؤلاء المؤرخين كان لهم شأن آخر مع الإسماعيلية فى إيران؛ فقد أهملوا تاريخ الدعوة منذ بدئها بتلك المنطقة فى أواخر القرن الثالث الهجرى، ولم يصلنا عن الحركة الإسماعيلية فى إيران فى طورها الأول سوى معلومات متفرقة فى عدد كبير من كتب التاريخ والأدب، فضلا عن أنها معلومات لا يمكن أن ترسم صورة كاملة عن طبيعة الحركة فى طورها المبكر.

ولم يعن هؤلاء المؤرخون بالحركة الإسماعيلية فى إيران إلا بعد أن أحرزت نصرا سياسيا مؤزرا فى المنطقة، وأقدمت على تأسيس دولة لها نظمها وعقائدها وملامحها المميزة، وعندئذ لم يكن هناك مفر أمام المؤرخين من الحديث عنها وذكر أخبارها بعد أن أصبحت حقيقة ماثلة لا يجدى الإعراض عن متابعة أخبارها لامتداد فعاليتها إلى أحداث عصرها، بحيث أصبحت جزءا لا يتجزأ من الوقائع التى يتعرضون لذكرها. ولكنهم رغم ذلك لم يستقصوا أخبارها، ولم يدرسوا طبيعتها أو يتابعوا تطورات الأحداث فيها. وإنما تناولوها من حيث علاقة الآخرين بها. فابن الأثير – شأنه فى ذلك شأن الراوندى فى (راحة الصدور) والعماد الأصفهانى فى (تاريخ آل سلجوق) – لا ي

ذكر أخبار الإسماعيلية فى إيران إلا مقترنة فى الغالب بتأهب سلاطين الدولة السلجوقية لاستئصالهم، أو بقتل فداوية الإسماعيلية لأحد عظماء الخلافة العباسية أو الدولة

السلجوقية، أو باتخاذ الأمراء والحكام لعدد من الإجراءات الوقائية للحيلولة دون انتشار الدعوة الإسماعيلية فى بلادهم. وبذا لا تتصف هذه المعلومات التى وصلتنا[1] عن طريق هؤلاء المؤرخين بالندرة والقصور فحسب، بل باصطباغها بروح العداء من حيث كونها كتبت متأثرة بوجهة نظر أعداء الإسماعيلية.

* * *

إلى أن قدم هولاكو على رأس الجيوش المغولية للقضاء على الإسماعيلية في إيران سنة ٦٥٢هـ، وكان فى ملازمته أحد المؤرخين الفرس الثقات، دفعته رغبته فى المعرفة إلى طلب الإذن من هولاكو بالاطلاع على مكتبة الإسماعيلية الذائعة الصيت فى (الموت) بعد استيلاء هولاكو عليها، فاستخرج المؤرخ علاء الدين عطا ملك الجوينى من تلك المكتبة معلومات قيمة عن دعوتهم، وسيرة مؤسس دولتهم بإيران، الحسن بن الصباح، وتاريخ ملوكهم، وضمن كتابه (تاريخ جهانكشاى) الذى أتمه فى سنة ٦٥٨هـ هذه المعلومات، وأكملها بما دونه من الأخبار والحوادث التى شاهدها بنفسه أثناء مصاحبته للحملة التى جردها المغول للقضاء عليهم.

وترجع القيمة الحقيقية لنص الجوينى إلى أنه منقول أصلاً عن مصادر الإسماعيلية أنفسهم، وإلى أنه أول وثيقة تاريخية وصلتنا عن تاريخ دولة الإسماعيلية اقتدى بها من جاء بعده من المؤرخين، ولم يخرجوا عما جاء بها من معلومات.

ولقد قوبل هذا النص الذى عنى بنشره العلامة الإيرانى المرحوم الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى ضمن الجزء الثالث من تاريخ جهانكشاى سنة ١٩٣٧هـ بحفاوة بالغة من جانب الدارسين؛ فقد أصبح فى مقدورهم أن يطلعوا على تاريخ دولة الإسماعيلية فى إيران منقولا عن مصادرهم التى عثر عليها فى مكتبة الموت، أو مشروحا عن طريق شاهد عيان مباشر عاصر تاريخ دولتهم فترة من الزمن، ورافق الحملة المغولية التى وجهت للقضاء عليهم. ولكن هذا النص الفارسى رغم أهميته البالغة ظل منذ نشره بعيدا عن متناول القارئ العربى، مما دفعنى إلى نقله إلى العربية بغية إضافة عمل جديد وهام إلى مكتبتها، وقدمته فى القسم الثانى من الكتاب.

* * *

ويبدو الجوينى فى (جهانكشاى) وكأنه يرى أن تاريخ الإسماعيلية فى إيران ينتمى إلى أصول فاطمية، وأن أولئك الإسماعيلية إنما هم امتداد للدولة الفاطمية فى مصر والمغرب والشام. فنحن نجده لا يهتم بالمحاولات المستمرة والجهود المضنية التى بذلها دعاة الإسماعيلية فى إيران على مدى قرنين من الزمان قبل نشأة الدولة على يد الحسن ابن صباح فى أواخر القرن الخامس، ولا يلقى بالا إلى ذلك الرعيل الأول من الدعاة الذين اكتسبت الدعوة فى إيران بفضله مظهرًا خاصًّا مميزًا. وبدلاً من ذلك يستهل حديثه عن إسماعيلية إيران بذكر تاريخ الخلفاء الفاطميين. فالجوينى إذن يردّ تاريخ الدولة الإسماعيلية فى إيران إلى أصول فاطمية فقط، وهذا يعد– فى رأينا – خطأ كبير.

وكان الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك (توفى سنة ٤٨٥هـ) معاصرًا لقيام دولة الإسماعيلية فى إيران. ولقد أدرك هذا الرجل بنظرته السياسية النفاذة أن هناك صلة وثيقة بين الفترة المبكرة من تاريخ الدعوة الإسماعيلية فى إيران وبين قيام دولة الإسماعيلية فى تلك المنطقة، فهو يعنى فى كتابه (سياستنامه) - أى كتاب السياسة - بأخبار بعض دعاة الفترة المبكرة، ويتتبع فى إجمال مسيرة الدعوة الإسماعيلية، وجهود الدعاة فى سبيل نشرها، تلك الجهود التى أسفرت فى النهاية عن قيام دولة لهم فى الشمال الغربى من إيران.

ولكى تكتمل الصورة، وحتى نتلافى ذلك الخطأ الذى وقع فيه المؤرخ عطا ملك الجوينى بإهماله تاريخ دعوة الإسماعيلية بإيران قبل قيام دولتهم بها – رأينا أن ندخل من المدخل الصحيح لدراسة تلك الدولة، فنقدم لترجمتنا العربية لنص كتاب (جهانكشاى) بدراسة نعرض فيها على وجه الإجمال لنشأة الإسماعيلية وعقائدهم ونظام الدعوة عندهم، ثم ننتقل إلى تتبع الدور الذى قام به دعاة الإسماعيلية قبل قيام دولتهم فى إيران.

وقد راجت منذ فترة من الوقت نظرية قال بها بعض الباحثين المحدثين من العرب، فذهبوا إلى القول بأن الإسماعيلية فى إيران لم ينشئوا دولة بالمفهوم الصحيح، بل أقاموا (منظمة ثورية لها كيانها وزعامتها وحماتها وأتباعها)، وكان لا بد لنا من الوقوف مليا

عند هذه النظرية وتفحصها، ولقد خصصنا فصلا بأكمله فى نهاية القسم الأول من هذا الكتاب لدراسة ما إذا كان الإسماعيلية قد أقاموا فى إيران بالفعل نظامًا سياسيًّا له مقومات الدولة.

وعند ترجمة النص الذى أورده المؤرخ علاء الدين عطا ملك الجوينى فى الجزء الثالث من كتابه (جهانكشاى) عن الإسماعيلية حرصت على الإبقاء بقدر الإمكان على الهوامش التى كتبها الأستاذ محمد عبد الوهاب القزوينى محقق الكتاب؛ وذلك بغية تقديم منهج فريد ومتكامل فى التحقيق التزم به المحقق التزاما كاملا، رغم ما بذل من عناء فى سبيل ذلك، فاستخدم ثلاث عشرة مخطوطة من مخطوطات الكتاب فى هذا التحقيق، ورجع إلى مئات الكتب والمراجع بمختلف اللغات لتوضيح النص، فكان من نتيجة ذلك أن خرج الكتاب محققًا أفضل ما يكون التحقيق، واضحًا أشد ما يكون الوضوح.

* * *

ولا يسعنى فى صدر هذا الكتاب إلا أن أتوجه بالشكر إلى أستاذى الفاضل، الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين. والحقيقة أنه لولا إرشاداته العلمية القيمة وتوجيهاته الرشيدة لما قيض لهذا العمل أن يخرج بهذه الصورة. كما أتقدم بالشكر لأستاذى الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، على ما أسداه إلى من نصح فى الرجوع إلى عدد من المراجع القيمة، وإمدادى بها.

وأرى لزاما على أن أشكر جميع زملائى من الدارسين الذين ساعدونى فى هذا العمل، وأن أشكر السادة أمناء مكتبة جامعة القاهرة ودار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية الذين يرجع إليهم الفضل فى اطلاعى على العديد من المخطوطات والكتب. والله ولى التوفيق

د. محمد السعيد جمال الدين

القسم الأول

الدعوة الإسماعيلية فى إيران

منذ بدايتها إلى قيام الدولة

الفصل الأول

نشأة الإسماعيلية

يجدر بنا قبل أن نبدأ فى دراسة الإسماعيلية – وهى إحدى الفرق الشيعية – أن نشرع ببحث تمهيدى عن نشأة التشيع وعلاقة الفرس به، والانشقاق الذى حدث فى صفوفه والذى تمخضت عنه تلك الفرق التى تعد الإسماعيلية من أبرزها، معتمدين فى تفاصيل ذلك كله على كتاب فرق الشيعة للنوبختى[1] المتوفى بين سنتى ٣٠٠ و٣١٠هـ، وكتاب المقالات والفرق، لسعد بن عبد الله أبى خلف الأشعرى القمى المتوفى سنة ٢٢٩ أو ٣٠٠ هـ، ومقالات الإسلاميين للأشعرى المتوفى سنة ٣٢١هـ، والفرق بين الفرق للبغدادى (توفى سنة ٤٢٩هـ)، والفصل فى الملل والنحل لابن حزم الأندلسى (توفى سنة ٤٥٩هـ)، وبيان الأديان لأبى المعالى (ألف الكتاب سنة ٤٨٥هـ)، والملل والنحل للشهرستانى المتوفى سنة ٤٥٨هـ.

---

(١) وهو يعد فى الحقيقة من أغنى المصادر وأوثقها رواية، وينسب هذا الكتاب لأبى محمد الحسن بن موسى النوبختى المتوفى بين سنتى ٣٠٠، ٣١٠ هـ. غير أن الباحث الإيرانى عباس إقبال فى كتابه (خاندان نوبختى) أى آل النوبختى يرفض هذه النسبة، ويقول بأن كتاب النوبختى المعروف بهذا الاسم قد ضاع، وأن مؤلفه الحقيقى هو سعد بن عبدالله الأشعرى المتوفى سنة ٢٩٩، ٣٠٠ هـ، أحد المعاصرين للنوبختى. ويعتمد إقبال فى إصدار هذا الحكم على عدة فقرات وردت فى كتاب معرفة الرجال للكشى وغيره من الكتب منسوبة إلى الأشعرى المذكور وهى مماثلة تمامًا لما ورد فى كتاب فرق الشيعة. وارتفعت الشبهة التى جاء بها عباس إقبال بعد العثور على نسخة من كتاب الفرق للأشعرى القمى فى إحدى المكتبات الخاصة فى إيران، وهى النسخة التى نشرها الدكتور محمد جواد مشكور، الأستاذ بالمعلمين العليا بطهران. ويرجح ناشر الكتاب أن الأشعرى (نسبة إلى أشعر وهى قبيلة مشهورة نزحت من اليمن إلى إيران) قد ألف كتابه بعد النوبختى، وجعل كتاب النوبختى أمامه، فنقل منه، وأضاف عليه، تلك الإضافات التى سببت تفوق كتابه ورجحانه على كتاب النوبختى. انظر مقدمات كتاب المقالات والفرق، طبع طهران سنة ١٩٦٣م.

وسنسترشد بالبحوث التى قام بها بعض المستشرقين فى الموضوع من أمثال يوليوس فلهوزن[١] وجولد زيهر[٢]، وفان فلوتن[٣]، وإدوارد براون[٤]، وآرثر كرستنسن[٥]، وغير ذلك من المصادر سنذكرها فى الحواشي.

١- الشيــعة:

الشيعة فى اللغة هم الأتباع والأنصار[٦]، ويطلق هذا اللفظ فى عرف الفقهاء والمتكلمين على أتباع على بن أبى طالب وبنيه[٧]. ويرجع ابن النديم سبب هذه التسمية إلى مخالفة طلحة والزبير عليا - رضى الله عنه - عندما أبيا إلا الطلب بدم عثمان، فسار إليهما ليقابلهما حتى يفيئا إلى أمر الله، فتسمى من اتبعه على ذلك (الشيعة). وكان على يقول: شيعتى[٨]. بينما يرى الشيعة - على اختلاف فرقهم وطوائفهم - أن نشأة التشيع ترجع إلى عصر النبى ﷺ، بل يذهب بعضهم إلى أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنبا إلى جنب، وسواء بسواء، "ولم يزل النبى يتعاهدها بالسقى والعناية حتى نمت وازدهرت، ثم أثمرت بعد وفاته[٩]".

---

(١) فى كتابه (أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام)، ترجمه عن الألمانية عبد الرحمن بدوى، ونشر بالقاهرة فى سنة ١٩٥٨ م.

(٢) فى كتابه (العقيدة والشريعة فى الإسلام). ترجمه عن الألمانية محمد يوسف موسى وآخران، ونشر بالقاهرة سنة ١٩٤٦ م.

(٣) فى كتابه (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات). ترجمه عن الفرنسية حسن إبراهيم ومحمد زكى إبراهيم، ونشر بالقاهرة سنة ١٩٣٤م.

(٤) فى المجلد الأول من موسوعته (تاريخ الأدب فى إيران). وقد نقله إلى الفارسية على باشا صالح، وطبع فى طهران سنة ١٣٣٥ هـ. ش.

(٥) فى كتابه (إيران فى عهد الساسانيين). ترجمه عن الفرنسية يحيى الخشاب، ونشر سنة ١٩٥٧م بالقاهرة.

(٦) القاموس المحيط للفيروزابادى مادة (شاع).

(٧) مقدمة ابن خلدون، طبع على عبد الواحد وافى، ص ٥٢٧.

(٨) الفهرست لابن النديم، ص ١٧٥، طبع ليبزج.

(٩) أصل الشيعة وأصولها، لمحمد حسين آل كاشف الغطاء، ص ٥٤ وما بعدها، طبع مصر.

ويمكن القول بأن التشيع بدأ بعد وفاة النبي[1]، عندما نشأ بين كبار الصحابة – منذ بدأت مشكلة الخلافة – جماعة لم توافق على الطريقة التى انتخب بها الخلفاء الثلاثة الأول، الذين لم يراع فى انتخابهم درجة قرابتهم من أسرة النبى. وقد آثرت هذه الجماعة على بن أبى طالب، ابن عم النبى، وزوج ابنته فاطمة. ولم تجد هذه الجماعة الفرصة مواتية لتجاهر برأيها فى هذا الصدد إلا فى عهد عثمان الذى انتهج سياسة ثابتة طيلة مدة خلافته، وهى تفضيل أقاربه من بنى أمية، فأصبحت هذه السياسة مثارا للسخط فى كافة الأمصار الإسلامية، وأتاحت لأنصار على الفرصة لتحويل الخلافة لآل البيت.

ورغم المظهر الدينى الذى اتخذه التشيع فى مراحله الأولى إلا أنه كان ينطوى على غرض سياسى محض[2]، فلم يختلف أنصار على عن سائر الأمة من حيث المعتقدات الدينية بوجه من الوجوه. كما كانت هذه الجماعة من أنصار على عربية خالصة لم تحاول أن تكسب تأييد الأجناس التى خضعت للعرب ودخلت الإسلام أو تحظى بنصرتهم.

غير أن الوضع اختلف بعد مقتل على رضى الله عنه، فقد بدأ الشيعة فى عهد الخلافة الأموية يتجهون فى حركتهم اتجاها دينيا[3]، وارتكزوا فى معارضتهم للأمويين، وغيرهم من الدول التى جاءت بعدهم على موضوع الخلافة، فذهبوا إلى أن الرئيس الشرعى الأوحد للمسلمين هو الإمام، والإمام الأول عندهم هو على، الذى يعده أهل السنة والجماعة رجلا ذا فضائل جمة ومعارف غير عادية، دون أن يمسوا حقوق أسلافه فى الخلافة. ولقد سماه الحسن البصرى (ربانى هذه الأمة)[4].

إلا أن الشيعة وقفوا الحق الشرعى للإمامة على على وأبنائه من بعده، وذهبوا إلى أن هذا الحق الشرعى هو بأمر من الله سبحانه ونص منه إلى نبيه، فلقد نص النبى على على وأشار إليه باسمه وعينه، وقلد الأمة إمامته، وأقامه ونصبه لهم علما، وعقد له عليهم

---

(١) فرق الشيعة للنوبختى، ص ٣، طبع النجف.

(٢) انظر (السيادة العربية) لفان فلوتن ص ٦٨ وما بعدها، (والعقيدة والشريعة) لجولد زيهر ص ١٦٨، أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس، ص ١٨ من الأصل الإنجليزى، وص ٨٣ من الترجمة العربية.

(٣) فان فلوتن ص ٧٣، جولد زيهر، ص ١٧٤–١٧٦.

(٤) الأمالى لأبى على القالى، ج ٣، ص ١٧٠–١٩٤.

إمرة المؤمنين وجعله وصيه وخليفته ووزيره في مواطن كثيرة[1]، منها أن النبى ﷺ فى عودته من حجة الوداع نزل بالجحفة عند غدير خم[2] فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة، حيث نزل عليه جبريل بالآية القرآنية الكريمة: ﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾. فنادى النبى بالصلاة، حتى إذا فرغ منها خطب الناس، وهو آخذ بيد على بن أبى طالب، وقال – عليه الصلاة والسلام – فى خطبته: ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار. فأقبل الصحابة على على ليهنئوه بأنه أصبح مولى جميع المسلمين[3] وعلى هذا الحديث يستند العلويون منذ أقدم العصور الإسلامية لتدعيم العقائد الشيعية وتبريرها[4]، ولا سيما عقيدتهم فى الإمامة التى تتمثل فى أعقاب النبى ﷺ الذين تسلسلوا من أولاد ابنته فاطمة وزوجها على، فحفدة النبى هم أحق الناس بأن يعرفوا حقيقة رسالة جدهم؛ لأنهم وحدهم دون غيرهم ورثة علم النبى ﷺ .

وللإمامة عند الشيعة أهمية عظمى؛ فهى: "من أجل الأمور بعد الرسالة؛ إذ هى فرض من أجل فرائض الله، فإذن لا تقوم الفرائض ولا تقبل إلا بإمام عدل[5]". والإمام – عند الشيعة عامة – مكانه على رأس الجماعة الإسلامية حاكما وفقيها، وقد وهب له الله قوى روحية فائقة تسمو به عن مستوى البشر، فروحه أنقى من روح الآدميين العاديين لخلوها من نزعات الشر وتحليها بالصفات القدسية. ويرتفع بعض غلاة الشيعة بعلى والأئمة من بعده إلى مراتب تجعلهم صورا وأشكالا يتمثل فيها الجوهر الإلهى ذاته،

---

(١) فرق الشيعة للنوبختى، ص ١٩، وكتاب المقالات والفرق للأشعرى القمى، ص ١٦.

(٢) موضع بين مكة والمدينة.

(٣) المسند لأحمد بن حنبل، ج١ ص ٨٤،١١٨،١١٩،١٥٢، ج٤ ص ٢٨١،٣٦٨،٣٧٠، والتنبيه والأشراف للمسعودى، ص ٢٥٥–٢٥٦، وطبقات ابن سعد، ج٥ ص ٢٣٥.

(٤) انظر الهاشميات للكميت بن زيد السدى المتوفى سنة ١٢٦ هـ، ص ٨١، طبع الرافعى:

ويوم الدوح دوح غدير خم   أبان له الولاية لو أطيعا

(٥) النوبختى، ص ١٩، الأشعرى القمى، ص ١٦.

ويرون أن جثمانية هذا الجوهر ليست سوى حادث طارئ. ومن هؤلاء طائفة تعرف (بالعليائية) أو (العلياوية[1]).

والإمام عند الشيعة – فوق أنه معصوم من الخطأ بلطف من الله عز وجل – يتميز بأنه يتوارث علمًا باطنيًا وآيات رمزية متواترة، تنتقل بالوراثة فى أسرة النبى ﷺ من جيل إلى جيل، وهى تشمل حقائق الدين وكافة حوادث العالم. وعلى ذلك لا يصح عندهم الفصل فى المسائل الدينية إلا برأى الإمام، ولا يكون للإجماع – وهو من المبادئ الأربعة التى أقرتها عقائد أهل السنة والجماعة – قيمة إلا بمساندة الإمام ومعاونته.

وتعتقد بعض الطوائف الشيعية بخلود الإمام ورجعته ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا وظلمًا[2]. ويذكر الأصفهانى فى الأغانى[3] خطبة ألقاها أبو حمزة الخارجى (سنة ١٣٠ هـ) فى المدينة عن الشيعة، نفهم منها[4] أن الفرق المعادية للشيعة أقامت نقدها لهم فى تلك الفترة المبكرة على أساس أن آراءهم ومعتقداتهم فى (الإمام) تمثل

(١) القمى، ص ٥٩–٦٠، ابن حزم، ج٤ ص ١٨٦، الشهرستانى، ج١ ص ٣٧٠–٣٧٢، مقدمة ابن خلدون، طبع وافى، ص ٥٣٠ وما بعدها.

(٢) وتخالفهم فى ذلك الإسماعيلية، وإن كنا نلاحظ أن نظرية المهدى، مثلها فى ذلك مثل نظرية الرجعة، قد ظهرت لدى الإسماعيلية فى طور مبكر، عندما بشر دعاتهم بقرب رجعة الإمام الغائب، محمد بن إسماعيل، ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا وظلمًا. وقد سبب قيام الدولة الفاطمية فى المغرب على يد عبيد الله المهدى – كما سنرى فيما بعد – اضطرابًا كبيرًا فى العقائد الإسماعيلية المتعلقة برجعة الإمام، بل سبب انشقاقًا فى صفوف الدعاة. والثابت أن الإسماعيلية فى جزيرة (الرى) بإيران لم يعترفوا بالإمام الفاطمى، تعلقًا بعقيدتهم السابقة برجعة محمد بن إسماعيل، إلا بعد عصر المعز لدين الله، الخليفة الفاطمى. وبعد موت الحاكم بأمر الله الفاطمى اعتقد بعض الإسماعيلية فى رجعته.

(٣) ج٢٠ ص ١٠٧.

(٤) ونرى اللهجة نفسها فى الهجوم على معتقدات الشيعة فى كتاب أرسل به الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر. انظر الطبرى، طبع دى خويه، القسم الثانى ص ١٦٨٢.

خروجا على أحكام الشريعة؛ لاعتقادهم أن الإمام فوق مستوى البشر، يعلم الغيب، من اتبعه وأطاعه سقطت عنه التكاليف، وخلا من المسئولية[1].

نخلص من هذا إلى أن مسألة الإمامة – وما يتعلق بها من عقائد – هي أعظم الأصول الإيمانية في العقائد الشيعية، وهي التي تميز المذهب الشيعي من غيره من المذاهب الإسلامية.

ولقد كانت موقعة كربلاء (سنة ٦١ هـ) أول وأقوى دافع لتحول التشيع إلى ذلك الاتجاه الديني، ففضلا عن المظهر العاطفي الذي اكتسبه الاتجاه الجديد نجده قد اصطبغ بلون من ألوان الحماسة الشديدة، وبالمناداة (بثارات الحسين). وقد علق المستشرق الإنجليزي إدوارد براون على تلك الموقعة بقوله: "لقد ظل الشيعة – على ما رأينا لسوء الحظ – تنقصهم الحماسة وبذل النفس، بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين، وغدت ذكرى كربلاء الملطخة بدماء ابن بنت النبي، مع ما قاساه من شدة العطش وإحاطته بجثث القتلى من أقاربه الذين تساقطوا هناك – كل ذلك غدا منذ ذلك الحين كافيا لإثارة عاطفة الحماسة التي كانت أشد ما تكون، وعاطفة الحزن التي تملكت النفوس، حتى عند أكثر الناس فتورا وتراخيا. وأصبحت هذه الروح التي لا تبالي بالآلام والأخطار، بل وبالموت، ترى كل هذه أمورا هينة غير جديرة بالتفكير فيها[2]".

٢ – الفرس والتشيع:

كان استياء الموالي من الفرس وغيرهم والمظالم التي يشكون منها مرتعا لكل حركة ثورية حدثت في عهد الدولة الأموية، فما أن اتجهت الحركة الشيعية إليهم اتجاها قويا حتى التف حولها جمع غفير منهم، اعتنقوا مبادئها، ودافعوا عنها ببسالة منقطعة النظير.

---

(١) ولقد وصل الإسماعيلية في إيران في نهاية الأمر – كما سنرى فيما بعد – إلى المجاهرة برفع التكاليف ونبذ أحكام الشريعة، ليس فقط بمقتضى (تأويلهم) المتعسف لبعض آيات القرآن الكريم، ولكن أيضا لأن إمامهم، الحسن بن محمد بن بزرك اميد (على ذكره السلام)، قد سمح لهم بذلك.

(٢) تاريخ الأدب في إيران، ج١ ص ٢٢٦–٢٢٧ من الأصل الإنجليزي، ص ٣٣٣ من الترجمة الفارسية. ولقد نشأ في الأدب الشيعي بوجه عام، بعد مأساة كربلاء، موضوع قائم بذاته لا ينضب معينه، وهو موضوع (محن آل البيت). وتمثل أشعار التعزية التي تظهر بكثرة في الأدب الفارسي في العصر الصفوي جانبا هاما من جوانب هذا الموضوع، تلك الأشعار التي تتحدث حديثا مسرحيا مؤثرا عن مآسي يوم كربلاء وفجائعه.

ويرى جوبينو[١] – ويذهب براون مذهبه[٢] – أن العقيدة المتعلقة بالحق الإلهى التى أودعت فى الأسرة الساسانية كانت ذات أثر عظيم فى تاريخ الفرس والتشيع، "فلقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية مع ديمقراطية العرب[٣]، غير أنها لا يمكن أن تظهر فى نظر الفرس إلا بمظهر ثورى غير مطابق لطبيعة الأشياء". ويعتقد الفرس أن الحسين بن على، وهو أصغر ولدى فاطمة بنت النبى ﷺ قد تزوج (شهربانو) ابنة يزدجرد الثالث، آخر ملوك الساسانين. واستنادا إلى هذا أصبح الأئمة من الشيعة بقسميها (الإثنا عشرية والإسماعيلية) لا يمثلون حق أهل بيت النبوة وخصائصها فحسب، بل يمثلون حق الملك وفضائله أيضا، من حيث كونهم يتمتعون بانحدارهم من أصل مزدوج، من بيت الرسالة ومن أسرة ساسان. ومن هنا نشأت هذه العقيدة السياسية[٤].

وسواء حدث هذا الزواج أم لم يحدث، فالشيعة الفرس يقبلونه كحقيقة تاريخية .ومن أوائل المؤرخين الذين أشاروا إليه اليعقوبى الذى كان يعيش فى نهاية القرن الثالث الهجرى، فقد قال فى حادثة قتل الحسين : "وكان للحسين – عليه السلام – من الولد، على الأكبر لا بقية له، قتل بالطف[٥]، وأمه ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى، وعلي الأصغر، وأمه حرار بنت يزدجرد، وكان الحسين سماها غزالة[٦]". فهى بذلك تعتبر أم على زين العابدين الإمام الرابع لدى الشيعة، ويبدو أن هذا المعتقد كان من العوامل التى دفعت الفرس إلى أخذ البيعة لهذا الإمام وأعقابه من بعده.

---

(١) ونحن ننقل رأيه هنا عن براون فى المصدر الآتى ذكره فى الحاشية التالية.

(٢) تاريخ الأدب فى إيران، ج١ ص ١٣٠ من الأصل الإنجليزى، ص ١٩٥ من الترجمة الفارسية.

(٣) ويعزو كرستنسن فى كتابه (إيران فى عهد الساسانيين) (ص ٤٩٣–٤٩٤ من الترجمة العربية) إلى الديمقراطية التى أدخلها الإسلام فى إيران السبب فى تدهور النظام الإيرانى القديم؛ فقد أدت هذه الديمقراطية إلى القضاء تدريجيا ونهائيا على طبقات الأشراف التى يعدها للمؤلف المذكور أساس الحضارة فى عهد الساسانيين، وضيعت الصفات التى كانت تميزهم من غيرهم.

(٤) تاريخ الأدب فى إيران، ج١ ص ١٣٠، وص ١٩٥ من الترجمة الفارسية. لا زال لشهربانو منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر منزلة كبيرة فى الأدب الفارسى. انظر أيضا براون فى المرجع نفسه، ص ١٣١–١٣٤ من الأصل الإنجليزى، ص ١٩٧–٢٠٠ من الترجمة الفارسية.

(٥) قسم من (خوزستان) يجاور الأراضى الصالحة للزراعة فى العراق.

(٦) تاريخ اليعقوبى، ج٢ ص ٢١٨ طبع النجف.

وقد أدى كلف الفرس بالتشيع الذى يضفى صفة قدسية على الإمام إلى ظهور الوهم القائل بأن التشيع فى منشئه ومراحل نموه يمثل الأثر التعديلى الذى أحدثته أفكار الفرس بعد اعتناقهم الإسلام. فقد قال دوزى فى كتابه (مقالة فى تاريخ الإسلام): "كانت الشيعة فى حقيقتها فرقة فارسية،... لقد مبدأ انتخاب خليفة للنبى أمرا غير معهود، ولأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة فى الحكم، لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد لم يترك ولدا يرثه فإن عليا هو الذى كان يجب أن يخلفه، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية فى آل على. ومن هنا فإن جميع الخلفاء ـ ماعدا عليا ـ كانوا فى نظرهم مغتصبين للحكم، لا يجب لهم طاعة. وقوى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية، فكانوا فى الوقت نفسه يلقون بأنظارهم النهمة إلى ثروات سادتهم. وهم قد اعتادوا أيضا أن يروا فى ملوكهم أحفادا منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا، فنقلوا هذا التوقير الوثنى إلى على وذريته. فالطاعة المطلقة (للإمام) الذى من نسل على كانت فى نظرتهم الواجب الأعلى. حتى إذا ما أدى المرء هذا الواجب استطاع بغير لائمة ضمير أن يفسر سائر الواجبات والتكاليف تفسيرا رمزيا وأن يتجاوزها. ولقد كان (الإمام) عندهم هو كل شئ، إنه الله قد صار بشرا.. فالخضوع الأعمى المقرون بانتهاك الحرمات. ذلك هو الأساس فى مذهبهم[1]".

و إلى هذا الرأى يذهب أيضا مولر، ويضيف إليه أن الفرس كانوا تحت تأثير الأفكار الهندية ـ قبل الإسلام بزمن طويل ـ يميلون إلى القول بأن الشاهنشاه هو تجسيد لروح الله التى تنتقل فى أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء[2].

وقد بين فلهوزن فى فصل حسن الحجة[3] من كتابه (أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام: الخوارج والشيعة) خطأ هذه النظرية منتهيا إلى قوله: "أما أن آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين فهذا أمر لا سبيل إلى الشك فيه، أما كون هذه الآراء قد انبعثت من الإيرانيين فليست تلك الملاءمة دليلا عليه، بل إن الروايات التاريخية تقول

(١) عن كتاب أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام، ص ٢٤٠.

(٢) انظر أحزاب المعارضة، ص ٢٤١.

(٣) نفس المرجع، ص ٢٣٤-٢٥٤.

بعكس ذلك، إذ تقول إن التشيع الواضح الصريح كان قائما أولا فى الدوائر العربية، ثم انتقل بعد ذلك منها إلى الموالى[1]، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الدوائر[2]".

حقيقة إن صفة المعارضة التى تميز بها التشيع قد صادفت عند الفرس قبولا وترحيبا[3]،فاعتنقوا – مثلهم فى ذلك مثل العرب سواء بسواء – هذه الفكرة الإسلامية، وأثروا فى نموها وتطورها بفضل عقيدتهم الوراثية القديمة المتعلقة بالحق الإلهى. غير أن بوادر هذه العقيدة لا يشتم منها وجود مثل هذا التأثير الفارسى. فالتشيع إذن عربى فى نشأته وفى أصوله التى نبت منها.

ولقد أثرت نزعة المعارضة التى ينطوى عليها التشيع فى الكيفية التى اعتنق بها كثير من الفرس التشيع، إذ انضموا إلى جانب أكثر فرقه تطرفا وغلوا، ولا يصح أن نزعم أن مرجع هذا هو العصبية الفارسية القومية؛ لأن الفرق المذهبية تتسم بأنها أكثر انطباعا بالدين، وأقل تمسكا بالعصبية القومية[4].

وهناك رأى يلقى تأييدا من جانب بعض الباحثين المحدثين من الإيرانيين يذهب إلى أن الفرس اعتنقوا التشيع للمحافظة على كيانهم القومى من الضياع فى مواجهة طغيان الخليفة العباسى السنى فى بغداد. ويقول الأستاذ سعيد نفيسى فى مقدمته لكتاب (قابوس نامه)[5] بأن الروح الإيرانية: "كانت على الدوام يقظة متحفظة طيلة السنين الأربعمائة الأولى من الهجرة، فقد قام البعض بمجابهة العرب بالسيف والعداء، والتمس البعض فى مذهب زردشت ومذهب مزدك وسيلة يستطيعون بها القضاء على نفوذ العرب، وأحدث البعض قوانين جديدة يتوسلون بها لطرد الغرباء، ودخل البعض من طريق السلم، فأخذوا بغداد من كل جانب، وأقروا المدنية الساسانية على عرش خلفاء بنى العباس، إذ تقلد بعضهم العمل كوزير أو كاتب أو عامل ديوان، وسلك البعض طريق النفاق ولبسوا مسوح الاعتزال والشعوبية، والصوفية والقرمطية وغيرها، فكانوا

---

(١) ويقول ياقوت فى معجم البلدان (ج٤ ص ١٦٠): إن العرب المهاجرين هم الذين نقلوا التشيع إلى أهل (قم) والقرى التى حولها فى الشمال الغربى لإيران، وإن ذلك قد حدث فى وقت مبكر (سنة ٨٣ هـ).

(٢) أحزاب المعارضة ص ٢٤١.

(٣) جولد زيهر، العقيدة والشريعة، ص ٢٠٥.

(٤) أحزاب المعارضة لفلهوزن، ص ٢٥٢.

(٥) طبع طهران، ص ز.

يثون الاضطراب فى مقدرة خليفة العرب، وقام البعض بتأسيس عرش واتخاذ تاج فى ناحية من نواحى ديارهم، وقبلوا الإذعان للخليفة، إما عن خداع وإما عن خشية. وبعد هذه السنين الأربعمائة حذقوا كافة الوسائل الممكنة، واتفق الإيرانيون جميعا على أن أفضل طريق للخلاص من هذا الخطر الداهم المهلك هو أن يبقى الخليفة للعرب، وألا يفكر فى حكم الإيرانيين، ومن هذه المشكلة المحيرة نبع التشيع".

فسعيد نفيسى إذن يرجع السبب فى اعتناق الفرس للتشيع إلى نزعة تعصبية قومية. وهو بهذا التفسير – الذى أراد به أن يمجد قدم النزعة القومية لدى الفرس – يسلب المناحى الإيجابية لكل ما قام به الفرس فى نطاق الحضارة الإسلامية من جهود وما تركوه من آثار فائقة القيمة، لا تقل عما تركه العرب أنفسهم، إن لم تكن تفوقه فى بعض النواحى، ويجعل ذلك برمته سلبية مطلقة، هدفها الأسمى طرد الغرباء والانتقام للساسانيين. والثابت تاريخيا أن الأسرات الحاكمة التى قامت فى عصر الدولة العباسية فى إيران والتى يقال إنها تنحدر من أصل ساسانى، ويعدها الفرس رمزا لاستعادة مجد الساسانيين القديم كالسامانيين – لم تتخذ التشيع مذهبا تتوسل به إلى القضاء على سلطان الخليفة العربى، بل كان مذهبها سنيا كمذهب الخليفة سواء بسواء. أما المناطق الواقعة فى الشمال الغربى لإيران كطبرستان وجيلان والديلم فإن أهلها لم ينتقلوا من مذهب إسلامى كانوا يتبعونه إلى التشيع لأنهم وجدوا فيه مخلصا، إنما كان إسلامهم على يد الشيعة الزيدية دعاة طبرستان، فدخلوا فى الإسلام على مذهب الشيعة[1].

فلا سبيل إذن إلى القول بأن تشيع الفرس يمثل نزعة تعصبية قومية.

غير أن التشيع – وقد انتشر فى إيران فى عصر مبكر من عصور الإسلام – لم يسلم من تقبل بعض الأفكار والآراء الفارسية التى كانت شائعة قبل ظهور الإسلام فى تلك المناطق. وتعد الفكرة الخاصة بظهور المهدى الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا من العلامات الفارقة فى تاريخ التشيع، وهى الفكرة التى يميل بعض المستشرقين إلى ردها إلى أصول فارسية قديمة. ويذهب كل من فان فلوتن وجولد زيهر

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى، ج٢ ص ٤٣٠ طبع بولاق، وتاريخ طبرستان، لسيد ظهير الدين المرعشى، ص٢٧٨.

إلى أن فكرة ظهور المهدى التى أدت إليها نظرية الإمامة، والتى تجلت معالمها فى الاعتقاد بالرجعة – منشؤها المؤثرات اليهودية والمسيحية[١].

إلا أن ماسينيون[٢] يرجع بفكرة المهدى إلى الإسلام، فيقول إنها نشأت من القرآن وتقاليد المسلمين ومن القصص الشعبية العربية وانتعشت بتأثير الأحوال الاجتماعية[٣].

ولكن الملاحظ أن لفظ المهدى بمعناه المفهوم لدى الفرق الشيعية المتأخرة قد ظهر أول ما ظهر فى ثورة المختار الثقفى[٤] ضد بنى أمية، تلك الثورة التى أعلنها سنة ٦٦هـ مستظهرا بالموالى من الفرس[٥] فى الكوفة.

ولقد كانت استعانة المختار بالموالى فى ثورته هذه مطلع حركة خطيرة بعيدة الأثر فى التاريخ الإسلامى. ولقد ادعى المختار أن أحد أبناء على من أم حنفية هو المهدى، وجعله أسمى ممثل للحكومة الإلهية على الأرض، وخليفة على والرسول بتفويض من الله سبحانه. وقد أدى هذا إلى ظهور عقيدتى الغيبة والرجعة المهديتين اللتين قالت بهما جميع الفرق الشيعية المتأخرة تقريبا. ونجد أصولا العقيدة الرجعة كانت قائمة فى إيران قبل ظهور الإسلام. فبعد أن قتل مانى (سنة٢٧٦م) ومزدك (٥٢٩م) شاع بين أتباعهما

---

(١) فان فلوتن فى كتاب (السيادة العربية)، ص ١٢١–١٢٣ من الترجمة العربية، وجولد زيهر فى (العقيدة والشريعة فى الإسلام)، ص ٢٠٥ من الترجمة.

(٢) محاضرات فى الكلية الفرنسية سنة ١٩٣٦، ص ٣٧، نقلا عن برنارد لويس فى كتابه أصول الإسماعيلية، ص ٨٦ من الترجمة العربية، حيث ينقل لويس الآراء المختلفة التى يذهب إليها المستشرقون فى أصل هذه العقيدة.

(٣) أيضا، ويرى المفكر الإسلامى الكبير محمد إقبال أن فكرة المهدى ليست إسلامية، وإنما ظهرت بتأثير الفكر المجوسى، فهو يقول فى كتابه (تجديد التفكير الدينى فى الإسلام)، ص ١٧٧ من الترجمة العربية: "لقد سار ابن خلدون على هدى من نظرته إلى التاريخ، فأفاض فى نقده، وقضى- فيما أعتقد – قضاء نهائيا على الأساس المزعوم لفكرة ظهور مخلص فى الإسلام. وهى فكرة شبيهة فى آثارها السيكولوجية بالفكرة المجوسية الأصلية التى كانت قد ظهرت تحت تأثير الفكر المجوسى".

(٤) الطبرى، القسم الثانى، ص ٦١١ طبع ليدن، وإن كان لفظ المهدى قد أطلق على على والحسن والحسين من قبيل التعظيم وبمعنى سياسى. انظر مقال ماكدونالد عن المهدى فى دائرة المعارف الإسلامية، وفلهوزن فى أحزاب المعارضة، ص ٢٤٦.

(٥) انظر الدينورى فى الأخبار الطوال، ص ٢٨٨.

أنهما لم يقتلا، وإنما رفعا إلى السماء، وأن كلا منهما سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلمًا[1].

والواقع أن التشيع ظهر فى البيئات الفارسية بشكل واضح بعد ثورة المختار الثقفى، وانتشر دعاته[2] فى إيران. وكانوا من الكثرة والقوة بحيث خشيهم دعاة العباسيين عندما اصطدموا بهم فى خراسان، مما اضطر محمد بن على بن عبد الله بن العباس إلى تتويج الدعوة بعبارة مبهمة هى (الرضا من آل محمد)، فاجتمعت الدعوتان العلوية والعباسية ظاهرًا، وافترقتا باطنا، وإن عرفتا بالدعوة الهاشمية؛ نسبة إلى هاشم الجد المشترك لكل من العباسيين والعلويين. وكان أن ظفر العباسيون بهذا الجهد المشترك فى الدعوة، وأقاموا الدولة العباسية بفضل الجهود التى بذلها أبو مسلم الخراسانى فى القضاء على دولة بنى أمية.

٣ـ بدء الانقسامات الداخلية فى التشيع:

لقد اصطبغ التشيع بعد ثورة المختار بصبغة ثورية لازمته فى مراحل تطوره كلها تقريبًا. والواقع أن تسرب الموالى إلى التشيع لم يكن هو الأثر الوحيد لثورة المختار؛ فقد أحدثت هذه الثورة أثرًا آخر لا يقل أهمية عن سابقه، ذلك هو بدء قيام الانقسامات الداخلية فى التشيع. ففى خلال تلك الفترة التى تربو على السبعين سنة بين انتهاء ثورة المختار وظهور الإسماعيلية ظهرت فى الفرق الشيعية الغالية نزعتان متباينتان، يصح تسميتهما بالحنفية والفاطمية[3]. كان أصحاب النزعة الثانية أتباع الأئمة من سلالة على وفاطمة، أى الحسن والحسين وذريتهما.

---

(١) كرستنسن، (إيران فى عهد الساسانيين)، ص ١٨٧-٢٤٤ من الترجمة العربية. ويحيى الخشاب، ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية الواردة فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) أصبح الدعاة ظاهرة مميزة للشيعة بعد مقتل الحسين مباشرة فى كربلاء، انظر الطبرى طبع ليدن، القسم الثانى، ص٥٠٧ وما بعدها فى شأن عبيد الله المهدى. والملاحظ انه فى هذه العصور المبكرة (سنة ٦٥ هـ) اتخذت الدعوة السياسية شكل الموعظة الدينية.

(٣) انظر لويس فى كتابه أصول الإسماعيلية، ص ٢٦ من الأصل الإنجليزى، ص ٨٨ من الترجمة العربية.

وقد استطاع دعاة العباسيين فى مهارة أن يستوعبوا فى دعوتهم لبنى العباس غلاة الشيعة فى الكوفة وخرسان من أصحاب النزعة الحنفية[1] وأن يستخدموهم أداة لهم. ومن ثم فقدت الحنفية بعد قيام الدولة العباسية السبب الذى يبرر وجودها. ولما زالت الحنفية أصبحت الفاطمية - بعد أن استغرقت بقايا الحنفية - هى الفرقة الغالية بين الشيعة، وواصلت نضالها القديم ضد الشيعة المعتدلين[2].

والحقيقة أن للحنفية بعض الأهمية فى تبيان أصول كثيرة من الأفكار والعقائد الإسماعيلية، وقد افترقت هذه الفرقة بعد وفاة محمد بن الحنفية إلى فرقتين:

١ - **الكربية:** وهم أصحاب أبى كرب الضرير، زعموا أن محمد بن الحنفية حى لم يمت، وأنه فى جبل رضوى بالقرب من المدينة، وعنده عين من الماء وعين من العسل[3]، وأنه المهدى، سيعود ليملأ الأرض قسطًا وعدلاً[4].

وكان ممن ذهب مذهب الكربية حمزة بن عمارة البربرى الذى ادعى أنه نبى، وأن محمد بن الحنفية هو الله[5]. ومن الكربية أيضًا رجلان، يقال لأحدهما بيان، وللآخر صائد. وقد أنشأ كل منهما فرقة باسمه[6].

٢ - **الهاشمية**[7]: قالوا إن محمد بن الحنفية مات، والإمام بعده ابنه عبد الله، وكان يكنى أبا هاشم. وغلوا فى أبى هاشم، وقالوا إنه يحيى الموتى. فلما توفى أبوهاشم سنة ٩٨ هـ تفرق أصحابه أربع فرق:

---

(١) وتسمى الحنفية أيضًا بالكيسانية؛ نسبة إلى كيسان. وكان اسمًا للمختار الثقفى. البغدادى فى الفرق بين الفرق، طبعة محمد بدر، ص ٢٧، جهانكشاى، ج٣ ص ١٤٣، وما يقابلها من الترجمة، جامع التواريخ، الجزء الخاص بالإسماعيلية ص٩.

(٢) إن بحثنا هنا يتناول فرق الغلاة دون المعتدلين، وهم الإمامية أو الإثنا عشرية.

(٣) ينسب فلهوزن هذه الفكرة إلى الإنجيل. انظر أحزاب المعارضة فى صدر الإسلام، ص ٢٤٧ من الترجمة العربية.

(٤) فرق الشيعة للنوبختى، ص ٢٥، كتاب المقالات والفرق للقمى، ص ٢٧، مقالات الإسلاميين للأشعرى، ج١ ص١٧، الفرق بين الفرق للبغدادى، طبعة محمد بدر، ص ٢٧، بيان الأديان لأبى المعالى، ص ٣٥.

(٥) النوبختى، ص ٢٨، القمى، ص ٣٢-٣٣.

(٦) النوبختى، ص ٢٥، ٣٠. القمى، ص ٥٦، وفى البيانية انظر القمى أيضًا، ص ٣٧، البغدادى، ص ٢٢٧، الشهرستانى، ص ٢٩٥ وما بعدها، الأشعرى، ج١ ص ٥، ابن حزم، ج٤ ص ١٧٩.

(٧) النوبختى، ص ٣٠، القمى، ص ٣٨، الأشعرى، ج١ ص ٢٠، الشهرستانى، ج١ ص ٢٩٠ وما بعدها، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازى، ص ٦٣.

(أ) فرقة قالت: إن أبا هاشم مات، وأوصى إلى أخيه على بن محمد بن الحنفية، ثم أوصى بالإمامة لبنى العباس.

(ب) فرقة قالت: إنه أوصى إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب، أبى على، وهم أصحاب عبد الله بن الحارث، ويسمون الحارثية. وكان ابن الحارث هذا من أهل المدائن. ومالت فرقة من الحربية إليهم[١].

(ج) فرقة قالت: أوصى أبو هاشم إلى محمد بن على بن عبد الله العباسى بأرض الشراة بالشام. ويسمى هؤلاء الروندية.

(د) فرقة قالت: إن الإمام القائم المهدى هو أبو هاشم، وقد مات ويرجع، فيقوم بأمر الناس، ويملك الأرض، ولا وحى بعده. وقد قتل بيان على هذه المقالة، وصلب فى سنة ١١٩هـ.

وتخبرنا مصادرنا بأن هذه الفرق كلها بشرت بعقائد غالية، وادعت أن للإمام قوى خارقة، وذهب بعضها – ومنها الكربية – إلى تأليه الإمام. كما تنسب المصادر إلى هذه الفرق نظريات إباحية، كحمزة بن عمارة البربرى الذى نكح ابنته، وأحل جميع المحارم، وقال: من عرف الإمام فليصنع ما شاء[٢]. وكانت هذه الفرق بلا استثناء تؤمن بالرجعة والغيبة، وكان بعضهم يزعم أن محمد بن الحنفية يظهر بعد الاستتار عن خلقه، فينزل إلى الدنيا، ويكون فيها بين المؤمنين. وهذا معنى الآخرة عندهم[٣].

ومما يسترعى الانتباه الفكرة التى انبثقت فى عقائد هذه الفرق، وهى تاويل الآيات القرآنية، تلك التى أدت فى النهاية – لدى الإسماعيلية – إلى نبذ كل أحكام الشريعة وفرائضها.

---

(١) الحربية فرقة من غلاة الشيعة، من أصحاب عبد الله بن عمرو بن الحرب الكندى، وهم يقولون بالتناسخ. القمى، ص٢٦.

(٢) النوبختى، ص ٢٨، القمى، ص ٣٤.

(٣) النوبختى، ص ٢٩، القمى، ص ٣٤. وقد ظهرت هذه الفكرة فى أوج قوتها لدى الإسماعيلية فى إيران فى دعوة القيامة التى نادى بها الحسن على ذكره السلام، كما سيأتى.

هذه هى الفرق الرئيسة للحنفية. وقد اختفت هذه الفرق عن الوجود باستيلاء العباسيين على الحكم(١). واستغرقت الفاطمية ما بقى من أتباعها.

والفاطمية نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وزوج على بن أبى طالب، وأم الحسن والحسين. ويجدر بنا أن نشير إلى الفرق المتصلة بذرية الحسن قبل أن ننتقل إلى الكلام عن السلالة الفاطمية الحسينية.

ولقد أعلن محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على (١٠٠-١٤٥ هـ) أنه القائم المهدى، وأنه الإمام. وكان المغيرة بن سعيد العجلى قد قال بهذا القول وعمل على نشره، وكون فرقة نسبت إليه، وسميت بالمغيرية. وزعم المغيرة أنه رسول نبى. ولما توفى محمد النفس الزكية ادعوا أنه فى الغيبة وسوف يرجع. وكان المغيرة قد خرج بالكوفة فى إمارة خالد بن عبد الله القسرى، فظفر به خالد وصلبه سنة ١١٩هـ. ويظهر أن لهذه الفرقة أثرا كبيرا فى تطور الأفكار الباطنية(٢). ولم يكن النفس الزكية يميل إلى الاعتراف بالمغيرة(٣)، وهو عند الإمامية ملعون(٤).

والواقع أن السلالة الفاطمية قد أصيبت بالخذلان من جراء قتل أساطين دعاتها فى فاجعة كربلاء، غير أنها بعد أن استعادت قوتها لم تلبث أن قامت بحركة خطيرة تولاها زيد بن على زين العابدين الذى ادعى الإمامة العلوية فى الكوفة سنة ١٢٠ هـ، والتف حوله جمع كثير سموا بالزيدية؛ نسبة إليه. والزيدية هى أكثر فرق الشيعة تساهلا، وأقربها إلى السنة؛ فأتباعها لا يكفرون أبا بكر وعمر والصحابة الذين لم يعترفوا بعلى خليفة أول للنبى ﷺ.

أما السلالة الفاطمية الحسينية فقد اشتدت شوكتها وكثر أتباعها كثرة هائلة فى حياة محمد الباقر، الإمام الخامس.وانشعبت منهم فرقة هامة واحدة على الأقل، هى المنصورية

---

(١) يرى فان فلوتن فى كتاب السيادة العربية (ص ٩٦ من الترجمة العربية) أن حركة الدعوة العباسية التى سبقت استيلائهم على الحكم لم تكن فى صميمها إلا نوعا من التشيع الحنفى.

(٢) برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، ص ٢٩ من الأصل الإنجليزى، ص ٩٤ من الترجمة.

(٣) النوبختى، ص ٣٥، ٤٠، ٥٩، ٤٢، ٤٣. القمى، ص ٤٣، ٤٤، ٥٠، ٥٥، ٧٤، ٧٦، ٧٧. الشهرستانى، ج١ ص ٣٧٣ وما بعدها. البغدادى، ص ٢٢٩ وما بعدها. الأشعرى، ج١ ص ٦ وما بعدها. ابن حزم، ج٤ ص ١٨٤. الكشى، ص١٤٥-١٤٨.

(٤) انظر بوجه أخص الكشى فى نفس الموضع.

أتباع أبي منصور العجلي. وكان رجلا من أهل الكوفة ادعى أنه خليفة الباقر، ثم عاد فزعم أنه نبي، وأنه عرج به إلى السماء،.كما زعم أن الجنة رجل أمر الناس بموالاته، وهو إمام الوقت، وأن النار رجل أمروا بمعاداته، وهو خصم الإمام. واستحل المحارم وأحلها لأصحابه، وتأولها كلها على أسماء رجال أمر الله بمعاداتهم. وأبطل الفرائض كالمواريث والطلاق والصلاة والصيام والحج، وتأولها على أسماء رجال أمر الناس بموالاتهم. وكان يأمر أصحابه بخنق من خالفه، وقتلهم بالاغتيال، ويقول: من خالفكم كافر مشرك، فاقتلوه. وقد انتهى أمر أبي منصور هذا بالصلب على يد يوسف بن عمر الثقفي، والى العراق في أيام هشام بن عبد الملك، حوالى سنة ١٢٥هـ،الذى نكل بأتباعه[1]. وواضح أن هذه الفرقة الفاطمية قد شاركت في وضع الأسس العقائدية لفرقة الإسماعيلية عندما نشأت.

وبعد وفاة محمد الباقر تبع أكثر أتباعه ابنه جعفر الصادق، وقالوا بإمامته، وكان من أبرزهم رجل يقال له أبو الخطاب، مؤسس فرقة الخطابية.

وبعد وفاة الصادق سنة ١٤٨هـ حدث انشقاق خطير في صفوف الفاطمية، يمثل اتجاهات رئيسة ثلاثة[2]:

١ـ **الناووسية**[3]: وهم الذين زعموا أن جعفر بن محمد حي لم يمت، ولا يموت حتى يظهر، ويلى أمر الناس، وهو القائم المهدى.

٢ - **أتباع موسى الكاظم بن جعفر الصادق**: وهم الإمامية، أوالإثنا عشرية.

---

(١) النوبختى ص ٣٩، القمى ص ٤٦-٤٨، الشهرستانى ج١ ص ٣٧٧-٣٧٩. البغدادى، الفرق بين الفرق، ص٢٣٤-٢٣٥، ابن حزم، الفصل فى الملل والنحل، ج٤ ص ١٨٥-١٨٦، الأشعرى، مقالات الإسلاميين، ج١ ص ٩-١٠، الكشى ص ١٩٦، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازى، ص ٥٨. الطبرى، القسم الثانى ص ١٦٤٧-١٦٨٨. ويشذ النوبختى عن كافة المصادر فى نسبة الإباحة والتبشير بالمادية الفلسفية إلى المنصورية. ولقد عدها ابن حزم فرقة من فرق الخطابية التى سنتحدث عنها فيما بعد.

(٢) يجعل النوبختى - ص ٤٧ وما بعدها ويتبعه القمى ص ٧٩ وما بعدها - هذا الانشقاق فى ست فرق. ويحصره برنارد لويس فى (أصول الإسماعيلية) ص ٣٠-٣١ من الأصل الإنجليزى، وص ٩٥ وما بعدها من الترجمة العربية فى هذه الاتجاهات الثلاثة.

(٣) الأشعرى، ج١ ص ٢٣، ويسميها بالبابوسية. الفهرست لابن النديم ص ١٩٨. ويطلق على واحد من أتباعها البابوشية بالشين. البغدادى، ص ٣٩ (الناوسية) التبصير فى الدين للأسفراييني، ص٢٢، تلبيس إبليس، ص٢٢.

٣ ــ الإسماعيلية: الذين زعموا أن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل، ثم من بعده ابنه محمد بن إسماعيل.

وسرعان ما انقرضت الجماعة التى تمثل الاتجاه الأول. ونشأ من الاتجاه الثانى الشيعة الإثنا عشرية المعتدلة. أما الثالث فقد احتفظ بالتقاليد الرئيسة للتشيع المتطرف[١].

* * *

٤ــ نشأة الإسماعيلية:

يذهب النوبختى إلى القول بوحدة الحركتين الخطابية والإسماعيلية[٢]. والخطابية هم أتباع أبى الخطاب محمد بن زيد الأسدى الأجدع الذى يعد بإنشائه هذه الفرقة أول من نظم حركة ذات طابع باطنى خاص.

ولقد قال الخطابية إن أبا الخطاب نبى مرسل، أرسله جعفر الصادق، الذى زعموا أنه ذو طبيعة إلهية، وأنه يتمتع بقوة خارقة، ويستطيع أن يأتى بالمعجزات،فتبرأ جعفر من أبى الخطاب وأتباعه وأمر بالبراءة منه[٣].

وقال الخطابية بالتأويل، وتوصلوا عن طريقه إلى تحليل المحارم، وأظهروا الإباحات، وقالوا بالتناسخ، وزعموا أن الإيمان سبع درجات، كما زعموا أن الإلهية نور فى النبوة، والنبوة نور فى الإمامة ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار[٤]، فأدخلوا بذلك نظرية (النور) الشرقية القديمة فى التناسخ، تلك التى فصل النوبختى ملامحها عندهم، وهى تماثل كل المماثلة ما ورد فى كتابات الإسماعيلية المتأخرة[٥]. وكان رؤساء الخطابية قد لزموا المسجد بالكوفة، وأظهروا التعبد، ودعوا الناس سرا إلى مذهبهم، فبلغ خبرهم عيسى بن موسى، عامل الكوفة فى عهد أبى جعفر المنصور، فبعث رجلا من أصحابه إليهم، فقتل منهم فى المسجد سبعين رجلا، وأسر أبا الخطاب، فأخذه عيسى بن موسى، وضرب عنقه، وصلبه سنة ١٣٨هـ[٦].

---

(١) انظر برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، ص ٣١ من الأصل الإنجليزى، وص ٩٦ من الترجمة العربية.

(٢) فرق الشيعة ص ٦٩، وكذلك كتاب المقالات والفرق، ص ٨٢.

(٣) معرفة الرجال للكشى، ص ١٨٩.

(٤) الشهرستانى، الملل والنحل، ج١ ص ٣٨١.

(٥) برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، ص ٣٣ من الأصل الإنجليزى، و٩٩ من الترجمة العربية.

(٦) الكشى، ص ١٨٩.

وبعد موت أبى الخطاب تحولت فرقة من الخطابية إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وعدوه الإمام، وأعلنوا ولاءهم له. "فكانت فرقة الإسماعيلية هى الخطابية نفسها[١]"، أو بمعنى أصح، نشأت الإسماعيلية من الخطابية. ويقول القمى: "أما الإسماعيلية الخالصة فهم الخطابية[٢]". ويعنى الشهر ستانى[٣] بدراسة الفرق التى تفرعت عن الخطابية بعد موت أبى الخطاب، ويحصرها فى أربع فرق، هى: المعمرية، البزيغية، العميرية، المفضلية. وليس هناك خلاف حقيقى من حيث العقيدة بين هذه الفرق، وإنما الخلاف بينها قائم فى الرؤساء الذين تولوا قيادتها.

ورغم أن كتاب المقالات من أهل السنة لا يشيرون فى كتاباتهم إلى وجود صلة مباشرة بين الخطابية والإسماعيلية، إلا أن ما أوردوه من عقائد الخطابية يؤيد ما ذهب إليه النوبختى من وحدة الحركتين. فالأشعرى[٤] ينسب للخطابية عقيدة الإمام الصامت والناطق[٥]، وهى عقيدة اختصت بها الإسماعيلية.كذلك ينسب ابن حزم[٦] والشهرستانى[٧] إلى الخطابية أسلوب التأويل الإسماعيلى لآيات القرآن الكريم. وواضح أن كلا من عطا ملك الجوينى[٨] ورشيد الدين فضل الله[٩] يدركان الصلة بين أتباع أبى الخطاب والإسماعيلية. كل هذه الشواهد المستمدة من التشابه بين العقائد المذهبية لكل من الخطابية والإسماعيلية، والقرائن المستمدة من كتابات المؤرخين تدلنا دلاله واضحة على وجود علاقة بين الخطابية والإسماعيلية[١٠].

---

(١) أيضا.

(٢) المقالات والفرق ص٨١.

(٣) الملل والنحل للشهر ستانى، ج١ ص ٣٨٢-٣٨٥، وانظر أيضا البغدادى فى الفرق بين الفرق، ص ٢٤٢.

(٤) مقالات الإسلاميين ج١ ص٩.

(٥) سنناقش فكرة الناطق (النبى) والصامت (الإمام) فيما بعد عند الكلام عن عقائد الإسماعيلية.

(٦) الفصل فى الملل والنحل.

(٧) جهانكشاى، ج٣ ص١٥٢ وما يقابلها من الترجمة فى القسم الثانى من كتابنا هذا.

(٨) جامع التواريخ، الجزء الخاص بالإسماعيلية، طبع طهران، ص٩.

(٩) ويرى ماسينيون، انظر مقاله (القرامطة) فى دائرة المعارف الإسلامية، أن أبا الخطاب من المؤسسين الأول للإسماعيلية..

(١٠) معرفة الرجال للكشى، ص٢٠٦.

وهناك بعض روايات أوردها الكشى فى كتابه (معرفة الرجال) تشير إلى وجود علاقة وثيقة بين الخطابية وإسماعيل بن جعفر، وهى العلاقة التى استنكرها جعفر وقلق على ابنه من أجلها؛ لأنها ستجره حتما - بسبب انسياقه وراء آراء أبى الخطاب المتطرفة - إلى القتل على يد العباسيين. وهذه هى عبارة الكشى "قال جعفر للمفضل بن عمر(الجعفى وهو من الخطابية): يا كافر يا مشرك ما لك ولابنى[1] ؟"، ثم قال: "ما تريد إلى ابنى؟ أتريد أن تقتله[2]؟". ويرى برنارد لويس فى كتابه (أصول الإسماعيلية) استنادا إلى روايات الكشى - أن إسماعيل كان على صلة وثيقة بالأوساط المتطرفة والثورية التى أوجدت الفرقة المسماة باسمه(الإسماعيلية). وأن خلع جعفر لإسماعيل كان بسبب هذه الصلة[3]. غير أن لويس يقول بأن أبا الخطاب وإسماعيل قد أنشآ متعاونين نظام عقيدة صارت أساسا للمذهب الإسماعيلى[4]. وهو بهذا يحمل روايات الكشى، التى اعتمد عليها فى إصدار هذا الحكم، فوق ما تحتمل.

ويقسم النوبختى[5]، ويتبعه القمى[6]، من قال بإمامة إسماعيل بعد وفاة أبيه جعفر الصادق إلى فرقتين:

١- فرقة زعمت أن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل، وأنكرت موت إسماعيل فى حياة أبيه، وقالوا كان ذلك على جهة التلبيس؛ لأنه خاف فغيبه عنهم، وزعموا أن إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض، وأنه القائم. وهذه الفرقة هم الإسماعيلية الخالصة.

٢- فرقة زعمت أن الإمام بعد جعفر هو محمد بن إسماعيل، وقالوا إن الأمر كان لإسماعيل فى حياة أبيه، فلما توفى قبل أبيه جعل جعفر الصادق الأمر لمحمد بن إسماعيل وكان الحق له، ولا يجوز غير ذلك؛ لأن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد

---

(١) معرفة الرجال للكشى ص٢٠٦.

(٢) أيضا، ص٢٠٧.

(٣) برنارد لويس، أصول الإسماعيلية ص ١١١ من الترجمة العربية.

(٤) برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، ص ١١٠ من الترجمة العربية.

(٥) فرق الشيعة، ص ٦٧ - ٧٦.

(٦) المقالات والفرق، ص ٨٠ - ٨٦.

الحسن والحسين ولا تكون إلا فى الأعقاب. وأصحاب هذه المقالة يسمون المباركية؛ لرئيس لهم يقال له المبارك مولى إسماعيل بن جعفر[1]

ويبدو أن المباركة قد ضمت أتباع أبى الخطاب، ثم تحولت بعد أبى الخطاب إلى محمد بن إسماعيل.

وقد افترق المباركية عدة فرق، منها فرقة القرامطة؛ سميت بذلك لرئيس لهم من أهل السواد من الأنباط، كان يلقب(قرموطية)، وهؤلاء خالفوا المباركية بعد أن كانوا على مقالتهم، فقالوا: يكون بعد محمد صلى الله عليه و سلم سبعة أئمة: على وهو إمام، والحسن، والحسين، وعلى بن الحسين، ومحمد بن على، وجعفر بن محمد، ومحمد بن إسماعيل بن جعفر، وهو القائم المهدى، وهو رسول[2]، وهؤلاء رسل أئمة. أما هو فيعد لديهم خاتم النبيين. وزعموا أنه لم يمت، وأنه غائب مستتر. وللعدد (سبعة) عندهم أهمية بالغة. وقالوا بالتأويل، فزعموا أن معنى الجنة هو الإباحة للمحارم، واستحلوا قتل المخالفين وسفك دمائهم وأخذ أموالهم.

وبهذا نرى أن المباركية ضمت إليها قسما كبيرا من الخطابية، بعد أن اقتبست عقائدهم بشئ من التحوير، والتفت حول محمد بن إسماعيل، فنشأت منها الدعوة الإسماعيلية الموحدة التى تمخضت عنها التطورات العظيمة ذات القيمة التاريخية الهامة[3]. كما نرى أن الحركة الإسماعيلية ما هى إلا استمرار لحركات الغلو فى التشيع.

***

---

(١) يرى نظام الملك خطأ فى سياستنامه – ص ١٨٣ طبع شفر – أن المبارك وقرموطية شخص واحد.

(٢) "ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة وينسخ بها شريعة محمد". المقالات والفرق للأشعرى القمى، ص ٨٤.

(٣) انظر برنارد لويس فى (أصول الإسماعيلية)، ص ١١٤ من الأصل الإنجليزى، وص ١١٦ من الترجمة العربية. ولويس ماسينيون فى مقاله (القرامطة) فى دائرة المعارف الإسلامية، وبراون فى تاريخ الأدب فى إيران، الجزء الثانى، ترجمة المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربى ص ٢٤١.

الفصل الثاني

عقائد الإسماعيلية

لقد كان تزعم الإسماعيلية لحركة الغلو ذا أثر كبير فى معتقداتها التى تمثل تطرفا شديدا أثار تأفف الفرق الأخرى واستنكارها. حقيقة إن عقائد الفرق الشيعية الغالية قد أثرت فى عقائد الإسماعيلية تأثيرا لا يمكن إنكاره، غير أن نشأة العقائد الإسماعيلية وتطورها فى مراحلها الأولى قد صادفت ظاهرة لا تقل أثرا من حيث تشكيل هذه العقائد وتأصيلها فى وعاء فلسفى، ونعنى بها اليقظة الفكرية التى بدأت لدى قيام الدولة العباسية فى عصر أبى جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ). ولقد كانت هذه اليقظة نفسها أثرا من آثار حركة النقل من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية إلى العربية[١]. فلم يكد القرن الثانى الهجرى يوشك على الانتهاء حتى تم للعالم الإسلامى الوقوف على أهم كتب أرسطو الفلسفية، وعلى نخبة من كتب الشروح لأهل الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وعلى جملة من كتب جالينوس الطبية وطائفة من الكتب العلمية الفارسية والهندية. ولقد بلغ التأثير اليونانى أمده فى عصر المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ) لما كان بيديه من نزعة عقلية وصلت إلى القول بما قال به المعتزلة من وجوب التوفيق بين أحكام الشريعة وبين أحكام العقل[٢].

ويذهب البعض إلى القول بأن من أقوى المؤثرات التى ساعدت على تطور الأفكار الإسلامية عامة ما أتى عن طريق الفلسفة الأفلاطونية الحديثة[٣]. ولقد أثرت نظرية الفيض الأفلاطونية[٤] فى العقائد الإسماعيلية أيما تأثير، فنظام الأدوار النبوية ما هو إلا صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكونى التى وضحتها هذه الفلسفة[٥].

---

(١) الفهرست لابن النديم، ص ٣٤٤ – ٣٤٥.

(٢) ص ٣٤٣.

(٣) جولد زيهر، العقيدة والشريعة ص ٢١٣.

(٤) تلك الفكرة التى تبناها الصوفية، والتى تعد أساسا للفلسفة الدينية لجماعة إخوان الصفا الإسماعيلية.

(٥) جولد زيهر، العقيدة والشريعة ص ١٣.

فالإسماعيلية يعتقدون أنه قد مرت على النبوة ستة أدوار عظمى، هى أدوار آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد. ولقد بدأ الدور السابع بظهور محمد بن إسماعيل، وهو القائم، أو صاحب الزمان، وتظهر على يديه العقيدة الباطنية لأول مرة، ومن ثم يكون الفهم الواقعى للشريعة. وكل واحد من هؤلاء الأنبياء (النطقاء) لا بد له من يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته إلى أن يبلغ شريعته إلى غيره يكون شأنه معه كشأنه هو مع نبيه الذى اتبعه، وهكذا إلى أن يأتى على تلك الشريعة سبعة أشخاص يقال لهم الصامتون لثباتهم على الشريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أولهم، وسمى الأول الأساس أو السوس (أى الجذر). وفيما يلى أسماء الأنبياء الناطقين، وأساس كل واحد منهم[1]:

الناطق	الأساس (أو الصامت الأول أو الإمام الأول من الصوامت وهم الأئمة السبعة).
١ـ آدم	شيث (لكل صامت وإمام اثنا عشر حجة أو نقيبا)[2]
٢ـ نوح	سام
٣ـ إبراهيم	إسماعيل
٤ـ موسى	هارون
٥ـ عيسى	شمعون بطرس
٦ـ محمد بن عبد الله	على بن أبى طالب وأعقابه الحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وإسماعيل
٧ـ محمد بن إسماعيل	عبد الله بن ميمون القداح وابناه أحمد ومحمود وحفيده سعيد الذى عرف فيما بعد بعبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب (وقد ادعى أنه حفيد محمد بن إسماعيل).

(١) براون، تاريخ الأدب فى إيران، ج١ ص ٤٠٨– ٤٠٩ من الأصل الإنجليزى، ٥٩٦ –٥٩٧ من الترجمة الفارسية.

(٢) انظر الشهرستانى فى الملل والنحل، ج١ ص ٤٢٥.

وهكذا نرى أن محور المذهب يقوم على العدد سبعة. أما ما دون ذلك فيقوم على العدد (اثنا عشر). وهم يستدلون على ذلك بأمور، منها أن الله تعالى خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعة، وجعل أيضا السموات سبعا، والأرض سبعا، والبروج اثنى عشر، والشهور اثنى عشر، ونقباء بنى إسرائيل اثنى عشر، وفى ظهر الإنسان اثنتا عشرة خرزة، إشارة إلى حجج الإمام القائم الاثنى عشر.

ويزعم الإسماعيلية أن الفاصلة بين الله و الإنسان خمسة أصول أو نشآت، ويسمونها مراتب الوجود (وهى العقل الكلى، النفس الكلية، الهيولى، الملأ أو المكان، الخلأ أو الزمان) إذا أضيف إليها (الله) و(الإنسان) تكونت منهم أجمعين طبقات الوجود السبع.

ولا يستطيع الإنسان معتمدًا على نفسه ومن غير تأييد إلهى أن يصل إلى الحقيقة، بل هو فى حاجة دائمة إلى التعليم، وينبغى على المرء أن يتلقى تعليمه من العقل الكلى، فمن وقت لآخر يظهر رسول أو ناطق يمثل العقل الكلى، فيتولى التعليم على نحو أتم وأكمل ممن سبقه؛ تمشيًا مع التطور والتكامل فى فهم البشر للحقائق الروحية الموجبة للرشاد.

وقد كان الإسماعيلية يعتمدون فى نشر العقائد وغيرها على تنظيم رائع للدعوة يضم دعاة مهرة على مراتب متفاوتة. ولم تكن عقائدهم تلقن للمستجيب دفعة واحدة، إنما كان يتلقاها على درجات كل واحدة منها مترتبة على السابقة. ويتحكم العدد سبعة أيضًا فى هذه الدرجات؛ فقد كانت مراتب الدعوة فى البداية سبع درجات، ثم زيدت إلى تسع، ربما لكى تطابق كراسى الفلك التسعة، وهى عبارة عن السبع السيارة، وفلك الثوابت والفلك الأعلى[١]. وقد أورد هذه الدرجات مفصلة النويرى المتوفى سنة ٧٣٢هـ فى كتابه (نهاية الأرب)، والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ فى كتابة (الخطط). وسنعتمد فى تقديم مختصر لهذه المراحل على كل من النويرى والدوادارى والمقريزى مستفيدين بالإضافات والتعليقات التى أوردها براون فى الجزء الأول من كتاب تاريخ الأدب فى إيران مستندًا إلى ما كتبه كل من دى سماسى وكازانوفا فى الموضوع[٢]:

---

(١) ص ٥٩٨ من الترجمة الفارسية Browne, A Lit. Hist. Of persia Vol. 1 p. 410

(٢) ويبدو أن النويرى فى نهاية الأرب والمقريزى فى الخطط ينقلان عن الشريف أخى محسن، ولا زال كتاب الشريف فى النقض على الباطنية مفقودًا، ونجد تفضيلات ليست موجودة لدى النويرى والمقريزى فى كتاب (كنز الدرر=

الدرجة الأولى: يسأل الداعى من يدعوه إلى مذهبه عن المشكلات وتأويل الآيات، موهما إياه أن الدين أمر مكتوم، وأن أكثر الناس به جاهلون، فهو صعب مستصعب، وعلم خفي غامض. ويسأل الداعى المستجيب بغية إثارة حب استطلاعه: "ما عذاب جهنم؟ وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب؟"، "ما سبعة أبواب النار؟ وما ثمانية أبواب الجنة؟"، ولم جعلت السموات سبعا والأرضين سبعا والمثانى من القرآن سبع آيات؟"، "وما معنى قول الفلاسفة: الإنسان عالم صغير والعالم (الطبيعة) إنسان كبير". "وما معنى الم[1]، والمص[2] وكهيعص[3]". ثم يقول الداعى لمن حوله: "فكروا أولا فى أنفسكم. أين أرواحكم؟ وكيف صورها، وأين مستقرها؟ وما أول أمرها؟... ألا تتفكرون فى حالكم، وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم غير مجازف، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة، وله فيها أسرار خفية؟". فإذا علم الداعى[4] أن نفس المستجيب قد تعلقت بما سأله عنه، وطلب منه الجواب عنها أمهله مدة ليستيقن أن المحاولة قد أثرت فى نفسه، ثم يأخذ عليه العهد بألا يفشى لهم سرا، ولا يظاهر عليهم أحدا، ولا يطلب لهم غيلة، ولا يكتمهم نصحا، ولا يوالى لهم عدوا[5].

الدرجة الثانية: يتعلم المستجيب فيها أن فرائض الإسلام لا تؤدى إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق أئمة نصبهم للناس، وأقامهم لحفظ شريعته.

الدرجة الثالثة: وفيها يتقرر عند المستجيب أن الأئمة سبعة، ويلقن معنى العدد سبعة فى عالم المادة والمعنى. فإذا تقرر عند المستجيب أن الأئمة سبعة انحل عن معتقد الإمامية الإثنا عشرية، واعتقد أن أئمتهم الستة بعد جعفر الصادق، قد فقدوا العلوم

=وجامع الغرر) لابن أيبك الدوادارى المتوفى فى القرن الثامن الهجرى، ويبدو أنه كان معاصرا للنويرى، وقد نال نص النويرى عناية كبيرة من جانب المستشرقين؛ فقد ترجمه دى ساسى إلى الفرنسية فى كتابه

Expos de la religion des druzes, paris 1828, Vol. P IXXIV – CXIVII,

كما ترجم النص برمته مرة أخرى إلى الفرنسية كازانوفا فى كتابه.

La doctrine Secrete des Fatmid d'Egypte. Le Caire, 1920 – 1921 pp. 9 – 43.

(١) تبدأ بعض السور فى القرآن الكريم بكلمة (الم)، مثل سورة البقرة، وآل عمران.

(٢) يشير إلى أول سورة الأعراف.

(٣) يشير إلى أول سورة مريم.

(٤) وهم يسمون الداعى الذى يتولى هذه الدرجة (الداعى المكاسر)، أى الذى يكسر عقائد المستجيبين ويشككهم فيها.

(٥) نجد صورة كاملة للعهد لذى يأخذه الداعى على المستجيب فى كل من: نهاية الأرب للنويرى، ج٢٣ ورقة ٥٨، وكنز الدرر وجامع الغرر، ج٦ ورقة ٦٧، والخطط للمقريزى، ج٢ ص ٢٣٤ – ٢٣٥.

الروحية، فى حين أن محمد بن إسماعيل عنده علم المستورات وبواطن المعلومات، وعلم التأويل، وتفسير ظاهر الأمور.

الدرجة الرابعة: لا يشرع الداعى فى تقريرها حتى يتيقن صحة انقياد المدعو لجميع ما تقدم، فإذا تيقن منه صحة الانقياد قرر عنده المبدأ المتعلق بأدوار النبوة السبعة، وكيفية الناطق والسوس والصوامت الستة، ويقرر عنده أن السابع من النطقاء (الأنبياء) هو صاحب الزمان، وهو محمد بن إسماعيل. يقول النويرى: "فهذه درجة قررها الداعى عند المدعو بنبوة نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وسهل بها طريق النقل عن شريعته... فدخل المدعو بذلك فى جملة الكفار والمرتدين[١]". وبظهور محمد ابن إسماعيل الناطق الأخير والقائم، أى صاحب الأمر، تنتهى علوم الأولين، وتبدأ العقيدة الباطنية وعلم التأويل[٢].

الدرجة الخامسة: يتلقن فيها المستجيب المزيد من التعليمات فيما يتعلق بعلم الأعداد والتأويل على نحو يجعله يرفض الكثير من الأحاديث النبوية، فيفقد الاهتمام تدريجيا بمنطوق كلام الله، إلى أن يصل فى النهاية إلى رفض كافة تعاليم الإسلام. كذلك يتقرر لديه أنه لا بد أن يكون مع كل إمام فى كل عصر حجج متفرقون فى جميع الأرض، وعدتهم اثنا عشر رجلا، وترمز إليهم الخرزات الاثنتا عشرة الموجودة فى ظهر الإنسان، بينما ترمز خرزات العنق السبعة إلى الأنبياء النطقاء السبعة والأئمة السبعة الذين يتبعون كل رسول.

الدرجة السادسة: يتعلم المستجيب فى هذه الدرجة التأويل والمعنى المجازى لشرائع الإسلام من الصلاة والزكاة والحج والطهارة وغير ذلك من الفرائض، ويبين له الداعى أن هذه الأشياء وضعت على سبيل الرمز لسياسة العامة وأن لها معان أخر غير ما يدل عليه الظاهر فيضعف اعتقاده فى الدين وأركانه. ثم ينقله إلى الكلام فى الفلسفة ويحضه على النظر فى كلام فلاسفة اليونان، ويرى الاقتداء بالأدلة العقلية والفلسفية والتعويل.

الدرجة السابعة: لم يصل إلى هذه المرتبة إلا كبار الدعاة. وفيها تظهر العقيدة الثنائية، حيث يلقن المستجيب أنه لا بد للمفيد – أى السابق – من مستفيد – أى التالى واللاحق – وتؤدى هذه العقيدة بالمستجيب إلى العدول عن التوحيد[٣].

---

(١) نهاية الأرب، ج٢٣ ورقة ٥٩.

(٢) Browne A Litrary of persia, Vol. 1, p 414، وص ٦٠٣ من الترجمة الفارسية .

(٣) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزى، ص ١٠٧.

الدرجة الثامنة: وفيها تتبلور العقيدة التى لقنت للمستجيب فى المرحلة السابقة، فيتقرر لدية أنه فوق المفيد والمستفيد، أو السابق واللاحق وجودا لا اسم له ولا صفة. ولا ينبغى لأحد أن يعبر عنه ولا أن يعبده[١]. ثم يقرر عنده أن الأنبياء الناطقين لا يأتون بمعجزات ودلالات خارقة، إنما يأتونه بأمور تنتظم بها السياسة ووجوه الحكم، وترتب بها الفلسفة. ثم يشرح له أمر القيامة، وحصول الجزاء من الثواب والعقاب "علىأمور ليست مما يعتقده الموحدون فى شيء".

الدرجة التاسعة: وهى المرحلة الأخيرة فى التعليمات المذهبية لدى الإسماعيلية، حيث لا وجود لعلم اليقين[٢]، وحيث تندرس آثار الدين وعلاماته، فيحال المستجيب حينئذ على طلب الأمور وتحقيقها وحدودها الاستدلال عليها من طرق الفلسفة، وإدراكها من كتبهم، ويصبح حرا فى اختيار طريقه "فربما صار البالغ فى النظر فى هذا إلى اعتقاد مذهب مانى وابن ديصان، وربما إلى مذهب المجوس، وربما دان بما يحكى عن أرسطاطاليس، وربما صار إلى أمور تحكى عن أفلاطون، وربما اختار من تلك معانى مركبة من هذه الأمور كما يجرى كثير من هؤلاء المتحيرين[٣]".

جملة القول فى عقائد الإسماعيلية أنها تكون مذهبا فلسفيا باطنيا، استخدموا فيه الدين لخدمة الفلسفة، وأخضعوا أحكام الشرع لها. ويرى معظم المستشرقين أن الحركة الإسماعيلية لم تكن فى صميمها سوى حركة اتبعت أسلوب التوفيق بين الآراء المعارضة للحالة التي وصل إليها العالم الإسلامى فى ذلك الوقت[٤]. فلقد كان من أول غايات الإسماعيلية التجديد. ويقول ماسينيون فى وصف هذه الحركة بأنها:" نظام اتخذ صفة الحركة الاصلاحية للأوضاع الاجتماعية السائدة فى العالم الإسلامى فى القرن التاسع

---

(١) ويطلق على أتباع زردشت على هذا الموجود اسم (زروان اكرانه) أى الزمان غير المحدود، ويشك براون فى أن يكون مذهب زردشت هو أصل هذه العقيدة الإسماعيلية، ويحبذ الأخذ بقول النويرى فى أن الإسماعيلية ثنوية مادية. (انظر براون، المصدر المذكور ص ٤١٤ من الأصل الإنجليزى، ص ٦٠٤ من الترجمة الفارسية)، غير أن النويرى يرى فى موضع آخر (ج٢٣ ورقة ٦٤) أن هناك تشابها بين الأسباب التى ترتبت عليها هذه العقيدة وبين ما يقوله المجوس، ويعنى بهم الزرادشة، فى توليد أهرمن (الشيطان) من فكرة عرضت للسابق.

(٢) ص ٦٠٤ من الترجمة الفارسية A Lit Hist. Of Persia, Vol. 1, 414.

(٣) نهاية الأرب ج٢٣ ورقة ٦٥، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة.

(٤) The syncretic Origins of The Fatimid Da'wa by p.j Vatikiotis Islamic Culture, Oct. 1954, pp. 475, - 491 .

(الميلادى،الثالث الهجرى). لقد كانت هذه الحركة تهدف إلى إخضاع النظم القائمة والشرائع والعقائد للعقل، وإخضاع العلاقات الاجتماعية لمبدأ المساواة[١]".

وإذا كان الدكتور محمد كامل حسين يرى وجوب تطبيق منهج التطور التاريخى فى دراسة العقائد الإسماعيلية[٢] فإن إيفانوف[٣] يقترح تقسيم مراحل تطور هذه العقائد إلى ثلاث مراحل:

المرحلة المبكرة منذ تأسيس الدعوة حتى قيام الفاطميين بالمغرب سنة ٢٩٧هـ.

المرحلة الفاطمية منذ سنة ٢٩٧هـ حتى بداية القرن السادس.

فترة الموت (عاصمة دولة الإسماعيلية فى إيران)، وتبدأ منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع.

وتعد المرحلة الأولى – فى نظرنا – مرحلة غلو وتطرف فى هذه العقائد، بقدر ما تعد المرحلة الثانية مرحلة اعتدال وتوسط، إلا أن المرحلة الأخيرة فى الموت تمثل فى غالب الأحيان ارتدادا إلى الغلو والتطرف فى العقائد الإسماعيلية. فرغم أن عقائد الأولين منهم قد حظيت على يد الفاطميين بشىء من التغيير والتبديل بغية وضعها موضع الاعتدال إلا أننا نشاهد هذه العقائد المتطرفة تعيش –كما سنرى– إلى ما بعد انتهاء العصر الفاطمى، وتؤثر تأثيرا كبيرا فى إسماعيلية إيران. فالعقيدة الإسماعيلية المتطرفة التي قالت بأن محمد بن إسماعيل نبى مرسل، مثله فى ذلك مثل محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وسلم – لم تلبث أن تراجعت بفضل الفاطميين على نحو معتدل، جعل محمد بن إسماعيل مجرد إمام كغيره من الأئمة، يجرى عليه ما يجرى على غيره من البشر من موت وحياة[٤]. ولكنهم يسمونه، كما يسمون غيره من أئمتهم، (صاحب التأويل)، ويليه أئمة آخرون بحيث يستغرق تسلسلهم الخلفاء الفاطميين. ولكن هذا لا يعنى أن الفاطميين سلبوا أئمة الإسماعيلية كل صفة قدسية كانوا يتمتعون بها قبل قيام الدولة الفاطمية، بل إنهم وضعوهم فى مرتبة تعلو على مرتبة غيرهم من البشر، فجعلوا المخلوقات قسمين، قسما ظاهرا للعيان، وقسما باطنا خفيا، وجعلوا الظاهر يدل

---

(١) Esquisse d'une bibliographie Qarmath, browne presentation Volume 1922

نقلا عن المرجع السابق.

(٢) فى مقدمته على كتاب (سيرة الاستاذ جوذر)، ص ١٧.

(٣) Brief survey of the Evaluation of Ismailism, by Ivanow p. 29.

(٤) سيرة الأستاذ جوذر.

على الباطن، وسموا الباطن ممثولا، والظاهر مثلا، وعلم الباطن وقف على الأئمة من أهل البيت دون غيرهم من سائر المسلمين[1].

والإسماعيلية – فى معرض تقديسهم لأئمتهم – لا يذهبون إلى القول بالرأى كالمعتزلة، ولا بالقياس كأهل السنة، بل يرفضون الأخذ بهما، ويقولون بوجوب الرجوع إلى الإمام المعصوم، وإلى علوم أهل البيت التى خصهم بها الله تعالى دون سائر البشر. هذه عقيدة الفاطميين فى الأئمة، بشر ولكنهم معصومون، أصحاب التأويل وأصحاب العلوم اللدنية.

كذلك كان للفاطميين الفضل فى رد عقيدة الغيبة، التى كانت تعد من الأصول الإيمانية لدى الإسماعيلية إلى الاعتدال. فقد كانوا – قبل ظهور عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين – يعتقدون أن محمد بن إسماعيل لم يمت وسيرجع[2]. قال الفاطميون بتسلسل الأئمة من بعد محمد بن إسماعيل حتى عبيد الله المهدى، وأطلقوا على الفترة بينهما (دور الستر). ويبدأ (دور الظهور) بعبيد الله هذا؛ لأنه لا يصح أن تخلو الأرض من إمام، إما ظاهر مكشوف، وإما باطن مستور. ولقد أقام الإسماعيلية فى إيران عقيدتهم المشهورة المسماة (بالتعليمية) فى عصر الحسن بن الصباح على هذا الأساس الذى وضعه الفاطميون[3]. وتقضى هذه العقيدة بضرورة وجود إمام فى كل زمان يتلقى عنه الناس أحكام الشرع، ويتعلمون منه أمور دينهم.

---

(١) انظر (نظرية المثل والممثول وأثرها فى شعر مصر الفاطمية) للدكتور محمد كامل حسين، و(ديوان داعى الدعاة) ص١٠٦ – ١٠٨، و(أدب مصر الفاطمية)، ص ٢٧ وما بعدها. وهو يرجع هذه النظرية إلى الأفلاطونية الحديثة، بل يرجع عقيدة التأويل برمتها إلى أصول فلسفية نادى بها بعض فلاسفة الإسكندرية. ولقد ظلت هذه العقيدة سائدة فى إيران – كما سنرى فيما بعد – حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، أى بعد قيام الدولة الفاطمية فى المغرب بما يربو على نصف قرن.

(٢) تاريخ جهانكشاى للجوينى، ج٣ ص ١٥٠ وما يقابلها من الترجمة.

(٣) انظر جهانكشاى للجوينى، ج٣ ص ١٩٦ وما بعدها وما يقابلها من الترجمة.

الفصل الثالث

مراتب الدعوة الإسماعيلية

فى عهد الفاطميين

أنشأ الإسماعيلية تنظيما محكما للدعاة، تجلت ملامحه فى عصر الدولة الفاطمية، بينما يحيط الغموض الشديد بتنظيم الدعوة ومراتبها فى الفترة السابقة على قيام الفاطميين، الأمر الذى يجعلنا نقصر حديثنا فى هذا الفصل على مراتب الدعوة عند الفاطميين.

يقول المقريزى: "وظيفة داعى الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية[1]"، وهذا يدل على مدى اهتمام الفاطميين بالدعوة والاحتفاء برجالها. ولا غرو؛ فقد كانت الدعوة هى السبب فى انتشار مذهبهم فى ربوع البلاد الإسلامية مِن الهند حتى بلاد المغرب، ومن جنوب بحر قزوين فى الشمال حتى اليمن فى الجنوب، كما كانت السبب فى قيام الحركات السياسية المناوئة للعباسيين وغيرهم ممن يعتنقون مذهبا يخالف مذهب الإسماعيلية، وكانت الدعوة أيضا السبب فى قيام دولة ذات نظام سياسى فريد فى المناطق الواقعة جنوب بحر قزوين، ونعنى بها (دولة الإسماعيلية فى إيران)، وتفقهوا فيها حتى وضعوا عنها الكتب الكثيرة، فصارت علما من العلوم المدونة، له أصوله وقواعده[2].

ورغم الجهود القيمة التى بذلت منذ بداية هذا القرن لاستخراج المخطوطات الإسماعيلية من بطون المكتبات وإخراج بعضها مطبوعا، الأمر الذى أدى إلى معرفة الكثير من معتقداتهم وآرائهم، إلا أن العمل الذى كان يعهد به لكل مرتبة من مراتب الدعوة لا يزال من أعوص الأسرار وأخفاها، غير أننا نجد الداعى حميد الدين الكرمانى

---

(١) الخطط ج١ ص ٢٢٧.

(٢) أيضا ج٢ ص ٢٣٤.

(توفى بعد سنة ٤١١ هـ) يبين لنا فى كتابه (راحة العقل)[١] مراتب الدعوة على نحو ينتظم كافة المتصلين بها من الناطق (النبى)، حتى المستجيب. وهذه هى:

١- الناطق، وله رتبة التأويل.

٢- الأساس، وله رتبة التأويل.

٣- الإمام، وله رتبة الأمر والسياسة للأمة التى هو بعض منها.

٤- الباب(داعى الدعاة)، وله رتبة فصل الخطاب[٢].

٥- الحجة - وله رتبة الحكم فيما كان حقا أو باطلا.

٦- داعى البلاغ، وله رتبة البلاغ وتعريف المعاد.

٧- الداعى المطلق، وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية.

٨- الداعى المحدود، وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة.

٩- المأذون المطلق، وله رتبة أخذ العهد والميثاق.

١٠- المأذون المحدود، وهو المكاسر، وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة.

فلقد كان داعى الدعاة على رأس التنظيم الخاص بالدعوة[٣]، وهو يشبه إلى حد كبير ما سمى فى العصر الحديث بوزير الدعاية؛ اذ كان يتولى الإشراف على كل ما يختص بالدعوة وعقد مجالسها بالقصر أو دار العلم. ويقول القلقشندى بأن داعى الدعاة كان يلى قاضى القضاة فى المرتبة، ويتزيى بزيه فى اللباس وغيره[٤].

غير أنه من الملاحظ أن لكل من قاضى القضاة وداعى الدعاة عملا مستقلا يختلف تمام الاختلاف عن عمل الآخر، ثم إن مرتبة داعى الدعاة مرتبة روحية، وهو يعد أحد

---

(١) نشرته الجمعية الإسماعيلية ببومباى، وقام بتحقيقه والتقديم له الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى، وطبع بالقاهرة سنة ١٩٥٢، انظر ص ١٣٠ - ١٣٨.

(٢) أنشئت هذه الرتبة فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى. انظر الباب السابع عشر من كتاب زخر المعانى للداعى إدريس. وقد نشره إيفانوف فى كتابه The Rise of the Fatimid.

(٣) فالإمام يدخل فى تنظيم الدعوة؛ لأن هذا ليس واجبه الأساسى، ورغم ذلك فهو سيد الدعوة، بحيث لا تقوم إلا به. (انظر Ivanow, brief Survay of The Evaluation of Ismailism. P. 65، ويجوز أن يستقبل الإمام الدعاة. ولقد ترقب الحسن بن الصباح عندما كان فى القاهرة أن يستدعى لمقابلة المستنصر.

(٤) صبح الأعشى، ج٣ ص ٤٨٧.

دعائم العقيدة الإسماعيلية[١]. كما أنه على مرتبة الإمام مباشرة، كما نشاهد في تنظيم الكرماني لمراتب الدعوة.

كان داعي الدعاة إذن على قمة التنظيم، ويعمل تحت رئاسته المباشرة اثنا عشر حجة، وهم متفرقون في (جزائر) الأرض، كل منهم مختص بإقليم محدد، فقد اعتقد الإسماعيلية أن الأرض مقسمة إلى اثنى عشر قسما، على مثال الاثنى عشر شهرا من شهور السنة، وسموا كل قسم من هذه الأقسام (الجزيرة)، ولا يقصد بها الجزيرة بمعناها اللفظي، إنما يقصد بها (جزء) أو قسم من الناس، كجزيرة الترك وجزيرة الزنوج.. إلخ. وهذا التقسيم لا يستند في الواقع إلى اعتبارات جغرافية، أو جنسية أو لغوية، فهناك اختلاف كبير بين المؤلفات الإسماعيلية في تحديد هذه الجزائر[٢]. ويرجع إيفانوف أن هؤلاء الحجج كانوا من الدعاة المهرة القدماء الذين كانوا كونوا مجلسا على النطاق المركزي، وكانوا يصدرون الأوامر لتنظيم الدعوة مشفوعة بموافقة الإمام[٣]. ولكن رأى إيفانوف في حاجة إلى إعادة نظر؛ إذ المشاهد أن الحجج لم يكونوا مقيمين في القاهرة، بحيث يستطيعون تكوين مجلس على النطاق المركزي، بل كانوا موزعين في جزرهم، فناصر خسرو مثلا الملقب بحجة خراسان لم يبق في القاهرة، بل كان أثناء قيامه بمهام رتبته يدير الدعوة في خراسان. كذلك كان المؤيد في الدين الشيرازي مقيما في فارس أيام كان حجة لها. وكانت مكانة الحجة في نفوس الإسماعيلية المقيمين في جزيرته كبيرة للغاية، فكان موضع ثقتهم ومحط أسرارهم، يقول المؤيد الشيرازي في سيرته وهو يحادث الوزير بشيراز: "معلوم ما بيني وبين الديلم[٤] من

---

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص ٥٧.

(٢) انظر إيفانوف The Rise of the Fatimid. P. 20 N.1.، وأدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين، ص ٣٨ ، ٣٩ حاشية١.

(٣) الظاهر أنه يعني بالديلم الإسماعيلية، وربما كان علما يطلق على الشيعة عامة، فقد كان البويهيون الشيعة الذين يطلق عليهم المؤرخون اسم الديالمة الكبار، هم حكام فارس في ذلك الوقت. راجع السيرة المؤيدية في مواضع متفرقة.

(٤) Brief Survay ... p. 65.

الأحوال الممهدة، والأسباب المؤكدة، وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فإنه يباكرنى شاكيا إلى وموردا جملة أمره وتفصيله على[1]".

والكرمانى يجعل الدعاة الذين يتلون الحجة مباشرة على ثلاث مراتب متفاوتة: داعى البلاغ، والداعى المطلق، والداعى المحدود، ولسنا فى الحقيقة نعرف اختصاصات كل واحد من هؤلاء الدعاة وحدوده، وكل ما نعرفه أنه استطرادا للقاعدة الإسماعيلية السابقة فى تنظيم الدعوة على شاكلة المشاهدات المحسوسة – أى من نظام دورة الفلك – ينبغى أن يكون مع الحجة ثلاثون داعيا على مثل أيام الشهر، وأن يكون لكل داع أربعة وعشرون (مأذونا) على عدد ساعات الليل والنهار[2].

ويذكر الكرمانى طائفتين من (المأذونين): المأذون المحدود أو المكاسر، والمأذون المطلق. أما المأذون المكاسر فيبدو أنه هو الذى يتناول المستجيب بادئ ذى بدء بالتشكيك فى عقيدته ومذهبه، ويوقع الوهم فى قلبه بأنه على ضلال، ويثير فى شعوره رغبة فى البحث والتمحيص، ويوقظ فى نفسه روح الشك، ولا يزال به حتى يطلب إليه أن يدله على الصواب، ولكنه يحاوره ويداوره حتى إذا وثق من اقتناعه بكونه على ضلال أحاله إلى المأذون المطلق الذى يأخذ عليه العهد والميثاق بألا يفشى لهم سرا ولا يظاهر عليهم أحدا ولا يكتمهم نصحا[3].

وينبغى أن تتوافر فى الداعى[4] صفات يمكن تلخيصها فى ثلاثة أشياء[5]: العلم والتقوى والسياسة. قسموا العلم بين الظاهر والباطن، فعلم الظاهر هو علم الفقه والحديث والتاريخ وعلوم القرآن، ثم الجدل والكلام، وعلم الباطن هو المحسوس

---

(١) السيرة المؤيدية، ص ٩.

(٢) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ص ٥٤.

(٣) نهاية الأرب، ج ٢٣ ورقة ٥٨، الخطط للمقريزى، ج٢ ص ٢٣٤.

(٤) نعنى بالداعى كل من ينتظم فى سلك الدعوة من المأذون المكاسر حتى داعى الدعاة.

(٥) انظر ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ص ٥٥ حيث ينقل عن تحفة القلوب وفرجة المكروب لحاتم بن إبراهيم الحامدى، ضمن الجزء الثانى من كتاب الأزهار الموجود، بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، بلندن (نسخة خطية رقم ٢٥٨٤٩).

والمعقول، أما التقوى فأن يكون الداعى من أهل العلم والعمل بالدين. أما السياسة[١] فتكون أولا سياسة الداعى نحو نفسه، فيصلحها ويمنعها عن الشهوات والمنهيات، ويحملها على اقتناء الفضائل، وهذه تسمى السياسة الخاصة. وأما السياسة العامة فهى أن يقوم الداعى بتدبير من هو سائسهم فى إصلاح دينهم وآخرتهم، وأن يعرف حقوق من يهاجر إليه، وأن يقدر أهل العلم ويكون جلوسه معهم، مع وجوب أن يكون الداعى نسيبا فى قومه فإن الشرف بالنسب يجل فى أعين الناس. وربما يمارس الداعى حرفة مثل التجارة أو تطبيب العين أو أمثال ذلك. ويكون هدفه للوهلة الأولى أن يجذب جيرانه تحت تأثير ما يتظاهر به من زهد وتقوى وحب للخير[٢]. وكان الذين يعهد إليهم بالدعوة يتلقون علومهم فى النحو والفلسفة والمنطق والنجوم وأصول الفقه فى (الأزهر)، وحينما يبلغون فيه أشدهم العلمى يغادرونه إلى (دار الحكمة)، حيث تلقى عليهم أصول القيام بمهام شؤون المذهب. وكان هذا القسم من دار الحكمة يقال له (مائدة الرشد)[٣].

ولقد حرص الفاطميون على ألا يخلو بلد من دعاتهم، فها هو ذا المعز لدين الله الفاطمى. يقول فى خطاب له إلى الحسن القرمطى: "ومع هذا فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا بتصاريف الألسن، وفى كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون، وعنهم يأخذون، وهو قول الله عز وجل: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" [٤].

وبرغم الغموض الشديد الذى كان يكتنف الدعوة الإسماعيلية قبل قيام الدولة الفاطمية – عندما كان الأئمة ودعاتهم يتخذون الستر تقية على أنفسهم خوفا من بطش العباسيين – فقد تمكن عدد من الباحثين المحدثين بفضل الكشف عن بعض

---

(١) ولقد عثر الشريف أخى محسن على كتاب من كتب الإسماعيلية يعرف بكتاب (السياسة) فيه وصايا الدعوة، ونقل عنه طرفا من هذه الوصايا، انظر نهاية الأرب للنويرى، ج٢٣ ورقة ٦٦– ٦٧، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة.

(٢) والترجمة الفارسية، ص ٥٩٩ A Litrary History of Persia Vol. 1. p. 411.

(٣) الفلك الدوار فى سماء الأئمة الأبرار، ص ١٦٥ نقلا عن ديوان المؤيد ص ٧.

(٤) اتعاظ الحنفا للمقريزى، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، ص ٢٦٠.

المخطوطات الإسماعيلية أن يعثروا على أسماء بعض الدعاة الذين عاشوا فى تلك الفترة. فمنهم الحسين بن حوشب بن زادان، الملقب بمنصور اليمن الذى تولى الدعوة فى اليمن، ولقد أوفد ابن حوشب تلميذه أبا عبد الله الشيعى داعية إلى المغرب[١]. ومنهم الداعى (فيروز)، وكان داعى الدعاة فى عهد المهدى قبل ظهوره بالمغرب، وكان من أجل الناس عند الإمام، ومن أعظمهم منزلة والدعاة كلهم (أولاده)[٢] ومن تحت يده، وهو باب الأبواب للأئمة[٣]. ويذكر كتاب (استتار الإمام) أسماء مجموعة من الدعاة اجتمعت للبحث عن الإمام المستور، والد عبد الله المهدى، وهم أبو غفير وأبو سلامة وأبو الحسن الترمذى وجياد الخثعمى وأحمد بن الموصلى وأبو محمد الكوفى[٤] وهؤلاء جميعا لا نعرف عنهم شيئا. وفى دور الظهور – الذى يبدأ بظهور عبيد الله المهدى فى المغرب – وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الدعاة، كما وصلت إلينا بعض كتبهم[٥]. أما دعاة الإسماعيلية فى إيران فسنتحدث عنهم فى الفصلين التاليين مباشرة.

* * *

(١) انظر حواشى القزوينى على جهانكشاى، ج ٣ص ٣٤٨-٣٥١.

(٢) اصطلاح إسماعيلى، ويعنى به الإسماعيلية الأبوة الروحية.

(٣) استتار الإمام، نشر بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، ج٢ المجلد الرابع عدد ديسمبر١٩٣٦م.

(٤) سيرة جعفر الحاجب. نشرت بنفس العدد من مجلة كلية الآداب.

(٥) راجع المقدمة التى كتبها المرحوم الدكتور محمد كامل حسين، لكتاب المجالس المستنصرية.

الفصل الرابع

الدعوة الإسماعيلية فى إيران

فى الطور المبكر

سنقسم بحثنا فى هذا الفصل إلى قسمين، نقدم فى الأول منهما دعاة الإسماعيلية فى الشمال الغربى لإيران، حيث بدأت الدعوة فى طور أسبق.

ونتبعهم فى الفصل الثانى بدعاة خراسان وما وراء النهر[1]. وينبغى بادئ ذى بدء أن نشير إلى أن الدعوة الإسماعيلية بدأت كما يقول المسعودى[2] فى سنة ٢٦٠هـ، وسيكون حديثنا متعلقا بالفترة التالية مباشرة لتلك السنة. وسنلاحظ فيما يلى أن دعاة الإسماعيلية فى إيران قد ابتعدوا فى أثناء الفترة التى سنتحدث عنها فى هذا الفصل عن المناطق الجنوبية الغربية من إيران كإقليم فارس، ولم يجعلوها من الأماكن التى يمتد إليها نشاطهم فى الدعوة، ولعل السبب فى ذلك كما يقول ابن النديم[3]، هو أن دعاة القرامطة فى البحرين كانوا يرسلون إلى هذه المناطق بالدعاة، فلم تعد ثمة حاجة إلى بذل جهود أخرى يقوم بها دعاة إيران. ومصدرنا الرئيس فى هذا الفصل هو كتاب (سياستنامه) الذى ألفه الوزير السلجوقى نظام الملك فى سنة ٤٨٤هـ[4]، ويتضمن نصا ذا أهمية بالغة عن الدعوة فى تلك الفترة، تليه مصادر أخرى، ربما نقل بعضها عنه، وربما رجعوا جميعا إلى مصدر مشترك[5] وهى: الفهرست لابن النديم (ألف سنة ٣٧٧هـ)، والفرق بين الفرق للبغدادى (ألف فى نهاية القرن الرابع الهجرى)، وجامع

---

(١) ونحن فى هذا التقسيم نتابع نظام الملك فى كتابه سياستنامه.

(٢) التنبية والأشراف، ص٣٩٥.

(٣) الفهرست، ص١٨٨ طبع ليبزج.

(٤) سنرجع إلى طبعتين من طبعات سياستنامه، طبعة شفر فى باريس سنة١٨٩٢م وطبعة طهران سنة ١٣٣٤هـ.ش.

(٥) لا نقصد بعبارتنا هذه كتاب الفهرست، إذ لا يمكن أن يكون قد نقل عن سياستنامه؛ لأن عصره أسبق، وهو يشير إلى أنه ينقل عن ابن رزام. ويذكر الدواداری فى كتابة كنز الدرر (ج٦ورقة ٦٦) أنه ينقل عن الشريف أخى محسن، الذى يبدو أنه هو المصدر الأصلى للمقريزى فى اتعاظ الحنفا لأن نص الدواداری مماثل لنص اتعاظ الحنفا وإن كان الدواداری أكثر تفصيلا.أما البغدادى ورشيد الدين فلا يشير كلاهما إلى المصدر الذى نقل عنه.

التواريخ لرشيد الدين فضل الله[١] (ألف فى القرن الثامن)، وكنز الدرر[٢] لابن أيبك الدوادارى (حوالى القرن الثامن)،واتعاظ الحنفا للمقريزى[٣] (القرن التاسع)[٤].

وسنهتم فى هذا الفصل بدراسة الظروف التاريخية التى أحاطت بكل داع من الدعاة، حتى نخرج فى النهاية بصورة متكاملة عن طبيعة الدعوة وتطورها وأهدافها وغاياتها.

أولا ــ دعاة الإسماعيلية فى الشمال الغربى لإيران

يقول نظام الملك[٥]: إن أول الدعاة الإسماعيلية رجل يقال له خلف[٦]، أوفده عبدالله بن ميمون القداح قائلا له: "توجه إلى الرى فسائر من فى الرى وآبة وقم وكاشان وولاية طبرستان ومازندران رافضة يدعون للشيعة وسوف يستجيبون لدعوتك". وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن الدعوة الإسماعيلية ركزت اهتمامها على المناطق المصطبغة بالصبغة الشيعية. والحقيقة أن الرى ظلت مركزا سنيا إلى أن حولها شخص يسمى أحمد بن الحسن الماردانى إلى مركز شيعى سنة ٢٧٥ هـ[٧]. أما قم فيخبرنا

(١) الجزء الخاص بالإسماعيلية، طبع بإيران، سنة ١٣٣٨هـ.ش.

(٢) كنز الدرر وجامع الغرر لأبى بكر محمد بن أيبك الدوادارى، الجزء السادس (نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٧٨تاريخ).

(٣) يعيب النص الخاص بالدعوة فى إيران أنه ناقص وغير واضح فى طبعة الدكتور جمال الدين الشيال لذلك الكتاب، فلجأنا إلى الاطلاع على النسخة المصورة فى جامعة الدول العربية، برقم ٦.

(٤) وقد عنى اثنان من المستشرقين بموضوع الدعوة الإسماعيلية فى العصور المبكرة، فألف فيه إيفانوف كتابه:
Studies in Early Persian Ismailism, Lieden, 1948
وكتب سترن Stern مقالا بعنوان: The Early Ismail Missionaries in North-West Persian and in Khurasan and Transaxani
وألقى محاضرة فى نفس الموضوع بكلية الآداب بجامعة طهران فى مايو ١٩٦١م بعنوان The First Appearance of Ismailism.
وقد ترجمت محاضرته هذه إلى اللغة الفارسية، ونشرت مع النص الإنجليزى بعنوان (اولين ظهور إسماعيلية در إيران).

(٥) طبع شفر ١٨٤ – ١٨٧، طبعة طهران (سنة ١٣٣٤) ص٢١٦ – ٢٢٠.

(٦) "يعرف بخلف الحلاج كان صاحب محلجة قطن" (ابن أيبك الدوادارى ورقة ٦٦).

(٧) يقول ياقوت فى معجم البلدان (ج٢ ص ٩٠١): "وكان أهل الرى أهل سنة وقربهم إليه ساتكين (صح: اذكوتكين ابن اساكتين) التركى، وتغلب على الرى وظهر التشيع بها، واستمر إلى الآن". ولم نعثر على أية إشارة إلى الماردانى هذا لا فى الطبرى ولا فى ابن الأثير.

ياقوت[١] بأن التشيع بدأ فيها فى وقت مبكر (سنة ٨٣ هـ). ويقول الإصطخرى بأن أهل قم كلهم شيعة[٢]. ويذكر القزوينى فى آثار البلاد[٣] أن آبة أهلها شيعة.

ولقد أقام أئمة الشيعة الزيدية المعرفون بالدعاة دولة قوية فى طبرستان، استمرت من سنة ٢٥٠ حتى سنة ٣١٦ هـ[٤]. يقول نظام الملك إن خلفا توجه إلى المناطق المجاورة للرى وأقام فى قرية يقال لها (كلين) من نواحى(بشابويه[٥]،وبدأ خلف بدعوة أهل هذه القرية، وكان يقول لهم: "إن هذا المذهب هو مذهب أهل البيت، وينبغى إخفاؤه إلى حين ظهور المهدى، وخروجه وشيك". فلقد كان دعاة الإسماعيلية الأول يدعون لمحمد ابن إسماعيل على أنه المهدى المنتظر، ولم يكونوا يعترفون بأئمة من أعقابه[٦]. ولما وقف عظيم القرية على خبر خلف هرب وتوجه إلى الرى ومات بها، وقد قبل جماعة من أهل القرية مذهبه.

وبعد موت خلف تولى أمر الدعوة ابنه أحمد بن خلف، وقد تمكن من السيطرة على رجل يقال له غياث، كان عارفا بالأدب والنحو، وجعله خليفة له فى الدعوة، فطعم غياث هذا أصول المذهب الإسماعيلى بآيات القرآن وأخبار الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأمثال العرب والأشعار والحكايات. وألف كتابا سماه (البيان)، ذكر فيه المعنى اللغوى للصلاة والصوم والطهارة والزكاة والألفاظ الشرعية. وكتابه على هذا النحو يشبه من حيث التنظيم العام كتاب (الزينة)[٧] لأبى حاتم الرازى، الداعى

(١) معجم البلدان، ج ٤ ص ١٦٠.

(٢) المسالك والممالك، ص ١١٩.

(٣) ج ٢ ص ٣٠٢، وكذا معجم البلدان لياقوت، ج ١ ص٥٣.

(٤) انظر حواشى جهانكشاى، ج ٣ ص٣٠٦ . ولقد ظل أهل طبرستان وما حولها على مذهبهم الشيعى بعد انقضاء هذه الدولة. (انظر المقدسى فى أحسن التقاسيم ص٣٦٧). ولا غرو فقد دخلوا فى الإسلام بفضل دعاة يتخذون التشيع مذهبا.

(٥) يقول الإصطخرى(ص١٢٣) ويتبعه ياقوت (معجم البلدان، ج٢ص ٨٩٤) بأن بشابوية من أعمال الرى، ويشير إليها أيضا حمد الله المستوفى فى (نزهة القلوب ص٥٤)، ويقول إن كلين قرية من أعمال بشابوية.

(٦) انظر فى هذا النويرى الذى ينقل عن الشريف أخى محسن (نهاية الأرب، ج٢٣ورقة ٥٨ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة).

(٧) حقق هذا الكتاب وطبعه الدكتور حسين فيض الله الهمدانى فى القاهرة فى سنة ١٩٥٦هـ.

الإسماعيلى حيث تختفى الملامح الإسماعيلية تماما بدرجة تجعل من العسير على السنى أن يدرك أن المؤلف إسماعيلى[1]. ولقد بدأ غياث فى مناظرة أهل السنة وتلقين الناس مذهبه، فأقبلوا عليه. فأطلق على بعضهم اسم (الخلفية)، وسمى بعضهم بالباطنية.

ولم يكد القرن الثالث الهجرى يوشك على الانتهاء حتى كان هذا المذهب قد انتشر وشاع فى تلك المنطقة.

ويقول نظام الملك إن عبد الله الزعفرانى أثار أهالى الرى على الإسماعيلية. ويبدو أن الإشارة هنا للزعفرانى المعتزلى الذى استقل بآرائه عن فرقة النجارية[2] التى ألفها الحسين ابن محمد النجار، وأسس لنفسه فرقة سميت باسمه (الزعفرانية)، وكان لها نفوذ كبير فى الرى[3]. ولقد اضطر غياث إلى الهرب من الرى، وتوجه إلى خرسان، حيث استطاع أن يلوذ بحمى الحسين بن على المرورودى الذى لعب دورا كبيرا على مسرح السياسة فى إيران فى تلك الفترة، كما كان خير عون للدعوة على الانتشار والرواج، وسنتعرض لذكره فى القسم الثانى من هذا الفصل.

وعاد غياث إلى الرى، وأقام الدعوة على العهد السابق، وتمكن من أن يدخل فى زمرتها رجلا "يجيد معرفة الشعر العربى ويتحدث العربية بطلاقة، يقال له أبو حاتم، وجعله خليفة له". ولا ريب فى أن الإشارة هنا لأبى حاتم الرازى الفيلسوف المعروف وأحد دعاة الإسماعيلية المشار إليهم بالبنان. ويقول نظام الملك إن أصله من ناحية بشابوية[4]، بينما يسمى فى كافة المواضع الأخرى التى ورد فيها ذكره بالورسنانى، وربما كانت ورسنان إحدى القرى التابعة لبشابوية عند قدوم أبى الحاتم إلى الرى[5].

ولما انصرف غياث مرة أخرى عن الرى وعاد إلى خراسان اتفق الإسماعيلية بالرى على رجل من أعقاب خلف وولوه رئاستهم، ولما مات جعلوا عليهم ابنه المسمى أبا

---

(١) انظر مقال Stern المشار إليه فى: B . S. R. A.S. 1960 p. 60.

(٢) انظر البغدادى فى الفرق بين الفرق، ص ١٩٧، والشهرستانى فى الملل والنحل، ١ ص ١٤٠ وتاج العروس، ٣ص٢٣٨، والمقدسى فى أحسن التقاسيم ص ٣٩٥.

(٢) ويقول المقدسى (توفى سنة ٣٨٧ هـ) فى أحسن التقاسيم إن النجارية قد كثروا فى أيامه بجرجان.

(٤) وردت خطأ فى سياستنامه طبعة طهران، ص ٢١٨ (نيشابور).

(٥) يذكر الإصطخرى (ص ١٢٣) قرية من أعمال خوار الرى تسمى (ورزنين)، ولعلها هى.

جعفر الكبير، الذى اضطر – بسبب مرض أقعده عن مزاولة نشاطه – إلى أن ينيب عنه فى الدعوة أبا حاتم، فاستبد أبو حاتم بالرئاسة دونه وانتزعها من بيت خلف[١].

وقد شهدت الدعوة فى عهد أبى حاتم انطلاقة كبرى إلى الأقاليم المحيطة بالرى، حيث انساح الدعاة يجتذبون الناس إلى صفوف مذهبهم فى طبرستان وآذربيجان وأصفهان. وكان أبو حاتم يتولى الدعوة بنفسه فى الرى، شأنه فى ذلك شأن أى داع من دعاته الذين بثهم فى تلك الأقاليم. وقد استطاع أن يجتذب حاكم الرى، أحمد بن على، ويضمه إلى صفوف الإسماعيلية. وهذه أول إشارة عن وجود صلة بين الإسماعيلية وحاكم الرى. ولقد حكم أحمد بن على الرى من سنة ٣٠٧ حتى سنة ٣١١هـ، وقتل فى السنة الأخيرة على يد يوسف بن أبى الساج.

كانت فرقة الإسماعيلية فى الشمال الغربى لإيران، قبل بداية القرن الرابع الهجرى مباشرة مجرد فرقة مستضعفة لا حول لها ولا طول، وكانت عاجزة تماما عن جذب انتباه رجال ينتمون إلى الطبقات العالية[٢]. غير أن الإسماعيلية أحرزوا تقدما ملحوظا خلال الفترة التى أعقبت احتلال السامانيين للرى فى سنة ٢٨٩[٣].

ولقد كان أول حكام السامانيين فى الرى هو منصور بن إسحاق، أحد أعضاء الأسرة السامانية[٤]، وفى سنة ٢٩٦هـ اختير أبو جعفر محمد بن على صعلوك حاكما على الرى من قبل السامانيين. ويقول مايلز[٥] فى كتابه (تاريخ العملات النقدية للرى)[٦] إنه يبدو أن محمدا هذا ترك الرى إلى طبرستان فى سنة ٢٩٨ هـ، غير أننا نجد اسمه ظاهرا على عملة ضربت فى سنة ٣٠٢هـ[٧]. ويذكر الكرديزى فى (زين الأخبار)[٨] أن محمد بن على تولى حكم الرى فى سنة ٢٩٦هـ، فهو يعد بهذا الحاكم

---

(١) سياستنامه طبع شفر، ص ١٨٦، طبع طهران، ص ٢١٩.

(٢) The Early Ismaili Missionaries … p. 62.

(٣) الطبرى المجلد الثالث ص ٢٢٠٨ طبع ليدن، ابن الأثير ج٧ ص ٢٠٧ طبع مصر.

(٤) الكرديزى، زين الأخبار، ص ٢١.

(٥) اسمه بالحروف اللاتينية George Miles.

(٦) The Numismatic History of Ray, New York, 1938.

(٧) Ibid, p.p. 135 – 136.

(٨) ص ٢٢.

التالى مباشرة للمنصور بن إسحاق، وفى سنة ٣٠٤هـ تمكن يوسف بن أبى الساج والى آذربايجان من دخول الرى وانتزعها من يد محمد بن على صعلوك، الذى آثر الفرار غير أن الخليفة العباسى أرسل قواته فى سنة ٣٠٥ أو ٣٠٦هـ بقيادة خاقان المفلحى[١] لانتزاع الرى من يد يوسف، فهزم يوسف قوات الخليفة الذى ما لبث أن أعد جيشا كثيفا لمحاربة يوسف، أرسله بقيادة مؤنس الخادم، فانضم إلى مؤنس أحمد بن على صعلوك وأخوه محمد بن على، فاضطر يوسف لمغادرة الرى، فقلد الخليفة وصيفا البكتمرى الرى وقزوين[٢]. ولقد تقلد على بن وهسودان، أحد أعضاء أسرة جستان[٣]، حكم الرى من قبل الخليفة العباسى فى سنة ٣٠٧هـ بعد وصيف البكتمرى[٤]. وفى تلك السنة أيضا (٣٠٧ هـ) سار أحمد بن على صعلوك، أخو محمد المذكور من قم إلى الرى، فاستولى عليها فأنكر الخليفة ذلك عليه، فأظهر أحمد الخلاف، وكتب الخليفة يأمر (نحرير الصغير) والى همدان ليسير هو ووصيف إلى الرى لمنع أحمد بن على عنها، غير أن أحمد تمكن من هزيمتهم، واستولى على الرى، واضطر الخليفة فى النهاية إلى الاعتراف بالأمر الواقع، وأقره عليها وعلى دنباوند وقزوين وزنجان وأبهر[٥].

ومع أن نظام الملك يقول إن أبا حاتم تمكن من اجتذاب هذا الحاكم وضمه إلى صفوف الإسماعيلية، إلا أننا لا نعثر على إشارة فى أية عملة من عملاته المتبقية تؤيد كلام نظام الملك فى اعتناق أحمد بن على لمذهب الإسماعيلية[٦]. وربما كان نظام الملك يقصد أن أحمد كان يستمع إلى أبى حاتم كداع لمذهب من المذاهب، ولعله اعتنق هذا المذهب فعلا، ولكن هذه كلها احتمالات فرضية تحتاج إلى دليل[٧].

---

(١) هناك إشارة فى ابن الأثير (ج٧ ص ٢٠٧ طبع مصر) إلى أن محاولات السلطات المركزية فى بغداد لاحتلال الرى كانت مبكرة، ففى سنة ٢٨٩هـ – وهى السنة نفسها التى استولى فيها السامانيون على الرى – أرسل وزير الخليفة جيشا للاستيلاء عليها.

(٢) ابن الأثير، ج٨ ص ٧٤ طبع ليدن.

(٣) انظر عن على بن وهسودان حواشى جهانكشاى، ج٣ ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٤) ابن الأثير، ج٨ ص ٧٥ طبع ليدن.

(٥) ابن الأثير، ج٨ ص ٧٥ طبع ليدن.

(٦) Miles, The Numismatic History of Ray p.p 137 – 140.

(٧) Stern, The Early Ismaili Missionaries … p. 62, First Appearance of Ismailism p. 10.

ومهما يكن من أمر، ففي سنة ٣١١هـ سار يوسف بن أبي الساج إلى الري، وحارب أحمد بن علي، وهزمه وقتله، وأنفذ رأسه إلى بغداد، واستولى يوسف على الري، واستخلف عليها غلامه مفلحًا، فثار عليه أهلها، وأخرجوه من المدينة فاضطر يوسف إلى العدول إليها، وكان ذلك في سنة٣١٣هـ[1]، وفي سنة ٣١٤هـ وقعت الري في قبضة السامانيين؛ إذ استولى عليها نصر بن أحمد الساماني، ثم عاد عنها واستعمل عليها محمد بن علي صعلوك، الذي استمر يحكمها حتى سنة ٣١٦هـ. وفي تلك السنة مرض محمد بن علي، فراسل الحسن بن القاسم الداعي حاكم طبرستان وماكان بن كالي قائده في القدوم، فقدما إليه، وسلم الري إليهما، وسار عنها، فلما وصل إلى الدامغان مات. ولقد انتهز أسفار بن شيرويه الديلمي غياب (الداعي) عن طبرستان واستولى عليها، فسار إليه الداعي وقائده (ماكان)، والتحم معه في معركة قتل الداعي في أثرها أثناء فراره، فأستولى أسفار على طبرستان والري وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ وأعلن ولاءه للسامانيين. وفي السنة نفسها (٣١٦هـ) خرج على أسفار قائده مرداويج بن زيار الديلمي وقتله واستولى على الري[2].

لقد استطردنا في ذكر الحوادث التاريخية حتى نتمكن من فهم عبارة نظام الملك الغامضة التي سنترجمها فيما يلي:

يقول نظام الملك: "ثم إن أهل ديلمان ثاروا على العلويين في طبرستان، وقالوا لهم أنتم أهل بدعة؛ إذ تزعمون أن العلم وقف على أسرتكم، وليس مشاعًا لكل الناس، في حين أنكم إذا تعلمتم عرفتم، وإذا تعلم رجل ليس منكم أصاب من المعرفة ما أصبتم، فالعلم إذن لا يجرى مجرى الميراث. ولقد أرسل الله عز وجل رسوله – عليه السلام – إلى الناس كافة، لم يخص(به) قومًا دون قوم، فلماذا تكذبون علينا". ولقد اغتنم أبو حاتم فرصة هذا الخلاف المذهبي، وما وقع فيه الديلم من الحيرة والشك[3]، فتوجه إلى

(١) ابن الأثير ج٨ ص ٩٩ - ١٠٠ طبع ليدن.

(٢) انظر تفصيل هذه الحوادث في ابن الأثير، ٨ تحت التواريخ المذكورة.

(٣) وربما كانت الحيرة والشك قد حدثا من أثر دعاة أرسل بهم أبو حاتم إلى هذه المنطقة.

طبرستان واتصل بالديلم، وكان قائدهم هو أسفار بن شيرويه[1]، فقابله أبو حاتم وانضوى تحت لوائه، وبدأ دعوته بذم العلويين، وقرر فساد مذهبهم.

وفي أيام مرداويج هرب أهالي ديلمان وجيلان من المطر (يعنى الشيعة الزيدية) فوقعوا فى النهر (الإسماعيلية)[2] . ولقد وعد أبو حاتم بظهور الإمام الغائب، فلما حان الموعد الذى حدده لظهوره ولم يظهر رجعوا عن مذهبه إلى مذهب الشيعة الزيدية، ورغبوا فى قتل أبى حاتم، فلاذ بالفرار، ثم مات.

ولا يذكر نظام الملك تاريخ مغادرة أبى حاتم للرى، وتوجهه إلى طبرستان، إلا أنه يبدو أن ذلك قد حدث قبل موت حاميه أحمد بن على فى سنة ٣١١هـ. كذلك لا يذكر نظام الملك اسم الداعى، حاكم طبرستان، الذى ثار الديلم عليه، ولكن الظاهر أن تلك الثورة قد حدثت فى عهد الحسن بن القاسم المعروف بالداعى الصغير الذى حكم طبرستان وجيلان فى الفترة ما بين ٣٠٤ و٣١٦هـ بعد وفاة الناصر الكبير مباشرة[3]. وهو الذى قتل - كما ذكرنا - على يد أسفار.

ويقول البغدادى فى الفرق بين الفرق[4]: "ودخل أرض الديلم رجل من الباطنية يعرف بأبى حاتم، فاستجاب له جماعة من الديلم، منهم أسفار بن شيرويه".

ويذكر المقريزى[5] اسم أبى حاتم، بل يذكر اسم أسفار فى قوله: "ومال إليهم قوم من الديلم وغيرهم، وكان منهم أسفار، فلما قتل مرداويج أسفار عظمت شوكة القرامطة فى أيامه بالرى، وأخذوا يقتلون الناس غيلة، حتى أفنوا خلقًا كثيرًا". أما رشيد الدين فضل الله فيقول[6]: "أدخل (أبو حاتم الرازى) بعض الديالمة فى الدعوة[7]،

---

(١) نجد هنا اختلافاً بين طبعتى سياستنامه؛ فهو شروين بن ورداوندى فى طبعة طهران، وشرشير فى طبعة باريس - غير أن سترن يرى أنه أسفار بن شيرويه ورداوندى. Early Ismaili Missionaries p . 64.

(٢) انظر سترن Stern، فى الموضوع المذكور فى الحاشية السابقة.

(٣) انظر عنه حواشى جهانكشاى، ج ٣ ص ٣٠٩.

(٤) طبعة محمد بدر، ص ٢٦٧.

(٥) اتعاظ الحنفا، مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٦ ورقة ٩١.

(٦) جامع التواريخ، الجزء الخاص بالإسماعيلية طبع طهران، ص ١٢.

(٧) ربما كان يعنى بلفظ (بعض) أسفار بن شيرويه.

واستجاب له أيضًا مرداويج". ويتحدث المسعودى[1] عن أسفار قائلاً: "وكان لا يدين بملة الإسلام". ولعل هذا القول يعد غلوًا فى رأى المسعودى بالنسبة لأسفار؛ لأنه لم يكن سوى رجل يعتنق مذهب الإسماعيلية، ذلك المذهب الذى يبدو أن البعض عده ذلك الوقت مروقًا لا يمت إلى الإسلام بصلة.

وانتقل أبو حاتم إلى حماية مرداويج بعد قضائه على أسفار.

وقد أورد أبو حاتم الرازى فى كتابه (أعلام النبوة)[2] جزءا من المناظرات[3] التى وقعت بينه وبين الطبيب والفيلسوف المشهور أبى بكر محمد بن زكريا الرازى الذى كان يعيش فى الرى فىأيام مرداويج[4]. وتاريخ وفاة أبى بكر الرازى غير معروف على وجه التحديد؛ فالبعض يجعل وفاته فى سنة ٣٢٠هـ، ويجعلها آخرون فى سنة ٣١٣هـ، أو ٣١١هـ[5]، فإذا كان الأمر كذلك تبين لنا أن أبا بكر لم يكن يعيش فى عهد مرداويج، وإنما كان يعيش فى عهد أمير آخر، لعله أحمد بن على.

ويشير الصولى[6] إلى أن مرداويج تحالف مع قرامطة البحرين فى فترة متأخرة من حياته، وربما حد ث ذلك بعد قبوله مذهب الإسماعيلية، غير أن العملات النقدية المتبقية من عهد مرداويج لا تحمل سوى أسماء الخليفتين العباسيين المقتدر والراضى مع اسم الأمير السامانى نصر بن أحمد[7]. ويقول المقريزى فى نهاية نصه الخاص بالدعوة

---

(١) مروج الذهب، ج ٢ ص ٤٣١ طبع بولاق، ويذكر قصة مؤذن جامع قزوين الذى أمر أسفار بإلقائه من المنار إلى الأرض. وقد ذكرها أيضاً ابن الأثير، ج ٨ ص ٩٩ طبع ليدن.

(٢) انظر إيفانوف A. guide to ismaili litrature p. 32.

(٣) وقد نشر هذه المناظرات بول كراوس فى كتابه (رسائل فلسفية لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى، مع قطع بقيت من كتبه المفقودة)، طبع مصر ١٩٣٩م. انظر ص ٢٩١ وما بعدها، كما نشر بول كراوس أيضاً مقتطفات من كتاب أعلام النبوة فى المجلد الخامس من مجلة Orientala سنة ١٩١٦هـ.

(٤) لا بد أن هناك شيئاً هاماً جعل فلاسفة الإسماعيلية يتصدون لآراء محمد بن زكريا الرازى فى فلسفته الإلهية، فأبو حاتم الرازى والكرمانى (فى كتاب الأقوال الذهبية) وناصر خسرو (فى زاد المسافرين) كلهم عقدوا فصولاً بأكملها فى كتبهم فى تسفيه آراء محمد بن زكريا، ونسبوه إلى الإلحاد.

(٥) رسائل فلسفية لأبى بكر محمد زكريا الرازى، ص ٢٩١.

(٦) فى أخبار الراضى والمتقى ص ٢٠: "وتحدث الناس عنه أنه يريد تشتيت الدولة وقصد بغداد، وأنه لمساهم لصاحب البحرين، مجتمع معه على ما يحاوله".

(٧) Miles, The Numismatic History of Ray pp. 137 – 140.

فى الرى: " ثم خرج مرداويج إلى جرجان لقتال نصر بن أحمد الساماني، فتغير عليهم (يعني على الإسماعيلية)، وقتلهم مع صبيانهم ونسائهم، حتى لم يبق منهم أحد، وصار بعضهم إلى مفلح، غلام ابن أبى الساج، فاستجاب له". وبهذه الفقرة تستكمل الصورة ملامحها، وتتضح معالم النص الغامض فى هذا الموضوع لنظام الملك؛ إذ يبدو أن السبب الرئيس فى تغير مرداويج على الإسماعيلية هو فشل نبوءة أبى حاتم فى تحديد موعد ظهور الإمام المهدى.

وأول ما نصادف اسم مفلح نجده فى سنة ٣١٣هـ واليًا على الرى من قبل يوسف ابن الساج، حاكم آذربايجان[١]، وفى سنة ٣١٧هـ نجده حاكمًا لآذربايجان[٢]، وفى سنة ٣٢٠هـ اضطر مفلح إلى الهروب من آذربايجان، ويبدو أنه تغلب على المصاعب التى صادفته؛ لأننا نجده بعد ذلك فى بردعة. ولقد هرب أبو حاتم قاصدًا مفلحا بعدما شعر بالخطر المحدق به من جراء تحقق كذب نبوءته. فتمكن من ضمه إلى صفوف الإسماعيلية. ويقول نظام الملك إن أبا حاتم مات فى أثر هربه، ويقول ابن حجرالعسقلانى فى موسوعته الضخمة (لسان الميزان)[٣] إنه مات فى سنة ٣٢٢هـ.

وبعد موت أبى حاتم أصيبت الدعوة الإسماعيلية فى الشمال الغربى من إيران بضعف وخور شديدين، وانصرف عنها أغلب من دخلوا فيها[٤].

ويقول نظام الملك بأن الإسماعيلية اتفقوا فى الخفاء على أن يجعلوا رئاسة الدعوة لرجلين يقيمان فى الرى، يقال لأحدهما عبد الله الكوكبى، وللآخر أبو إسحاق[٥]. ويضيف رشيد الدين فضل الله فى جامع التواريخ – بعد ذكر هذين الداعيين – اسم داع آخر، هو عبد الملك الذى كان يسيطر على كردكوه[٦]. وكانت كردكوه هذه من أمنع قلاع دولة الإسماعيلية فى إيران، واستولى عليها الإسماعيلية فى عهد الحسن بن

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٥ طبع ليدن.

(٢) ذيل تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ص ٧٥ طبع مصر.

(٣) طبع حيدر آباد الدكن ج ١ ترجمة رقم ٢٣٥.

(٤) سياستنامه ص ١٨٧ طبع شفر، ص ٢٢٠ طبع طهران.

(٥) هنا ينتهى نص نظام الملك عن الدعوة فى الرى وما حولها، لأن المصدر الذى اعتمد عليه قد أنتهى - عند هذه النقطة.

(٦) جامع التواريخ، القسم الخاص بالإسماعيلية ص ١٢ طبع طهران.

الصباح[1]. فالإسماعيلية إذن قد استولوا على هذه القلعة قبل قيام دولتهم فى إيران بقرنين من الزمان[2].

ويشير ابن النديم فى الفهرست[3] إلى "أبى يعقوب خليفة الإمام المقيم كان بالرى"، وكان يرأس الدعوة بالجزيرة (الموصل وبغداد). ويدل ظاهر حديثه فى هذا الموضوع على أنه يتحدث عن فترة تقع بين سنتى ٣٢٠، ٣٣١هـ. ولا يمدنا ابن النديم بأية تفصيلات عن هذا الداعى، غير أنه لما كانت العادة جرت على أن يكنى إسحاق بأبى يعقوب فإنه من المحتمل أن يكون أبو يعقوب هذا هو إسحاق الذى أشار إليه نظام الملك فى نصه عن الرى. وربما كان إسحاق هذا هو نفسه أبو يعقوب السجستانى[4] الداعى والفيلسوف الإسماعيلى المشهور؛ فلسوف نصادف بعد فترة وجيزة هذا الداعى معروفًا فى خراسان وسجستان بوجه أخص، غير أنه ليست لدينا أدلة تاريخية تشير إلى أن أبا يعقوب السجستانى قضى الفترة الأولى من حياته رئيسًا للدعوة الإسماعيلية فى الرى، ثم انتقل بعدها إلى خراسان.

يقول ابن النديم فى أول العبارة التى اقتطفنا منها الفقرة السابقة: "بنو عمار من المواصلة، وهؤلاء كانوا أصحاب الدعوة بالجزيرة وما والاها من قبل أبى يعقوب خليفة الإمام المقيم كان بالرى، ولقد صنفوا كتبًا وأضافوها إلى عبدان".

وسنحاول الآن أن نجلى غموض عبارة ابن النديم، فلقد كان لقرامطة البحرين علاقات غير واضحة تمامًا مع الفاطميين، وفى سنة ٢٨٦هـ وقع انشقاق خطير فى صفوف الإسماعيلية عندما أنكر رؤساء الدعوة فى العراق ما قام به عبيد الله المهدى من تغيير لإحدى العقائد الأساسية فى المذهب وهى العقيدة التى استندت إليها الدعوة فى القول برجعة محمد بن إسماعيل على أنه المهدى أو القائم[5]. ويحتمل أن يكون القرامطة

(١) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٠٨ وما يقابلها من الترجمة العربية.

(٢) بل إن عطا ملك الجوينى يشير إلى أن أحد الحكام الذين اعتنقوا مذهب الإسماعيلية وهوسياه جشم الديلمى قد استولى على قلعة الموت نفسها فى مثل ذلك الوقت المبكر سنة ٣١٦هـ. انظر جهانكشاى ج ٣ ص ٢٧٠ - ٢٧١ وما يقابلها من الترجمة العربية فى هذا الكتاب، وابن الأثير ج ٨ ص ١٤٠ طبع ليدن فى حوادث سنة ٣١٦هـ.

(٣) طبع ليبزج ص ١٨٩.

(٤) انظر هذه المادة فى Encyclopeadia of Islam.

(٥) نهاية الأرب للنويرى ج ٢٣ ورقة ٧٠، وكنز الدرر وجامع الغرر للدوادارى ج ٦ ورقة ٤٥ - ٤٧.

فى البحرين قد أجروا تعديلاً جزئيًا على عقائدهم الأصلية فى شأن رجعة محمد بن إسماعيل؛ ذلك لأنهم أيدوا عبيد الله المهدى عندما أسس الدولة الفاطمية فى شمال إفريقيا. غير أنهم لم يسلموا بالاعتراف به كإمام وإنما كانوا – فيما يبدو – يعدونه قائدًا سياسيًا(١)، فالظاهر أن القرامطة قد قبلوا الدجال الصفهانى الذى ظهر وقتل فى سنة ٣٢٠هـ على أنه محمد بن إسماعيل قد رجع بعد غيبة قرن من الزمان(٢). ويقول القاضى عبد الجبار الرازى فى كتاب (تثبيت نبوة سيدنا محمد(٣)) بأن القرامطة أعلنوا أثناء حكم زكريا أن جميع تعاليمهم السابقة عن المهدى والنسب النبوى ما هى إلا لغو. وكشفوا عن أسرار فرقتهم كلها ونشروا – لأول مرة – قصة عبد الله بن ميمون ودندان وغيرهما من أساطين الدعاة وخططهم فى خداع المسلمين، وطعنوا فى جميع الأديان، وأحرقوا الكتب الدينية كلها، ونادوا بزكريا إلها واستحلوا المحرمات، ولكنهم ندموا أخيرًا، وقتلوا زكريا، وقلدوا أبا طاهر القرمطى الأمر من جديد، ورجعوا إلى ولائهم لعبيد الله المهدى. ولكننا إذا عمدنا إلى تخفيف ما فى قول عبد الجبار من غلو لاحظنا من أول وهلة أن القرامطة اعتبروا زكريا هو محمد بن إسماعيل قد رجع بعد غيبته، ومحمد بن إسماعيل عندهم هو القائم وهو النبى، فلا غرو أن خلعوا على زكريا صفات التقديس والتكريم، تلك التى ظن بسببها عبد الجبار – أو مصدره الذى نقل عنه – أنهم يؤلهونه. ويقول عبد الجبار أيضًا فى نص آخر بأن الدعاة أمثال أبى القاسم بن موسى وأبى مسلم بن محمد الموصلى وأبى بكر أخيه وأبى حاتم بن حمدان الرازى الكلاغى وآخرين قد ماتوا أسفًا وحزنًا على فضح أبى طاهر للدعوة(٤)" ولقد كان أبو القاسم إسحاق بن موسى ابن أخت عبدان هو رئيس الدعوة فى العراق فى الربع الأول من القرن الرابع(٥). وكان أبو مسلم بن محمد الموصلى وأخوه أبو بكر من المواصلة من بنى

---

(١) The Early Ismaili Missionaries p. 68

(٢) ابن الأثير فى حوادث هذه السنة ج ٨، والبيرونى فى الآثار الباقية ص ٢١٣ويسميه زكريا الخراسانى ويذكر أنه ظهر فى سنة ٣١٩هـ.

(٣) وهو مخطوط فى إسطنبول فى مكتبة شهيد على باشا رقم هـ ١٥٧، نقلنا أقواله عن كتاب The Origins of Ismailism by: Lewis p.88، ص ١٨٦ من الترجمة العربية.

(٤) نقلا عن لويس أيضًا فى كتاب المذكور p. 87. ص ١٨٤ - ١٨٥ من الترجمة العربية.

(٥) صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد، ص ٧١ طبع مصر، التنبيه والأشراف للمسعودى ص ٣٣٨.

حماد الذين أشار إليهم الفهرست فى نصه الذى ذكرناه فيما سبق. وكان الذين ذكرهم ابن النديم جميعا يعيشون ويرأسون الدعوة فى مناطق مختلفة فى الوقت الذى ظهر فيه زكريا الفارسى.

ويستطرد ابن النديم فى ذكر دعاة العراق قائلاً[1]: "رجل يعرف بابن حمدان واسمه...... رأيته بالموصل وكان داعية لما مات بنو حماد... ابن نفيس: أبو عبد الله هذا من جلة الدعاة وكانت الحضرة إليه خلافة لأبى يعقوب، فتنكر عليه أبو يعقوب لأمر بلغه عنه، فأنفذ قومًا من الأعاجم فقتلوه بالغيلة فى كاره... الدبيلى: هذا نظير أبى عبدالله، وكانا يتنافسان الرياسة وبقى عدة سنين وتوفى... الحسناباذى: واسمه... هذا رأيته، وكنت أمضى إليه فى جملة أصحاب، وكان ينزل فى ناحية بين القصرين، وكان ظريف العمل عجيب المعنى فى عبارته وكلامه وما يورده، وخرج إلى آذربيجان لأمر لحقه ببغداد بعد نفى الشيرمدى الديلمى فإنه كان يعنى به".

أما أبو حيان التوحيدى (توفى فى أواخر القرن الرابع) فيشير فى معرض حديثه عن مهاجمة الفلسفة والطعن على الفلاسفة الذين حاولوا التوفيق بينها وبين الشريعة مثل أبى زيد البلخى وأبى تمام النيسابورى الشيعى وأبى الحسن العامرى، يشير إلى نشاط الإسماعيلية فى شمال إيران فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى فيقول فى كتاب الإمتاع والمؤانسة[2]: "وما عندى أن الأئمة الذين يأخذ عنهم (يعنى صاحب كل بدعة) ويقتبس منهم، كأرسطوطاليس، وسقراط وأفلاطون، رهط الكفر، ذكروا فى كتبهم حديث الظاهر والباطن، وإنما هذا من نسج القداحين فى الإسلام الساترين على أنفسهم ما هم فيه من التهم وهذا بعينه دبره الهجريون(يعنى قرامطة البحرين، نسبة إلى هجر عاصمة الإقليم) بالأمس، وبهذا دندن الناجمون بقزوين وبثوا الدعاة بأطراف الأرض، وبذلوا الرغائب وفتنوا النفوس". ولسنا نعرف على وجه التحديد هل ترجع هذه الإشارة إلى عهد رئاسة أبى حاتم الرازى للدعوة أم إلى زمن أكثر تقدمًا. ولكن الذى نلاحظه أن الرى قد أصبحت منذ منتصف القرن الثالث الهجرى مركزًا قويا من مراكز الفلسفة الإسلامية. ولقد شاهدنا فيما سبق أبا بكر محمد بن زكرياء الرازى

(١) الفهرست ص ١٩٠.

(٢) ج ٢ ص ١٤ - ١٦ طبع مصر.

الفيلسوف المشهور، يناظر أبا حاتم الرازى رئيس الدعوة بالرى. وكان التقارب الذى حدث فى ذاك الوقت بين الشيعة وبين المعتزلة فلاسفة الإسلام، لوقوع كليهما تحت اضطهاد الخلافة العباسية، قد أدى إلى حدوث تزاوج بين المذهبين[١]، مما أنعش الحياة الفلسفية وزادها ازدهارًا فى تلك المنطقة خاصة من حيث كونها مركزًا شيعيًا ولوجود شيخ من أجلة شيوخ المعتزلة بها فى ذلك الوقت، ونعنى به قاضى القضاة عبد الجبار الذى جعل من الرى مركز إشعاع لنشر الفلسفة الإسلامية، وقصده طلابها من كل فج ليتلقنوا على يديه أصولها وقواعدها، وقد توفى عبد الجبار فى سنة ٤١٥هـ[٢]. ولم يكن دعاة الإسماعيلية فى هذه المنطقة أقل مرتبة من هؤلاء الفلاسفة، بل كان معظمهم من المجادلين ذوى المقدرة العقلية الفائقة فى الجدل والمحاجة ووقعت بينهم وبين الفلاسفة المقيمين فى الرى مناظرات ومجادلات عدة كما رأينا فيما سبق.

ولقد ارتبط دعاة الإسماعيلية فى الشمال الغربى من إيران بإحدى الأسر الحاكمة المشهورة فى المنطقة، وهى "آل مسافر"، لذلك نجد أنفسنا فى حاجة إلى أن نذكر هنا طرفًا من تاريخ هذه الأسرة[٣].

استولى محمد بن مسافر، مؤسس هذه السلسلة على قلعة شميران فى مقاطعة الطرم فبعث أسفار بن شيرويه مرداويج يدعو محمدًا إلى طاعته، فانضم مرداويج إليه بدلاً من مقاتلته، وانتهى الأمر بقتل أسفار. وفى سنة ٣٣٠هـ قبض على محمد ابناه المرزبان ووهسودان. ويعتبر المرزبان بن محمد (٣٣٠ - ٣٤٦هـ) أعظم حكام هذه السلسلة وكانت آذربايجان قد أصبحت بعد وفاة يوسف بن أبى الساج فى سنة ٣١٤هـ، وتولى غلامه مفلح الحكم (٣١٧ - ٣٢٣هـ) مسرحًا للنزاع بين ديسم بن إبراهيم الكردى ولشكرى بن مردى الجيلانى، ولقد قتل لشكرى فى أصفهان، بينما قوبل ديسم بخيانة

(١) يقول بهذا الرأى أحد الباحثين وهو الدكتور ضياء الدين الريس فى كتاب "السياسة الإسلامية" ص ١٥٥، غير أن أمر المعتزلة يختلف مع الإسماعيلية؛ إذ يخبرنا ابن الأثير (ج٩ ص ١٠١ طبع مصر) بأن القاضى أبا الحسن على بن سعيد الإصطخرى أحد شيوخ المعتزلة المعروفين والمتوفى سنة ٤٠٤هـ له تصانيف فى الرد على الباطنية.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ج٣ ص ٢١٨ - ٢١٩ بينما يقول ابن الأثير أنه توفى فى سنة ٤١٤هـ (الكامل ٩ / ١٣٨ طبع مصر).

(٣) معتمدين فى ذلك على كتاب مسكويه "تجارب الأمم" الجزء الثانى وتاريخ ابن الأثير ج٨ طبع ليدن ومقالة V. minorsky, فى encyclopeadia of islam مادة "musafirid"

وزيره أبى القاسم على بن جعفر الذى انضم إلى آل مسافر وتقرب على الأخص إلى المرزبان بن محمد، وكان كلاهما يتبع مذهب الإسماعيلية. واضطر ديسم فى النهاية إلى التسليم بعد أن اجتاح المرزبان بفلوله كلاً من أردبيل وتبريز. ووسع المرزبان المناطق الخاضعة لحكمه فى اتجاه الشمال حتى دربند. ونجده فى سنة ٣٣٧هـ يحارب ركن الدولة البويهى الذى انتصر عليه وأخذه أسيرًا وحمله إلى قلعة سميرم فحبس بها، فاجتمع أصحابه على أبيه محمد بن مسافر وولوه أمرهم فهرب منه ابنه وهسودان إلى حصن له، فأساء محمد مع الجند فأرادوا قتله غير أنه هرب إلى ابنه وهسودان الذى قبض عليه وسجنه حتى مات. أما المرزبان فقد استطاع فى سنة ٣٤٢هـ أن يخلص من الأسر ويستولى على القلعة التى كان أسيرًا فيها[1]. ويبدو أنه بعد خلاصه صالح ركن الدولة البويهى وصاهره[2]. ولقد استعاد المرزبان بعد خلاصه من الأسر مركزه، وتوفى فى رمضان سنة ٣٤٦هـ[3]. ويشير مسكويه إلى أن المرزبان كان قد انضم إلى صفوف الإسماعيلية قبل وقوع هذه الحوادث، فيقول: "كان (على بن جعفر) من دعاة الباطنية، وكان المرزبان معهودًا فيهم، فأذن له المرزبان أن يدعو إلى هذا المذهب ظاهرًا، فاجتمع له كل ما أراده[4].

على أن ولاء المرزبان للإسماعيلية لا يعد حادثا فريدًا فى أسرته، فلدينا ما يدل على أن أخاه وهسودان بن محمد كان هو الآخر إسماعيليًّا، وكان كل من المرزبان ووهسودان قد اقتسما البلاد الواقعة تحت حكم أبيهما محمد بن مسافر بعد أن سجناه فى سنة ٣٣٠هـ فاستولى المرزبان على المناطق الشمالية، ومد ملكه حتى شمل آذربايجان، أما وهسودان فقد بقى فى الطرم. ولما خلص المرزبان من أسره الذى استمر خمس سنوات (٣٣٧ – ٣٤٢هـ) عادت الأمور إلى الرسم الأول.

ولقد عثر لكل من المرزبان ووهسودان على عملات نقدية كتبت على إحداها: (على خليفة الله)، على وجه، وكتب على الوجه الثانى: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وفى الإطار المحيط بهذا الوجه كتب: (محمد على الحسن الحسين على محمد جعفر

---

(١) ابن الأثير ج٨ ص ٣٧٧ – ٣٧٨ طبع ليدن.

(٢) أيضًا ص ٣٧٦.

(٣) أيضًا ص ٣٨٨.

(٤) تجارب الأمم ج٦ ص ٣٢، وابن الأثير ج٨ ص ٢٩٠، وهو ينقل نص مسكويه حرفيًا دون تغيير.

إسماعيل محمد)[1]. وبالنظر إلى هذه القائمة ندرك لأول وهلة أنهم كانوا يعتقدون أن الأئمة هم: على بن أبى طالب، الحسن، الحسين، على زين العابدين، محمد الباقر، جعفر الصادق، إسماعيل بن جعفر ومحمد بن إسماعيل.

لم يكن الإسماعيلية فى إيران إذن يعترفون حتى ذلك الوقت بالخليفة الفاطمى إمامًا، وإلا لأشارت إليه العملة النقدية المذكورة. لقد كان الخليفة الفاطمى فى ذلك الوقت هو المعز لدين الله الفاطمى الذى تولى الخلافة فى سنة ٣٤٣هـ.

والواقع أن نظرة منا إلى الفترة السابقة على قيام الإسماعيلية كأتباع لمذهب ذى ملامح واضحة تجعلنا نستطيع أن نفسر هذا الغموض الذى يحيط بطبيعة الدعوة الإسماعيلية فى ذلك الوقت. ولقد قلنا فيما سبق إن الإسماعيلية نشأت من الخطابية. وكان الخطابية قد "زعموا أن محمد بن إسماعيل حى لم يمت، وأنه غائب مستتر فى بلاد الروم، وأنه القائم المهدى[2]. ولقد ظل الإسماعيلية يؤمنون بهذه العقيدة حتى قيام الدولة الفاطمية، ثم حدث انشقاق فى صفوف الإسماعيلية؛ إذ بقى بعضهم محافظًا على عقيدته الأولى فى مهدية محمد بن إسماعيل، وفى أنه حى لم يمت، واعتقد البعض فى إمامة الخلفاء الفاطميين، وانصرف بعضهم عن المذهب الإسماعيلى لانهيار هذه العقيدة الأساسية أمام عينيه. ويخبرنا الشريف أخى محسن عن سبب هذا الانشقاق فيقول: "وقد كان قرمط يكاتب من بسلمية[3] فلما توفى من كان فى وقته[4] وجلس ابنه من بعده، كتب إلى حمدان قرمط. فلما رد عليه الكتاب أنكر ما فيه لألفاظ كان يعهدها عليه، فاستراب (وأرسل أحد دعاته المسمى بعبدان). فلما وصل إلى هناك عرف بموت ذلك الطاغية الذين كانوا يكاتبونه، ووجد ابنه فسأله عن الحجة ومن الإمام بعده، فقال الابن: ومن هو الإمام؟ قال عبدان: الإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذى كان أبوك يدعو إليه وكان حجته، فأنكر ذلك كله، وقال: محمد بن إسماعيل لا أصل له ولم يكن الإمام غير أبى .. وأنا أقوم مقامه. فرجع عبدان إلى قرمط فعرفه الخبر

---

(١) The Early Ismaili Missionaries ... pp. 71 – 73 by Stern, The First Appearance of Ismailism p. 9, Also by Stern والترجمة الفارسية ص ١٠.

(٢) النوبختى "فرق الشيعة" ص ٧٤ القمى "المقالات والفرق" ص٨٤.

(٣) مركز الدعوة، قبل ظهور عبيد الله المهدى فى المغرب.

(٤) أى الحجة الذى كان يراسله.

وأمره قرمط أن يجمع الدعاة ويعرفهم صورة الأمر، وما تبين له منه، ويقطع الدعوة لمن بسلمية، ففعل عبدان ذلك .. ولما قطعوا الدعوة من بلادهم لم يمكنهم أن يقطعوها من غير ديارهم؛ لأنها كانت قد امتدت فى سائر الأقطار وكثر شرها وتزايد خبثها. وذلك كله فى سنة ست وثمانية ومائتين[1]" ويقول الشريف أخى محسن أيضًا فى موضع آخر: "وكان مبتدأ هذه الدعوة الخبيثة لمحمد بن جعفر بزعمهم .. ولم تزل هذه الدعوة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر مرتبة على ما كانت رتبت إلى أن هرب سعيد المتسمى بعبيد الله الملقب بالمهدى من سلمية، فصار هو الإمام، وصار من ولد محمد بن إسماعيل فجعلوا الدعوة إليه. وكانت الدعوة لمحمد بن إسماعيل وأنه حى لم يمت وأنه يظهر فى آخر الزمان وأنه مهدى الأمة[2].

ويخبرنا ابن حوقل[3] بأن أبا سعيد الجنابى رئيس الدعوة فى البحرين انضم إلى عبدان رئيس الدعوة فى العراق الذى ظل محتفظًا بعقيدته الأصلية فى مهدية محمد بن إسماعيل. ويستفاد من عبارة لمؤلف معاصر موثوق به ومتخصص فى الفرق الشيعية، ونعنى به النوبختى(متوفى سنة ٣٠٠ أو ٣١٠هـ) أن القرامطة ظلوا حتى أوائل القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى متمسكين بعقيدتهم فى مهدية محمد بن إسماعيل وفى أنه حى لم يمت، وذلك بعد ظهور عبيد الله المهدى وقيام الدولة الفاطمية فى المغرب. ويقول النوبختى: "فتأولوا فى ذلك قول الله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾، فالواجب أن يبدأوا بهؤلاء الذين نصبوا إمامًا من ولد جعفر بن إسماعيل وابنه محمد، ثم بسائر الناس ممن نصب إمامًا من بنى هاشم وغيرهم ثم بسائر الناس. وقد كثر عدد هؤلاء القرامطة، ولم يكن لهم شوكة ولا قوة. وكان كلهم بسواد الكوفة، وكثروا بعد ذلك باليمن ونواحى البحرين واليمامة وما والاها. ولعلهم أن يكونوا زهاء مائة ألف[4].

---

(١) نهاية الأرب، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة ج ٢٣ ورقة ٧٠ وكنز الدرر وجامع الغرر النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ ج ٦ ورقة ٤٧.

(٢) نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٦٩، كنز الدرر ورقة ٣٦.

(٣) كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٥٨ طبع بيروت.

(٤) فرق الشيعة للنوبختى ص٧٦، وانظر أيضًا المقالات والفرق للأشعرى القمى ص ٨٤.

ولقد بادر عبيد الله المهدى بخطب ود القرامطة الذين لم يكونوا فى الغالب يعتقدون أحقيته بالإمامة وفى أنه بديل لمحمد بن إسماعيل المهدى والقائم فى زعمهم، وتمكن عبيد الله في النهاية من تعيين رئيس قرمطي موال له في سنة ٣٠٥هـ، وظل هذا الزعيم على إخلاصه لعبيد الله ثم للقائم حتى توفي سنة٣٢٢هـ[١].

بيد أننا ينبغى أن نفسر هذا الإخلاص على أنه مجرد اعتراف القرامطة بالزعامة السياسية للخلفاء الفاطميين دون أن يتطرق الأمر إلى الناحية العقدية باعتبارهم أئمة.

وكان لخضوع العلاقة بين القرامطة والفاطميين إلى اعتبارات سياسية بحتة، دون الاتفاق الكامل فى الأسس العقدية – أثره البالغ فيما نظن فى شكل التطور الذى اتخذته هذه العلاقة. فقد أخذت العلاقات بين الفاطميين والقرامطة في التوتر شيئًا فشيئًا إلى أن أدت إلى قيام حرب بينهما فى مصر والشام سنة ٣٥٩هـ فى عصر المعز لدين الله الفاطمى. ولعل هذه الحرب كانت مظهرًا من مظاهر التطور الخطير الذى اتخذه هذا الانشقاق العقدى. فبعد أن استطاع الفاطميون الاستيلاء على مصر جنحوا إلى سياسة الاعتدال ونبذوا التطرف والغلو الذى كانت تنطوى عليه عقائدهم، فأحدثوا تبدلات جوهرية فى المذهب الإسماعيلى ارتدت به إلى الاعتدال، بينما حافظ القرامطة على عقائدهم وتقاليدهم الثورية، وأبوا أن يتقبلوا التبدلات التى أحدثها الفاطميون، كما أن الفاطميين فى الناحية المقابلة، وجدوا أن الاتحاد مع القرامطة ذوى السمعة السيئة البغيضة إلى الناس كافة يحول دون سلامة دولتهم والأسرة الحاكمة واتساع سلطانها[٢].

يقول الدكتور حسين الهمدانى[٣]: "كان النشاط الثورى الإسماعيلى فى هذه الفترة الخاصة فى التاريخ الإسلامى (أوائل القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى) يتطور تدريجيًا، ولكنه ظاهر ملحوظ. فبتأسيس المهدى للدولة الفاطمية فى إفريقيا اتخذت الحركة الإسماعيلية التى كانت تهدف إلى تحقيق يقظة عقلية سياسية فى الإسلام وضعًا أكثر محافظة وخطورة تجاه النظم الإسلامية القائمة حينذاك، فالدعوة التى توخت تقويض دعائم الخلافة العباسية أصبحت تدافع عن ادعاءات الفاطميين حتى إذا استكملت الدولة الفاطمية قواها واستقر سلطانها، لمحنا فى أعمال الدعاة فى هذا العهد

---

(١) انظر كتاب "عبيدالله المهدى" لحسن إبراهيم حسن، وطه شرف ص ٢١١ وما بعدها.

(٢) ص ١٨٢ من الترجمة العربية The Origins of Ismailism

(٣) وهو أحد الباحثين المحدثين من الإسماعيلية.

انحرافًا وتحولاً عن مبادئهم الثورية والمتنقلة إلى التسامح فيها والتحرر منها ومماشاة الرجعية، فأصبح واجب الدعوة عندئذ أن تتولى مهمة الدفاع عن الخلافة ومساعدة الدولة معًا[1]".

وها نحن أولاء نرى أن الدعاة فى إيران قد حافظوا على التقاليد الثورية القديمة الحركة الإسماعيلية وحفظوا عقائدهم من التبدل الذى طرأ عليها أيام الفاطميين مثلهم فى ذلك مثل القرامطة.

وليس لدينا ما يثبت أن دعاة الإسماعيلية فى إيران قد اشتركوا فى مجابهة الفاطميين أو زجوا بأنفسهم فى خصومات سياسية معهم، ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا منشغلين بتوطيد دعوتهم وبثها بين الناس ولم يكونوا قد تمكنوا بعد من تثبيت أقدامهم سياسيًا كالقرامطة. ولكن الثابت أن الدعاة فى إيران قد حافظوا، وحفظوا عقائدهم من التبديل الذى طرأ عليها على يد الفاطميين، وهم بذلك قد نزعوا نزعة القرامطة، وسلكوا سبيلهم فى المسائل العقدية.

والملاحظ أن بعض المؤرخين والفلاسفة القدماء يشيرون إلى وجود صلة بين الدعوة الإسماعيلية فى إيران فى طورها المبكر وبين القرامطة فى البحرين؛ فالصولى يذكر فى كتابه "أخبار الراضى والملتقى[2]" أن مرداويج تحالف مع قرامطة البحرين، وهذا دليل على وجود صلة سياسية. أما أبو حيان التوحيدى فيشير فى كتابه "الإمتاع والمؤانسة[3]" إلى أن الدعوة فى الرى كانت تسير فيما يتعلق بالعقيدة الخاصة بالظاهر والباطن على النهج الذى سارت عليه دعوة القرامطة فى البحرين. وهذا يدل على اتفاق فى بعض الأسس والعقائد المذهبية الرئيسة.

غير أننا لا نستطيع أن نقول بوحدة الدعوة لكل من القرامطة ودعاة إيران أو بانتماء الدعوة فى إيران إلى توجيه مركزى يتولاه القرامطة، لعدم وجود أدلة على ذلك. وكل ما نستطيع أن نقوله إن الفاطميين وحدهم خرجوا بما أحدثوا من تبدلات مذهبية ردت

---

(١) Hamadani, H, Some Unknown Ismaili Authors and There Works, J.R.A.S. 1933.

(٢) ص٢٠.

(٣) ج ٢ ص ١٦.

العقائد الإسماعيلية من التطرف إلى الاعتدال ـ خرجوا على إجماع الإسماعيلية فى المحافظة على التقاليد الثورية القديمة.

ولكن الفاطميين – كما سنرى فى الفصل التالى مباشرة – لم يهدأ لهم بال إزاء هذا التطور الذى أدى إلى حدوث الانشقاق الخطير الذى أودى بوحدة الحركة الإسماعيلية وحد من سلطانهم فى الرئاسة المذهبية لكل المعتنقين للمذهب الإسماعيلى. وسنرى كيف قام المعز لدين الله الفاطمى بمحاولة للإمساك بزمام الحركة فى كافة الأقطار تحت ظل العقائد الجديدة التى تمخضت عما أحدثه الفاطميون من تبديل، ومن أهمها تلك العقيدة التى تجعل الخليفة الفاطمى إمامًا من نسل محمد بن إسماعيل.

ويقول ابن الجوزى فى المنتظم[1] فى حوادث سنة ٣١٣هـ بأن أبا القاسم الخاقانى الذى وزر للخليفة المقتدر بالله العباسى من سنة ٣١٢ إلى سنة ٣١٣هـ: "لم يزل فى أيام وزارته يبحث عمن يدعى عليه من أهل بغداد أنه يكاتب القرمطى ويتدين بدين الإسماعيلية، إلى أن تظاهرت عنده الأخبار بأن رجلاً يعرف بالكعكى ينزل فى الجانب الغربى رئيس للرافضة، وأنه من الدعاة إلى مذهب القرامطة (فمَضى ليقبض عليه فهرب)، وكان ذلك فى يوم الجمعة لست بقين من صفر، فوجدوا فيه ثلاثين إنسانًا يصلون وقت الجمعة، ويعلنون البراءة ممن يأتم بالمقتدر، فقبض عليهم، وفتشوا فوجدوا معهم خواتيم من طين أبيض، يختمها لهم الكعكى، عليها محمد بن إسماعيل الإمام المهدى ولى الله". وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن العقيدة القائلة بإمامة محمد بن إسماعيل كانت لا تزال قائمة حتى ذلك الوقت فى بغداد نفسها، ولم يكن عبيد الله المهدى يعد إمامًا لدى الإسماعيلية فى العراق والبحرين والشمال الغربى لإيران؛ إذ إننا نجد تطابقًا بين الخواتيم التى عثر عليها الخاقانى الوزير مع هؤلاء الإسماعيلية فى بغداد وبين عملة آل مسافر التى تحدثنا عنها فيما سبق.

ويجدر بنا أن نذكر أن المسعودى يشير فى مروج الذهب إلى أن الإمام الزيدى الحسن بن على الأطروش من ملوك طبرستان المعروفين بالدعاة (توفى سنة ٣٠٤) قد دعا الديلم والجيل إلى الإسلام فاستجابوا وأسلموا[2]، غير أن المسعودى يعود فيستدرك

(١) طبع حيدر آباد الدكن ج٦ ص ١٩٥.

(٢) مروج الذهب ج٢ ص ٤٣٠ طبع بولاق.

على قوله هذا ويشير إلى أن الأمر يختلف "الآن[1] فقد فسدت مذاهبهم (يعنى أهل منطقة ديلمان وجيلان) وألحد أكثرهم[2]".

ويبدو أن المسعودى يشير - فى هذا النص - إلى انضمامهم إلى صفوف الإسماعيلية.

(١) يعنى فى سنة تأليفه كتاب مروج الذهب، وهى سنة ٣٣٦.

(٢) مروج الذهب ج٢ ص ٤٣١.

ثانيًا ـ دعاة الإسماعيلية فى خراسان وما وراء النهر

يمكننا أن نسرد أسماء الدعاة فى خراسان على النحو التالى: أبو عبد الله الخادم، أبوسعيد الشعرانى، الحسين بن على المرورودى، النسفى. يقول المقريزى فى اتعاظ الحنفا[1]: "وأما خراسان فقدم إليها بالدعوة أبو عبد الله الخادم، فأول ما ظهرت بنيسابور". ويرد اسم أبى عبد الله الخادم أيضًا فى جامع التواريخ: "ومن دعاة خراسان وفقًا للترتيب الزمنى، أبو عبد الله الخادم وهو أولهم وهو من جهة أولاد ميمون القداح[2]".

ويقول أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى فى كتاب كنز الدرر[3] نقلا عن الشريف أخى محسن: "وأما خراسان فإن الذى قدم بهذه الدعوة الخبيثة رجل يعرف بأبى عبد الله الخادم وكان خادمًا لعبيد الله المهدى بالمغرب".

وربما كان رشيد الدين والدوادارى متفقين فى اعتبار أبى عبد الله الخادم موفدًا من قبل عبيد الله المهدى بالمغرب؛ ذلك إذا كان رشيد الدين يعد المهدى من أولاد ميمون القداح. ولقد تولى أبو عبد الله الخادم أمر الدعوة بخراسان فى أوائل القرن الرابع. أى فى خلال عهد عبيد الله المهدى (٢٩٧ – ٣٢٢هـ) غير أننا لا نستطيع أن نجزم بأنه كان يدعو للدولة الفاطمية فى المغرب، بل إننا على العكس من ذلك نكاد نقول بأنه لم يكن سوى داع للمذهب الإسماعيلى ولم يكن داعيًا سياسيًا يدعو لسيادة الدولة الفاطمية التى يرأسها المهدى؛ ذلك لأن الدعوة كما بينا فيما سبق[4] لم تكن قد تحولت بعد عن واجبها الأساسى فى التبشير بالمذهب إلى الدفاع عن الخلافة الفاطمية ومساعدة الدولة الفاطمية، ذلك التحول الذى تجلى فيما يبدو فى عصر المعز الفاطمى.

والعجيب فى أمر الدعوة فى هذا الجزء من إيران أنه بينما ازداد نشاط دعاة الإسماعيلية فى شتى الأقطار الإسلامية منذ منتصف القرن الثالث الهجرى، حوالى

---

(١) اتعاظ الحنفا، النسخة المصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٦ تاريخ. ورقة ٩١.

(٢) جامع التواريخ، الجزء الخاص بالإسماعيلية ص ١٢.

(٣) النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ. ورقة ٦٦.

(٤) انظر النص الذى نقلناه فيما سبق عن الدكتور حسين الهمدانى ص ٦٤ – ٦٥.

٢٦٠هـ، نجد أن إقليم خراسان ذا الأهمية القصوى بقى مهملاً حتى بداية القرن الرابع. ويبدو أن الداعى غياث أحد دعاة الرى قد زار خراسان[١] فى فترة سابقة على قدوم أبى عبد الله الخادم.

ويقول ابن النديم[٢]: "كان عبيد الله (المهدى) أنقذ فى سنة سبع وثلاثين (صح سبع وثلاثمائة[٣]) أبا سعيد الشعرانى إلى خرسان، فموه على القواد بذكر التشيع، واستغوى خلقًا كثيرًا". ويؤيد المقريزى الجزء الأخير من هذه الفقرة فيقول[٤]: "فاستخلف (أبو عبد الله الخادم) عند موته أبا سعيد الشعرانى، وصار منهم خلق كثير هناك من الرؤساء وأصحاب السلاح". ويقول عبد القاهر البغدادى[٥]: "وظهر بنيسابور داعية لهم يعرف بالشعرانى فقتل بها فى ولاية أبى بكر بن محتاج عليها". ومن قول البغدادى يتضح لنا أن الشعرانى أقام بنيسابور، مثله فى ذلك مثل الرائد الأول للدعوة بخراسان أبى عبد الله الخادم.

كذلك يتبين لنا أن الشعرانى قتل فى الفترة التى تولى فيها حكم خراسان أبو بكر محمد بن المظفر بن محتاج، أحد أمراء الصغانيين، وهى فترة تبلغ سبع سنوات تبدأ من سنة ٣٢١ وتنتهى فى سنة ٣٢٧هـ[٦].

ويستفاد من النص الذى نقله الدوادارى عن الشريف أخى محسن فى شأن دعاة الإسماعيلية بإيران أن مكانة كل من عبد الله الخادم وأبى سعيد الشعرانى فى مراتب الدعوة لم تكن تتجاوز رتبة المأذون المطلق[٧]، وهى المرتبة التاسعة من مراتب الدعوة العشر[٨]، ومهمتها أخذ العهد والميثاق على المستجيب، وهذا نصه:"فكان أحد من

---

(١) انظر فيما سبق ص ٤٦.

(٢) الفهرست ص ١٨٨ طبع ليبزج.

(٣) لأن المهدى توفى سنة ٣٢٢هـ ولم يدرك سنة ٣٣٧.

(٤) اتعاظ الحنفا، النسخة المصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٦ ورقة ٩١.

(٥) فى الفرق بين الفرق ص ٢٦٧.

(٦) انظر ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٦، ٢٦٧ طبع ليدن، وحاشية الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى عن بنى المحتاج فى جهار مقالة ص ١٦٣ - ١٦٦ طبع ليدن.

(٧) وربما كان صغر مكانة هذين الداعيين سبباً فى إغفال نظام الملك فى سياستنامه ذكرهما.

(٨) بينا هذه المراتب فيما سبق ص ٣٦.

أجابه (يعنى أبا عبد الله الخادم) رجل يعرف بأبى سعيد الشعرانى، فلما حضرت أبا عبدالله الخادم الوفاة جعله مكانه فى الأخذ على الناس[١]". لا نستطيع على ضوء هذه الفقرة أن نطلق حتى الآن على منطقة خراسان اسم "مركز الدعوة"، أو حسب الاصطلاح الإسماعيلى "الجزيرة"، وهى التى يتولى تصريف شؤون الدعوة فيها أحد كبار الدعاة، ولا تقل مرتبته عن "الحجة"، يعاونه دعاة آخرون أقل مرتبة.

ويأتى بعد الشعرانى مباشرة داع كان له أكبر الأثر فى ازدهار الدعوة فى خراسان هو الحسين بن على المرورودى، ذلك الذى قلنا فيما سبق[٢] أنه لعب دورًا كبيرًا على مسرح السياسة فى إيران فى تلك الفترة.

ويقول نظام الملك[٣] أن غياثاً الباطنى كان قد تمكن من اجتذاب الحسين المرورودى إلى صفوف الباطنية، وكان ذلك فى أثناء فرار غياث إلى خراسان. ويبدو أن انضمام المرورودى إلى صفوف الإسماعيلية قد حدث فى السنوات الأخيرة من القرن الثالث[٤].

وترد اخبار الحسين المرورودى فى "زين الأخبار" للكرديزى، وتاريخ الكامل لابن الأثير من حيث علاقته بالسامانيين فقط، ولكن المصدرين المذكورين لا يمداننا بمعلومات عن حياته فى الفترة التى سبقت اتصاله بالسامانيين. وقبل بداية القرن الرابع بقليل أرسل أبو نصر أحمد بن إسماعيل السامانى جيشًا بقيادة الحسين بن على المرورودى للاستيلاء على سجستان، وصاحبها أحد أمراء الصفاريين فاستولى عليها. وفى سنة ٣٠٠هـ أنفذه الأمير أحمد السامانى مرة أخرى لفتح سجستان فتمكن من الاستيلاء عليها، ثم عاد إلى بخارى فى نفس السنة[٥] . وكان الحسين يأمل فى ضم حاكم سجستان إلى صفوف الإسماعيلية، لكنه أخفق. ولما قتل الأمير السامانى أحمد بن إسماعيل أظهر الحسين العصيان بهراة سنة ٣٠١هـ. واتفق مع المنصور بن إسحاق[٦] على المخالفة فاستولى المنصور على نيسابور وخطب له بها. فلما مات منصور استخلف

---

(١) كنز الدرر، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ ج ٦ ورقة ٦٦.

(٢) انظر ص ٤٦ فيما سبق.

(٣) سياستنامه، طبع شفر ص ١٨٧، طبع طهران ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٤) The Early Ismaili Missionaries…p. 52

(٥) الكرديزى، ص٢٤.

(٦) أحد أمراء السامانيين وهو ابن عم الأمير احمد بن إسماعيل السامانى.

الحسين بهراة أخاه منصور بن على، واستولى على نيسابور. فسير السامانيون إليه أحمد ابن سهل لمحاربته، فابتدأ بهراة، فحصرها واستولى عليها، ثم سار إلى نيسابور، ونازل الحسين بن سهل، وأرسله إلى بخارى، حيث حبس بها، إلى أن خلصه الوزير أبو عبد الله الجيهانى، فعاد الحسين إلى خدمة الأمير نصر بن أحمد، وكان يحضر مجالسه[١].

وبعد وفاة أبى سعيد الشعرانى[٢] تولى المروروذى تصريف شئون الدعوة بخراسان. ويقول رشيد الدين فضل الله بأن المروذى (أو المروروذى) تمكن من أن يضم إلى صفوف الإسماعيلية الأمير نصر بن أحمد السامانى ووزيره محمد بن موسى البلخى[٣] فكان كلاهما خير معين ومساند لهذه الدعوة[٤]. غير أن هذا الفعل ينبغى أن ينسب إلى النسفى خليفة المروروذى. وعن الحسين هذا ينقل ابن النديم فى الفهرست فى أخبار أبى زيد البلخى المتوفى سنة ٣٢٢هـ عبارة نصها: "حكى عن أبى زيد أنه قال: كان الحسين بن على المروروذى وأخوه صعلوك يجرى علىّ صلات معلومة دائمة فلما أمليت كتابى فى البحث عن التأويلات قطعها عنى، وكان لأبى على الجيهانى وزير نصر بن أحمد جوار يدرها علىّ فلما أمليت كتابى القرابين والذبائح حرمنيها، وكان الحسين (المروروذى) قرمطيًّا، وكان الجيهانى ثنويا[٥]. ويستفاد من عبارة فى "سياستنامه" عن تولى النسفى خلافة المروروذى فى الدعوة بخراسان أن الحسين قضى أيامه الأخيرة فى مرو الرود بخراسان، وهذا هو نص نظام الملك: "لما قاربت حياته (يعنى المروروذى) على الانتهاء فوض أمر الدعوة لمحمد بن أحمد النخشبى (النسفى) وجعله نائبًا له، وكان النسفى أحد فلاسفة خراسان ومن المتكلمين، فأوصاه الحسين ببذل جهده ليترك نائبًا عنه فى خراسان، ويعبر هو نهر جيحون ويذهب إلى بخارى وسمرقند، فيدعو الناس

---

(١) الكرديزى ص٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧. وابن الأثير ج ٨ ص٤٥ - ٤٦، ٥٢، ٥٣، ٦٤، ٦٦ طبع ليدن. ويبدو أن معلوماتهما المتقاربة إلى حد بعيد من حيث الشكل والمضمون مستمدة من مصدر واحد، لعله تاريخ ولاة خراسان "للسلامى". انظر حواشى الأستاذ القزوينى على جهانكشاى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٤٩، وكتاب:
Tyurkestan Down to The Mongol Invasion p. 10 by Barthold.

(٢) لا نعرف على وجه التحديد متى حدثت وفاته.

(٣) لا يرد ذكره فى المصادر التى بين أيدينا.

(٤) جامع التواريخ، الجزء الخاص بالإسماعيلية ص ١٢.

(٥) الفهرست ص ١٣٨.

بهما إلى المذهب، وأن يركز جل اهتمامه على اجتذاب بعض الأعيان فى بلاط أمير خراسان نصر بن أحمد إلى المذهب[١]". ولقد عمل النسفى بوصية المروروذى، فتوجه إلى ما وراء النهر، رغم ما أصاب من نجاح فى خراسان، حيث استطاع أن يضم إلى زمرة الإسماعيلية خلقًا كثيرين، منهم "بسر سواده" أى ابن سواده الذى هرب من الرى إلى خراسان، فجعله النسفى خليفة له بمرو الرود. ثم عبر جيحون، وسار إلى بخارى فلم يواته الحظ بها، فغادر إلى نسف، حيث تمكن من أن يجتذب أبا بكر النسفى نديم أمير خراسان نصر بن أحمد، وقام أبو بكر بدوره باجتذاب جماعة من المقربين إلى الأمير، ودخلوا جميعًا فى زمرة الإسماعيلية.

علينا أن نعود إلى الوراء قليلاً لنحاول التعرف على شخصية النسفى وقدراته كداع من دعاة الإسماعيلية. هو محمد بن أحمد النسفى (أو النخشبى). ولعلنا نستطيع أن نقول استنادًا إلى نسبته التى ذكرها البغدادى فى الفرق بين الفرق أنه ولد فى بزدا[٢] وهى قرية كبيرة من أعمال نسف وتقع على مقربة منها[٣]. ولقد رأينا نظام الملك يقول، فى نصه الذى نقلناه فيما سبق مباشرة عن النسفى أنه كان أحد الفلاسفة والمتكلمين فى خراسان، والحقيقة أن هذا الداعى لعب دورًا هامًا فى تاريخ الفلسفة الإسماعيلية[٤]؛ فلقد استطاع بما بذل من مجهود فى تأليف الكتب أن يفلسف المذهب الإسماعيلى على ضوء أصول الأفلاطونية الحديثة[٥]. وظل الإسماعيلية فى إيران يحذون حذوه، وينهجون نهجه الفلسفى فى القرنين الرابع والخامس الهجريين؛ فلقد كانت فلسفته هذه هى أساس النظام الذى انتهجه كل من أبى يعقوب السجستانى وناصر خسرو فى مؤلفاتهما[٦]. ومن أشهر مؤلفات النسفى كتاب "المحصول"، ويبدو أنه من الكتب التى

---

(١) سياستنامه ص ١٨٨ طبع شفر ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ طبع طهران.

(٢) ص ٢٧٧ حيث كتبت محرفة (البزدهى) وصححتها(البزدوى)، كما وردت فى الطبعة الأولى لكتاب التبصير فى الدين للإسفراينى ص ٨٤ أما إيفانوف فى Studies in Early Persian Ismailism p. 117, and in a Guide to Ismaili Litrature p. 35. فيسميه البردعى.

(٣) ياقوت ج ١ ص ٦٠٤ بارتولد Turkestan, 156 - 137

(٤) من الغريب أن النسفى غير معروف للإسماعيلية المحدثين (إيفانوف A guide ص ٣٥).

(٥) Ivanow, Studies in Early Persian Ismailism p. 117.

(٦) Stern, The Ismaili Missionaries, p. 79.

تعرضت لشرح أصول المذهب الإسماعيلى[١]. وعن ذلك الكتاب ينقل البغدادى[٢] قول النسفى: "إن المبدع الأول أبدع النفسى.ثم إن الأول والثانى مدبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع". ويعقب البغدادى على هذا الادعاء بقوله: "وهذا فى التحقيق معنى قول المجوس: إن اليزدان فاعل الخيرات وأهر من فاعل الشرور[٣]". ولقد فقد ذلك الكتاب فى الوقت الحاضر كلية، ولا نعرف عنه شيئًا إلا عن طريق الكرمانى، داعى الدعاة فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى، فى كتاب "الرياض". وكان النسفى فى ذلك الكتاب يحاول التوفيق بين أبى الحاتم الرازى وزميله أو تلميذه أبى يعقوب السجستانى[٤]. ومن الكتب الأخرى التى ألفها النسفى كتاب "عنوان الدين" وكتاب "أصول الشرع" وكتاب "الدعوة المنجية" وكتاب "كون العالم" وهو خاص بالفلك ووصف العوالم، إلا أنه مؤسس على المبادئ الدينية، وقد عثر عليه ضمن مجموعة خاصة[٥].

والواقع أن انتقال النسفى من خراسان إلى ما وراء النهر كان بداية النجاح الحقيقى للدعوة فى تلك المنطقة من إيران، فلقد استطاع النسفى، من مقره فى نسف، أن يستولى على لب أبى بكر النسفى مواطنه المشهور، والأشعث الكاتب الخاص للأمير نصر بن أحمد، وأبى منصور الجغانى قائد الجيش، وآيتاش الحاجب الخاص، وحسين ملك والى ايلاق وعلى زراد[٦]. وقد عمل هؤلاء جميعًا على إيقاع الأمير نصر بن أحمد فى حبائل النسفى، فكانوا يذكرونه أمام الأمير بالإعجاب والتقدير على أنه من أهل الفضل والعلم حتى استبد الشوق بالأمير إلى رؤيته فحملوه إليه. وانتهى الأمر باستجابة

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم حسن ص ٤٧١.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٣) وهى عقيدة الثنوية التى تحدثنا عنها من قبل وقلنا إن الإسماعيلية يصلون إليها فى المرتبة السابعة من مراتب الدعوة، انظر ص ٣١ فيما سبق.

(٤) Hamadani ,Some Unknown Ismaili Authors and Their Works, J.R.A.S. 1933.

(٥) الفهرست لابن النديم ص ١٨٩ .Ivanow, A Guide p. 56

(٦) هذه القائمة منقولة عن سياستنامه، وليس لدينا معلومات عن الشخص الأخير (على زراد). أما عن قائد الجيش فانظر ص ٣٢٠، وعن آيتاش الحاجب ص ٢٢٧، وعن والى ايلاق ص ٢٣٣ من كتاب Turkestan Down to The Mongol Invasion by Barthold.

نصر بن أحمد لدعوة النسفي. وبذلك صار النسفي صاحب الأمر والنهى فى الدولة السامانية فى تلك الفترة. واغتنم هذه الفرصة وضاعف جهوده فى جذب الناس إلى المذهب الإسماعيلى، وبلغت به الجرأة أن أظهر الدعوة علانية. وأغرم نصر بن أحمد دية الحسين المرورودى؛ فقد كان نصر - قبل ظهور النسفي - من ... معارضى المذهب، فقبض على حسين المرورودى وسجنه حتى مات[1].وقد بلغت هذه الدية فى قول ابن النديم[2] ١١٩ ألف دينار. وزعم النسفى أنه مرسل هذا المبلغ إلى صاحب المغرب القيم بالأمر وهو عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى، مما أدى إلى استياء كبار رجال الدولة وأصحاب الجيش والعلماء، فتضافرت جهودهم جميعًا للقضاء على هذا المذهب.

ولقد أصيبت الإسماعيلية فيما وراء النهر بنكبة على يد نوح بن نصر المذكور. ولدينا روايتان فى سبب هذه النكبة: الأولى رواية نظام الملك[3] ومؤداها أن قواد نصر من الأتراك السنة دبروا مؤامرة لإزالة العرش السامانى والقضاء على نصر بن أحمد بسبب انضمامه إلى المذهب الإسماعيلى، وأقاموا حفلاً كبيرًا فى قصر الأمير يستطيعون من خلاله تنفيذ هذه المؤامرة. غير أن المؤامرة تكشفت للأمير قبل تنفيذها بمدة قليلة. فتمكن الأمير نصر بن أحمد وابنه نوح من القضاء على رأس المؤامرة وهو كبير القواد، ثم أعلن نصر أنه خلع نفسه وولى ابنه نوحًا بدلاً منه. ولقد حشد نوح قوى الدولة جميعها للقضاء على الدعوة الإسماعيلية ودعاتها فيما وراء النهر وخراسان فى تلك الفترة.

أما رواية ابن النديم فتصور حدوث نكبة الإسماعيلية فى تلك المنطقة على نحو آخر، إذ يقول بأن نصر بن أحمد لحقه سقم طرحه على فراشه، فندم على إجابته للنسفى واندفاعه وراءه، فأظهر ذلك ومات. وعلى أثر وفاته جمع ابنه نوح الفقهاء لمناظرة النسفى. فلما ناظروه وأفحموه قتله نوح وقتل معه رؤساء الدعوة ووجوهها من قواد نصر الذين دخلوا فيها، ومزقهم كل ممزق[4].

---

(١) التبصير فى الدين ص ٨٤

(٢) الفهرست ص ١٨٨.

(٣) وهى رواية طويلة، انظر سياستنامه طبع شفر ص ١١٨ - ١٩٣، طبع طهران ص ٢٢٣ - ٢٢٨.

(٤) الفهرست ص ١٨٨، وانظر Barthold, Turkestan p. 241 – 145. حيث يناقش نص ابن النديم ونظام الملك.

وبالنسفى تنتهى قائمة الدعاة فى خرسان وما وراء النهر، كما انتهت قائمة الدعاة فى الرى بخليفة أبى حاتم الرازى، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن القائمتين ترجعان إلى أصل واحد كتب فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى.

وتتجلى لنا صعوبات جمة في التعرف على الدعاة التالين مباشرة لهؤلاء، إذ لا ريب فى أن الدعوة أصبحت تباشر مهمتها فى الخفاء بعد إصابتها بهذه المحن المتلاحقة، فالغموض يحيط من كل جانب بدعاة الفترة التالية المشتملة على النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، فلا نكاد نعرف شيئًا عن حياة الداعى المشهور بمؤلفاته الإسماعيلية أبى يعقوب السجستاني. فمصادرنا تحدثنا بأسماء الكتب التى ألفها[١]، وما زال بعضها موجودًا[٢]، بل إن بعضها طبع[٣]، إلا أن هذه المصادر تسكت تمامًا عن ذكر ما يجعلنا نتعرف على نشأته ومرتبته في الدعوة ونشاطه فى نشرها. ولا ضير من أن نورد بعض إشارات متفرقة عن بعض هذه المصادر تعيننا على معرفة بعض ملامح حياته، ولقد قلنا فيما سبق[٤] إنه ربما كان أبو يعقوب قد قضى الشطر الأول من حياته فى خدمة الدعوة كرئيس لها فى الرى، وربما حدث هذا فى الثلث الأول من القرن الرابع. ثم انتقل لرئاسة الدعوة فى خراسان بعد النسفى الذى توفى سنة ٣٣٢هـ. ولعله كان يتولى رئاسة الدعوة فى كل من الرى وخرسان[٥].

وهناك إشارة عابرة ذكرها ناصر خسرو فى كتاب "خوان الإخوان" وهى: كان دهقان ابن الشيخ الشهيد (يعنى النسفى) وصاحب جزيرة حزلان (صح: خرسان) بعد يعقوب (السجستانى) يقول ... إلخ[٦]". وبهذا يتبين لنا أن يعقوب كان يتولى رئاسة الدعوة فى خرسان،إما بعد النسفى مباشرة أو بعده بفترة ضئيلة.

---

(١) انظر كتاب ما للهند للبيرونى ص ٣٢، والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٦٧، وزاد المسافرين لناصر خسرو ٤٤.

(٢) A Guide to Ismaili Litrature pp. 33 – 35.

(٣) مثل كشف المحجوب وهو مؤلف باللغة الفارسية، وقد نشره هنرى كورين.

(٤) ص ٥٨.

(٥) Ismaili Missionaries p. 80.

(٦) طبع يحيى الخشاب ١١٢، القاهرة ١٩٤٠.

أما عن الفترة الأخيرة من حياة أبي يعقوب فيقول رشيد الدين فضل الله: "وبعد هذا العصر كان داعى سيستان هو إسحاق السجزى الملقب بجيسفوح[١]، وقد قتل على يد الأمير خلف بن أحمد السجزى" وكان خلف بن أحمد من الطبقة الثانية من ملوك الصفاريين، وقد تولى حكم خرسان فى سنة ٣٥٣هـ، وتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى، ويؤيد ذلك عبارة وردت فى كتاب التبصير فى الدين لأبى حامد الإسفراينى يقول فيها إن أبا يعقوب السجزى أقام دعوته بناحية سجستان، لذا فإننا ينبغى أن نرد نص الإسفراينى إلى تلك الفترة، وهى النصف الثانى من القرن الرابع[٢].

ولا يمكننا أن نقرر على وجه التحديد تاريخ وفاة أبى يعقوب والسجستانى، ولكنه – طبقًا لنص رشيد الدين – لا بد أن يكون قد توفى بين الحاصرتين المذكورتين (أى من سنة ٣٥٣ - ٣٩٣هـ)، وهى الفترة التى تولى فيها خلف بن أحمد السجزى حكم خرسان[٣].

ويشير رشيد الدين إلى "أبو محمد المؤدب كان داعيًا آخر فى خرسان[٤]" دون أن يزودنا بأية معلومات أخرى عن هذا الداعى.

وتسكت مصادرنا عند هذا الحد عن ذكر أسماء دعاة آخرين فى هذه المنطقة وينتج عن ذلك فراغ يمتد من الربع الأخير من القرن الرابع تقريبًا حتى سنة ٤٤٤هـ، عندما عاد ناصر خسرو من رحلته المشهورة ليتولى منصب الحجة فى خراسان[٥].

* * *

ذكرنا فى بدء هذا الفصل أن دعاة الإسماعيلية ركزوا جهودهم فى الدعوة على المناطق المصطبغة بالصبغة الشيعية، ولم تكن هذه هى الميزة الوحيدة التى ميزت الدعوة

(١) ولكن البغدادى فى الفرق بين الفرق ص ٦٧ يقول بأنه كان معروفاً ببندانه.

(٢)حتى لا نتوهم أن أبا يعقوب كان رئيساً للدعوة فى سجستان فى أثناء حياة النسفى.

(٣) Walker The Coinage of The Second Soffarid Daynasty in Sistan, p.p. 15 – 20.

(٤) جامع التواريخ ص ١٢.

(٥) هذا إذا أغفلنا الداعى الذى ذكره بيان الأديان، وهو محمد أديب، وسنبدأ الفصل التالى بمحاولة تحديد عصره.

الإسماعيلية فى إيران فى ذلك الوقت المبكر، بل إننا نلاحظ أن الدعوة فى تلك المناطق قد اتجهت اتجاهًا مخالفًا للدعوة فى المناطق الأخرى من العالم الإسلامى؛ إذ بينما كان الدعاة فى البحرين واليمن وشمال إفريقيا يهدفون إلى كسب ركيزة شعبية من بين أبناء الطوائف الكادحة ليستعينوا بها فى القضاء على النظم القائمة، نجد أن الدعوة فى إيران على العكس من ذلك، تتجه بصفة خاصة إلى الطبقات الحاكمة، ونرى الدعاة يعولون فى المقام الأول على دعوة أفرادها.

ولقد لاحظنا فيما سبق أن أول الدعاة المعروفين لنا فى الرى، وهو الداعى خلف الحلاج، بدأ نشاطه بحملة دعاية واسعة بين سكان المناطق الريفية، ولكننا نجده يفشل فى الحصول على نتائج مماثلة لما حصل عليه دعاة آخرون فى مناطق أخرى من العالم الإسلامى، بل نجده يلجأ أخيرًا إلى المجتمع الحضرى فى الرى[1]. ولقد انتهج دعاة خراسان وما وراء النهر منذ البداية نفس السياسة التى اتبعها زملاؤهم فى الرى؛ إذ إنهم صرفوا كل همهم إلى جذب الحكام وأصحاب المناصب العالية فى الدولة السامانية إلى المذهب الإسماعيلى، وقد ترك أبو سعيد الشعرانى مكانه للحسين بن على المرورّوذى الذى كان من طبقة الأشراف[2].

فلا مجال للمقارنة إذن بين ما أصاب دعاة الإسماعيلية من نجاح فى السنوات الأخيرة من القرن الثالث الهجرى وفى بداية القرن الرابع وبين الجمود الذى منيت به الدعوة فى إيران فى تلك الأثناء، فلقد حقق الدعاة فى تلك الفترة طفرة هائلة حقًّا فى معظم أجزاء العالم الإسلامى؛ حيث ظهر زكرويه فى العراق، وصاحب الشامة فى الشام، وأبوسعيد وأبو طاهر فى البحرين، ومنصور اليمنى وعلى بن الفضل فى اليمن، وأبو عبد الله الشيعى فى شمال إفريقية. على عكس الحال فى إيران التى نجح دعاتها فى الحصول على تأييد طائفة لا يستهان بها من بين حكامها، إلا أن هذه الوسيلة أدت بالدعوة هناك إلى نتائج سيئة للغاية، وألحقت بها كوارث متتابعة.

وربما كان السبب فى اتجاه الدعوة فى إيران نحو دعوة الطبقات الحاكمة هو إخفاق الدعاة فى كسب عدد كاف من المستجيبين المتحمسين لتغيير الأوضاع السياسية

---

(١) Stern, The Early ... p. 81.

(٢) Stern, The First Appearance of Ismailism p. 10؛ الترجمة الفارسية ص ١١.

القائمة. ويبدو أن سبب هذا الاختلاف في وسيلة الدعوة بين دعاة إيران وبين غيرهم يرجع إلى الاختلاف الذى كان قائمًا فى البناء الاجتماعى بين إيران وبين غيرها من البلاد. فنحن نجد القبائل هى أساس العصبية التى استندت إليها الدعوة فى كل من اليمن وشمال إفريقية. ونجد طوائف الزراع والصناع، التى كون منها الإسماعيلية النقابات[1]، هى الأساس الذى استندت عليه الدعوة فى العراق والبحرين. ولم يكن فى إيران ركيزة تستند عليها الدعوة أقوى من الأسر الفارسية العريقة ذات التأثير الشديد على نفوس الفرس، تلك الأسر التى كانت تحكم المناطق التى تقيم بها كنواب عن خلفاء بنى العباس (كالسامانيين وآل مسافر). أو من الحكام الذين كانوا يعينون من قبل الخليفة ببغداد (مثل أحمد بن على) أو من القواد ذوى القدرة الفائقة على إحداث تغييرات سياسية (كأسفار ومرداويج).

وإذا كنا نعد الجانب السياسى للدعوة فى الشمال الغربى لإيران وفى خراسان وبلاد ما وراء النهر قد أصيب بالإخفاق حتى ذلك الحين، فإننا لا نستطيع أن نغمط هذه الدعوة حقها فيما قام دعاتها من جهود فى سبيل توطيد المذهب الإسماعيلى وإثرائه بالمؤلفات الفلسفية القيمة. ويعد أبو حاتم الرازى والنسفى وأبو يعقوب السجستانى من أهم مؤلفى الإسماعيلية. ولكن الفترة التالية تشهد تغييرًا عميقًا فى طريقة الدعوة، وفى أساليبها مما يدل على هبوب رياح جديدة لم تكن معهودة من قبل. وسيكون هذا التغيير الذى طرأ على الدعوة الإسماعيلية فى إيران موضع بحث لنا فى الفصل التالى.

---

(١) يرى ماسينيون فى كتابه Passion d'al Halladj أن الحركة القرمطية هى التى أوجدت النقابات الإسلامية وأن دعاة الإسماعيلية اتخذوا من هذه النقابات سلاحاً يشهرونه فى كفاحهم لجمع العمال فى العالم الإسلامى، ولتكوين قوة منهم تستطيع قلب نظام الخلافة، وكل ما يمثله هذا النظام، بينما يرى الدكتور عبد العزيز الدورى أن تنظيمات أهل الحرف كانت موجودة قبل الحركة الإسماعيلية. وأن كل ما فعله الإسماعيلية هو العناية بهذه النقابات والتأثير فى تنظيمها لا فى تكوينها. (انظر مقدمة الدكتور عبد العزيز الدورى لكتاب أصول الإسماعيلية، ص ٢٤ – ٢٥).

الفصل الخامس

دعاة الفاطميين فى إيران

لا شك أننا نعد أنفسنا سعداء لأن اثنين من كبار الدعاة فى الفترة التى سنتحدث عنها في هذا الفصل- وهما المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى، وناصر خسرو العلوى – قد درسا بعناية اثنين من كبار الباحثين المصريين. فقد كان للمرحوم الدكتور محمد كامل حسين الفضل الأول فى التعريف بالمؤيد[1]. كما كان للدكتور يحيى الخشاب الفضل الأكبر فى بيان ما لناصر خسرو من أهمية فى عالمى الفلسفة والأدب [2]. لذلك لن نجد أنفسنا – فى هذا الفصل – فى حاجة إلى الإطناب والتطويل الذى اضطررنا إليه فى الفصل السابق من جراء الغموض الذى يحيط بالدعاة.

* * *

لقد لاحظنا فيما سبق أن الدعوة سارت فى الشمال الغربى لإيران بعيدًا عن التطور الذى لحق بالمذهب الإسماعيلى على أيدى الفاطميين، وظلت حتى منتصف القرن الرابع الهجرى محافظة على عقائدها الأصلية، وأهمها العقيدة المتعلقة برجعة محمد بن إسماعيل وبأنه المهدى المنتظر ولا إمام بعده. وهذا يجعلنا نرجح أن الدعوة فى إيران لم تكن تلقى سندًا فعليًّا من جانب الفاطميين[3]، غير أننا إذا تساءلنا عن السبب الذى أدى

---

(١) نشر الدكتور محمد كامل حسين ديوان المؤيد مع مقدمة ضافية عن حياته وآثاره، كما نشر السيرة المؤيدة التى كتبها المؤيد نفسه عن حياته.

(٢) وذلك فى كتاب عن ناصر خسرو بالفرنسية، وقد لخص ما ورد به فى مقدمته لترجمة سفرنامه ، كما قام إيفانوف فى كتابه عن ناصر خسرو بالإنجليزية بتوضيح ما ذهب إليه الدكتور الخشاب من آراء بالنسبة لناصر خسرو.

(٣) ولكننا لا نستطيع أن ندرك السر فى اهتمام الفاطميين بالدعوة فى منطقة أخرى هى أبعد موقعاً من إيران، وهى السند، فى ذات الوقت الذى أهملوا فيه الدعوة فى إيران ولم يعطوها حظها من العناية والاهتمام وتركوا فيها الدعاة نهباً لتقلبات الحكام وضراوة الفرق المخالفة (عن الدعوة فى السند انظر
Ismaili Propaganda and Fatimid Rule in Sind, by Stern, Islamic Culture 1949, p.p. 298 – 307.
Ismaili Notes 11, by Lewis,S.B.O.A.S. 1948 p.p. 599 – 600.

إلى التغيير الذى سنلمسه فيما يلى من صفحات، فى وسائل الدعوة وأساليبها فى إيران فى الفترة التالية، فإننا نلاحظ من أول وهلة أن هذا التغيير يعد أثرًا مباشرًا للتعديل الذى طرأ على سياسة الدعوة ضد الفاطميين منذ عصر المعز لدين الله الفاطمى، ذلك التعديل الذى آتى ثماره فى إيران فى عصر المستنصر بقيام دولة للإسماعيلية على يد الحسن بن الصباح.

ويبدو أن الاهتمام الفعلى من جانب الفاطميين بالدعوة فى إيران بدأ فى عصر المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥هـ) الذى يقول: "ومع هذا فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن، وفى كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون، وعنهم يأخذون[١]". ولقد وصل اهتمام المعز بالدعوة فى إيران درجة جعلته يستقبل بنفسه بعض دعاتها ليلقى عليهم تعاليم لشد ما كانت دهشتهم عندما وجدوها مخالفة لما تلقوه عن شيوخهم بالمشرق، فالقاضى النعمان يخبرنا فى كتابه (المجالس والمسايرات) بأن "بعض الدعاة بالمشرق سألوا المعز لدين الله فى بعض مسائل فأجاب عنها بأجوبة تختلف عما سمعه هؤلاء الدعاة من شيوخهم فى المشرق[٢]".

ولم يكن التغيير الذى طرأ على وسائل الدعوة وأساليبها فى إيران – ذلك التغيير الذى سنشاهد ملامحه فيما يأتى من صفحات – تغييرًا داخليًا نتج عن تغير فى البناء الاجتماعى لتلك البلاد، ولكنه كان أثرًا من آثار تعديل السياسة العامة للدعوة لدى الفاطميين؛ حيث اتجهت اهتماماتهم منذ عصر المعز إلى خارج حدود مصر والمغرب وشملت سائر الأقطار ومن بينها إيران. ولذلك نرى كافة المصادر التى اعتمدنا عليها فى هذا الفصل تطلق على دعاة هذه الفترة "دعاة المصريين" أو "دعاة الفاطميين[٣]".

---

(١) من خطاب للمعز لدين الله إلى الحسن القرمطى، أورده المقريزى فى اتعاظ الحنفا، طبع الدكتور جمال الدين الشيال، ص ٢٦٠.

(٢) عن الدكتور محمد كامل حسين فى مقدمته على سيرة الأستاذ جوذر ص ١٨.

(٣) ولقد تابعنا المصادر فجعلنا اسم "دعاة الفاطميين" عنواناً لهذا الفصل.

ويذكر أبو المعالى فى بيان الأديان(المؤلف فى سنة ٤٨٥هـ) داعيًا قبل ناصر خسرو هو "محمد أديب[١]"، ويقول عنه أنه كان يمارس نشاطه فى غزنة (عاصمة الغزنويين)، ولا يحدد لنا تاريخ مباشرة هذا الداعى لنشاطه هناك ولا تاريخ وفاته. ولكننا نستطيع أن نقول إنه يبدو أن هذا الداعى كان يعيش بعد وفاة محمود الغزنوى الذى عرف بتعصبه البالغ لسنيته، وبعدائه الشديد للإسماعيلية.

وقد تولى محمود الغزنوى بعد وفاة أبيه سبكتكين فى سنة ٣٨٨هـ، واستطاع بفضل ما أوتى من عبقرية حربية خارقة، وموهبة سياسية فائقة أن يغلب السامانيين على أمرهم، وأن يغزو الهند، وأن يوسع مملكته التى ورثها، حتى شملت أفغانستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان وكشمير وجزءاً كبيرًا من الولايات الواقعة فى الشمال الغربى من الهند. ولقد أدرك الفاطميون أن استمالة محمود الغزنوى أمر جدير بالمحاولة، فهو أقوى رجل فى المعسكر السنى فى زمانه، وكسبه نصر سياسى لا يعوض للفاطميين، وانهيار أساسى فى قوى الخليفة العباسى، ومحمود الغزنوى أيضًا فاتح بلاد الهند وناشر الإسلام بها، فاجتذابه إلى صفوف الإسماعيلية يحقق نصرًا كبيرًا للدعوة إذا اعتنق المسلمون الجدد الإسلام على مذهب الإسماعيلية. ولقد نفذت هذه المحاولة كما يقول ابن الأثير[٢] فى أوائل عصر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى (٤١١ – ٤٢٧هـ). فقد استقبل السلطان محمود الغزنوى بهراة رسولاً أرسله الظاهر يقال له التاهرتى[٣]، وقبل مقابلته للسلطان فتش الرسول فعثر معه على "تصانيف الباطنية وأموالهم"، فجمع له السلطان أصول المملكة من السادات والكبراء والقضاة والفقهاء لمناظرته، وكان منهم الحسن بن ظاهر بن مسلم العلوى، فصغر شأن التاهرتى، وانتهى الأمر بقتله[٤]. ولقد أرسل محمود الغزنوى رسولا إلى القادر بالله، الخليفة العباسى، ومعه الخلع التى أحضرها التاهرتى، كما أرسل معه رسالة يقول فيها للقادر: "أنا الخادم الذى

---

(١) هل يمكن أن يكون هذا الداعى هو نفسه أبا محمد المؤدب الذى ذكره رشيد الدين دون أن يمدنا بأية معلومات عنه؟ (انظر جامع التواريخ القسم الخاص بالإسماعيلية ص ١٢).

(٢) ج٩ ص ١٤٥ طبع مصر.

(٣) انظر ابن عنبة فى "عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب" النسخة الخطية بدار الكتب المصرية برقم ١٨٠ تاريخ ورقة ٧١ ب.

(٤) أيضاً.

أرى الطاعة فرضًا" وقد ذكر فى الرسالة قصة إرسال هذه الخلع إليه، وأنه مسيرها إلى بغداد ليتصرف فيها الخليفة كيف يشاء، فأحرقت وخرج منها ذهب كثير تصدق به على ضعفاء بنى هاشم(١).

وقد ظل السلطان محمود البقية الباقية من حياته على كرهه الشديد للإسماعيلية ومقته لمذهبهم، فقبل وفاته بسنة واحدة سار (فى سنة ٤٢٠هـ) نحو الرى وبلاد الجبل وكان حاكمها مجد الدولة البويهى، فاستولى محمود عليها، "وصلب من أصحابه (يعنى مجد الدولة) الباطنية خلقًا كثيرًا(٢)". وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على أن الفاطميين لم يتمكنوا من اجتذاب محمود الغزنوى إلى صفوفهم، فظل محافظًا على مذهبه السنى وتبعيته للخليفة العباسى فى بغداد، بل لقد رأيناه أشد ضراوة على الإسماعيلية فى أخريات حياته لما صلب فى الرى عددًا كبيرًا منهم. وإزاء هذا لا نستطيع القول بأن الداعى المذكور محمد أديب، كان يجرؤ على مباشرة نشاطه فى عصر محمود وفى حاضرته غزنة، فلا بد إذن أنه تولى هذا المنصب بعد وفاة محمود فى سنة ٤٢١هـ(٣).

ويستفاد من عبارة أبى المعالى فى بيان الأديان – القائلة بأن محمد أديب كان داعى الفاطميين فى غزنة – أن الفاطميين لم يتوقفوا عن بث الدعاة فى هذه المنطقة بعد ما أصاب رسولهم التاهرتى على يد محمود الغزنوى، بل واصلوا الدعوة هناك فنجحت على النحو الذى يصفه بيان الأديان بقوله: "وقد أضل (يعنى محمد أديب) أناسًا لا حصر لهم فى المدن والقرى". وهذا يدل على أن الدعوة انتهجت سياسة جديدة مخالفة للرسم السابق الذى سارت عليه فى الفترة السابقة، فلم تتجه هذه المرة إلى الطبقات الحاكمة، وإنما إلى أناس من أهل المدن والقرى.

ويبدو أن اتجاه الدعوة الإسماعيلية إلى كسب ركيزة شعبية من بين الطوائف الكادحة قد أثر منذ أول وهلة على موقف التشيع بصفة عامة فى إيران إزاء الجماهير، بحيث

(١) ابن الأثير ج٩ ص ١٤٥.

(٢) ابن الأثير أيضا ص ١٥٤.

(٣) هذا فضلاً عن أن سياق عبارة أبى المعالى فى بيان الأديان (المؤلف فى سنة ٤٨٥هـ) يدل على أن محمد أديب كان قريب العهد من المؤلف، بل نفهم أن هذا الداعى كان سابقاً مباشرة على ناصر خسرو، فهو يقول (ص ٣٥ من الأصل الفارسى، ٤٣ – ٤٤ من الترجمة العربية): "وفى زماننا عرف رجلان بلغا منصب صاحب الجزيرة، أولهما ناصر خسرو، والثانى الحسن بن الصباح، وكان فى غزنة أحد هؤلاء ويسمى محمد أديب .. إلخ" انتهى باختصار.

أصبح الشيعة جميعًا يلجأون إلى استمالتهم ويعملون على تأليف القلوب حولهم، وإلى هذا يشير عالم عبقرى عاش فى بلاط الغزنويين وعاصر هذه الفترة وهو أبو الريحان البيرونى فى كتابه "الآثار الباقية[1].

وفى بلاد ما وراء النهر سارت الدعوة فى نفس الاتجاه، فى العزوف عن دعوة الطبقات الحاكمة والنزوع إلى دعوة الجماهير، غير أنها أصيبت بنكبة قضت عليها تقريبًا فى تلك البلاد إذ كان جماعة من الإسماعيلية قد قصدوها ودعوا أهلها إلى طاعة المستنصر بالله الفاطمى فكثر أتباعهم كثرة هائلة وأظهروا مذهب الإسماعيلية. ولما سمع ملكهم بغراخان[2] بأمرهم رأى الإيقاع بهم عن طريق الحيلة حتى يتمكن من القضاء عليهم تمامًا ولا يترك منهم أحدًا فى بلاده، فأظهر لبعضهم أنه يميل إلى الانضمام إلى صفوفهم واعتناق مذهبهم، وأحضرهم مجالسه، وما زال بهم حتى علم جميع من أجابهم إلى مقالتهم، فحينئذ قتل من بحضرته منهم وكتب إلى سائر بلاد ما وراء النهر بقتل من فيها من الإسماعيلية[3] وكان ذلك فى سنة ٤٣٥هـ.

ولا ضير من أن نضيف هنا سببًا من أسباب تغيير الدعاة لوسائلهم وأساليبهم، إذ إن تنكب الدعاة عن دعوة الحكام مباشرة يبدو أمرًا طبيعيًّا فى ظل الأهداف الجديدة التى أصبحت الدعوة فى إيران تعمل من أجل تحقيقها، ألا وهى العمل على مد سيطرة الخلفاء الفاطميين إلى تلك المناطق. فلقد كان لتحول أهداف الدعوة فى إيران من مذهبية بحتة إلى أهداف سياسية أثر كبير أيضًا فى حدوث هذا التغيير. ولقد كانت الطبقات الحاكمة تدرك ولا شك ما تنطوى عليه هذه الدعوة ذات الصبغة السياسية من

(١) يقول البيرونى فى حديثه عن رؤية هلال رمضان: "والعجب من سادتنا عترة الرسول عليه وعليهم السلام أنهم صاروا يصغون إلى ذلك ويقبلونه تأليفاً لقلوب جمهور المتوسمين بتشيعهم، ولا يقتفون أثر جدهم أمير المؤمنين فى اعتراضه عن استمالة الضالين المعاندين بقوله ما كنت متخذ المضلين عضدا" (الآثار الباقية ص ٦٧).

(٢) وكان قد تولى حكم بعض بلاد ما وراء النهر من قبل أخيه شرف الدولة صاحب بلاساغون وتركستان فى سنة ٤٣٥هـ.

(٣) ابن الأثير ج٩ ص ٢١٨ طبع مصر، وعقد الجمان للعينى ج ٢٠ ورقة ٤٠ (مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ.

أخطار على مناصبهم الأمر الذى جعل الدعاة يتجنبون دعوتهم بقدر ما يستطيعون خلافًا لما كان الأمر عليه فى الفترة السابقة.

ورغم أن هذه النكبة لإسماعيلية بلاد ما وراء النهر قد حدثت فى أوائل العصر الطويل الذى وليه المستنصر خليفة فاطميًا (٤٢٧ -٤٨٧هـ) إلا أن ذلك العصر يعد من أكثر العصور التى عاشتها الدعوة فى إيران ازدهارًا؛ فقد اتسع نشاط الدعوة أيما اتساع[١]، وتكللت جهود الدعاة فى النهاية قبل انتهاء عصر هذا الخليفة الفاطمى بتكوين "دولة الإسماعيلية فى إيران" على يد الحسن بن الصباح فى سنة ٤٨٣هـ. فلقد وجد الفاطميون فى ذلك الحين فرصتهم المترقبة، حيث كانت الخلافة العباسية بادية الضعف، فى الوقت الذى كان فيه عنصر الاستعلاء يتمثل فى حكام يعتنقون التشيع مذهبًا(وهم آل بويه)، فدفعوا بدعاتهم إلى المشرق.

كانت إيران قبل ظهور السلاجقة مباشرة موزعة بين الحكومات المختلفة التى أسسها الأمراء البويهيون الذين كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الزيدية ولا يكنون الكثير من الاحترام للخلفاء العباسيين الضعفاء. وكان يعيش فى كنف البويهيين فى فارس داع إسماعيلى بمرتبة الحجة، هو موسى بن عمران وكان يحظى من البويهيين باحترام وإجلال تام[٢]. وقد حرص هذا الداعى على تنشئة ابنه على مذهبه، ثم لقنه أصول الدعوة ووسائل إذاعتها بين الناس وطلب إلى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦ - ٤١١هـ) أن ينصبه داعيًا يخلفه، ولكن الخليفة رفض هذا التنصيب؛ لأن المناصب الدينية لا تورث إنما يتولاها من يتوسم فيه الخليفة الأهلية الكاملة للنهوض بأعبائها[٣]. كان هذا الابن هو المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى بن عمران الشيرازى الذى ولد حوالى سنة ٣٩٠هـ، ولقد تدرج المؤيد فى مراتب الدعوة حتى صار حجة جزيرة فارس، وبذل نشاطًا كبيرًا فى الدعوة حتى أوغر صدور أهل السنة، وصدر الملك أبى كاليجار البويهى ملك فارس. غير أن المؤيد استطاع أن يحصل على موافقته على الاستمرار فى

---

(١) انظر فى اهتمام المستنصر بالدعوة وعنايته بها كتاب"الإمام المستنصر بالله الفاطمى" للدكتور عبد المنعم ماجد ص٥١.

(٢) السيرة المؤيدية ص ٢٠.

(٣) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٢١ وما بعدها. ومقدمة الدكتور يحيى الخشاب لترجمة سفر نامه.

الدعوة دون الجهر بها أمام العامة[١]. ثم تمكن بعد ذلك من إقناع الملك بالاستجابة إلى دعوته، واتخذ من الملك تلميذًا له فى أمور دينه[٢].

فاستعان أهل السنة فى فارس بالخليفة العباسى الذى أرسل رسولاً لتحرى الموقف، واضطر الملك أبو كاليجار إزاء تهديد الخليفة بالاستعانة بالسلاجقة إلى أن يبعد المؤيد عنه، كما اضطر المؤيد إلى الهرب من فارس والتوجه إلى مصر. ولم يذكر لنا المؤيد ولا غيره من المؤرخين والكتاب تاريخ دخوله مصر، ويرجع إيفانوف فى كتابه "المرشد إلى أدب الإسماعيلية"[٣] أن المؤيد وصل إلى مصر فى نفس العام الذى وصلها فيه ناصر خسرو، أى عام ٤٣٩هـ. غير أن المرحوم الدكتور محمد كامل حسين يرى أن المؤيد جاء إلى مصر بين سنتى ٤٣٦، ٤٣٩هـ. ولقد كلف المؤيد بأن يكون على رأس مدد الأموال والخلع التى أرسلها الفاطميون إلى البساسيرى فى بغداد ليتقوى بها فى حركتها ضد العباسيين[٤] سنة ٤٥٠هـ، وعين المستنصر المؤيد داعيًا لدعاته. ولم يلبث المؤيد أن توفى سنة ٤٧٠ هـ.

كان المؤيد مؤلفًا بارعًا بالعربية والفارسية ويبلغ عدد كتبه التى ذكرها إيفانوف[٥] ثلاثة عشر كتابًا[٦]، منها المجالس المؤيدية، والديوان، وسيرة المؤيد فى الدين، وكلها بالعربية، وقد نشر الكتابين الأخيرين منها المرحوم الدكتور محمد كامل حسين الذى يرجع إلى بحوثه الفضل فى تعريفنا بهذا الداعى الذى كان له أكبر الأثر فى ذيوع الدعوة وانتشارها فى إقليم فارس بوجه خاص[٧]، كما ساهم بأكبر نصيب فى توجيه "ناصر خسرو" الداعى الفاطمى، إذ كان ناصر خسرو تلميذًا له[٨].

---

(١) ديوان المؤيد فى الدين ص ٣٥.

(٢) أيضاً ص ٢٦.

(٣) A Guide to Ismaili Litrature p. 47.

(٤) السيرة المؤيدية ص ١٠٠ وما بعدها.

(٥) A Guide pp. 48 – 49.

(٦) انظر بحثاً عن بعض هذه المؤلفات فى ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ص ٥٨ – ٦٥.

(٧) A Guide.

(٨) ولقد اعترف ناصر خسرو بفضل المؤيد عليه فى عدة مواضع من ديوانه. انظر مثلاً الديوان ص ٣١٣ طبع طهران سنة ١٣٠٧هـ.

وناصر خسرو هو أبو معين الدين ناصر بن خسرو القبادياني المروزى[١]. ولد فى سنة ٣٩٤هـ[٢] ويبدو ناصر خسرو فى كتابه "سفر نامه" فى صورة الباحث عن الحقيقة الجاد فى طلبها بقطع المسافات الطوال، وينتقل من مدينة إلى أخرى عله يظفر ببغيته. فهو يحدثنا[٣] أنه فى سنة ٤٣٧هـ رأى فى منامه رجلاً يحذره من شرب الخمور ويطلب إليه أن يجد فى البحث عما يزيد العقل والحكمة. فعزم على الحج وعمره قد قارب الأربعين، غير أنه لم يصل إلى مكة إلا فى سنة ٤٣٩هـ بعد أن قطع رحلة طويلة متنقلا بين مدن إيران والعراق والشام. ثم عاد من مكة إلى دمشق، ثم إلى بيت المقدس وعزم على التوجه إلى مصر فوصل القاهرة فى نفس السنة. أى سنة ٤٣٩هـ[٤]. ويذهب إيفانوف[٥] إلى أنه ربما كان ناصر خسرو قد ذهب للحج كأى مسلم سنى عادى ثم صادف دعاة الإسماعيلية وهو فى طريقه إلى مكة، فنصحوه بالذهاب إلى مصر التى عاد منها إلى موطنه كداع إسماعيلى كبير فى مرتبة "الحجة". ولكن إيفانوف يعود فى موضع آخر من كتابه عن ناصر خسرو[٦] ويقول إنه من المحتمل أن يكون ناصر قد اعتنق مذهب الإسماعيلية وهو فى خرسان عن طريق اتصاله بواحد من صغار الدعاة، ثم توجه إلى القاهرة حيث تم قبوله للعمل فى خدمة الدعوة بعد تدريبه، وعاد إلى موطنه وهو فى هذه المرتبة ليتولى الدعوة للفاطميين. بينما يشير رشيد الدين فى جامع التواريخ[٧] إلى أن المستنصر بالله الفاطمى دعا ناصر خسرو للحضور إلى مصر كما دعا الحسن بن الصباح فيما بعد. وهذا يدل على أن ناصر خسرو اعتنق المذهب الإسماعيلى قبل بدء رحلته[٨].

---

(١) انظر سفر نامه ص ٢ الترجمة العربية ص١.

(٢) Ivanow Nasiri Khusraw and Ismailism p. 7.

(٣) فى سفر نامه ص ٣، ص١ وما بعدها من الترجمة العربية.

(٤) أيضاً ص ٥٤، ص ٤١ من الترجمة.

(٥) Nasiri Khusraw ... by Ivanow p. 12.

(٦) Ibid p. 32.

(٧) نقلاً عن الدكتور الخشاب فى مقدمته لسفرنامه ص ن.

(٨) وإلى هذا الرأى أيضاً يذهب الدكتور يحيى الخشاب، انظر مقدمة سفر نامه، الترجمة العربية ص ن.

والظاهر أن ناصر خسرو أعجب كل الإعجاب بنظام الحكم فى مصر فى ظل الفاطميين؛ فهو يشيد بنظام الجيش وترتيبه، ويبين فى نبرة تمتلئ بالإعجاب كيف أن رواتب الجند تدفع إليهم بانتظام مما أدى إلى إحساس الأهلين بالطمأنينة إلى سلامة أموالهم من غارة الجند وعدوانه، ويبدى دهشته لمقدار الثراء الذى تزخر به الأسواق والرفاهية التى يعيش فيها الناس[١]، ويرجع الدكتور يحيى الخشاب أن عروج ناصر خسرو، فى أثناء عودته إلى وطنه على الحسا مقر القرامطة إنما هو من قبيل السفارة لتوطيد الصلات بين الخليفة المستنصر والقرامطة فى مواجهة الدولة السنية المتزايدة القوة وهى دولة السلاجقة التى قضت على البويهيين بالتدريج، فأفقدتهم العراق فى سنة ٤٢٠هـ، ثم كرمان فى سنة ٤٤٠هـ، وانتهى أمرهم تمامًا فى سنة ٤٤٧هـ[٢].

وقد عاد ناصر خسرو إلى موطنه خراسان فى سنة ٤٤٤هـ ليتولى تصريف شئون الدعوة الإسماعيلية فى هذه "الجزيرة" من قبل الفاطميين.

وهنا تبدأ الفترة المظلمة فى حياته فلا نكاد نعرف عنه شيئًا بعد ذلك[٣]. لكنه يبدو أنه لقى العنت والاضطهاد من أهل خراسان، فهو يذكر فى الديوان أنه كان هناك(فى خراسان)كسفينة نوح بين الأنعام من أهلها الأشرار[٤]. الأمر الذى أدى إلى انتقاله إلى مازندران، حيث أقام زمنًا طويلا تمكن فيه من إقناع عدد كبير من أهلها باعتناق المذهب الإسماعيلى. غير أنه اضطر إلى الهرب من مازندران ناجيًا بنفسه متجهًا صوب خراسان مرة أخرى وأقام فى يمجان، حيث أخذ يصنف الكتب والرسائل فى مذهبه[٥]. وهو يشير إلى أنه أتم كتاب "زاد المسافرين" فى تلك المدينة فى سنة ٤٥٢هـ[٦]. والمشهور أن ناصر خسرو توفى سنة ٤٨١هـ [٧].

---

(١) انظر سفر نامه ص ٥٥ وما بعدها، ص ٤١ ـ ٧٠ من الترجمة العربية.

(٢) مقدمة الترجمة العربية لسفرنامه ص ن.

(٣) من الجدير بالذكر أن كثيراً من الخرافات قد نسجت حول شخصية ناصر خسرو ومعظمها يتحدث عن هذه الفترة المظلمة فى حياته. (انظر براون:تاريخ الأدب فى إيران الترجمة العربية ص٢٦٥ وما بعدها).

(٤) انظر براون فى تاريخ الأدب ص ٢٧٨ من الترجمة العربية.

(٥) مقدمة الترجمة العربية لسفر نامه ص ن.

(٦) زاد المسافرين طبع برلين ص ٢٧٨.

(٧) A Guide to Ismaili Litrature p. 89.

لقد كان لنشاط هذا الداعى ذى الشخصية المتعددة الجوانب أكبر الأثر فى انتعاش الدعوة الإسماعيلية فى إيران؛ فقد اتسعت على يديه دائرة المستجيبين للمذهب الإسماعيلى(١) واكتسبت أبعادًا فلسفية جديدة مستمدة من التغيير الذى أحدثه الفاطميون فى المذهب الإسماعيلى(٢).

ومضت الدعوة تحت قيادة ناصر خسرو فى خراسان ومازندران بعيدًا عن الطبقات الحاكمة، فلم يكن هذا الداعى يكن للحكام الكثير من الاحترام حيث إنهم أساءوا حكم الناس(٣).

أما فى إقليم فارس فالغموض يحيط بصورة الدعوة فيها بعد هرب المؤيد الشيرازى منها فى عهد الملك البويهى أبى كاليجار، إذ إننا لا نستطيع أن نعرف شخصية الداعى الذى تولى بعد المؤيد منصب "حجة جزيرة فارس". غير أنه يبدو أن مقر الحجة قد تغير فأصبح فى أصفهان (إحدى مدن بلاد الجبل) بدلا شيراز، ولكننا لا نستطيع أن نحدد متى تم ذلك التغيير، والظاهر أن قلعة شاهذر التى بناها السلطان ملكشاه(٤) (٤٦٥-٤٨٥هـ) بجوار أصفهان استرعت انتباه الإسماعيلية واجتذبت اهتمامهم إلى أهمية اتخذها معقلا من معاقل الدعوة(٥) يمكن عن طريق اجتذاب أهل اصفهان(٦) إلى صفوف الإسماعيلية. ويرتبط اسم عبد الملك بن عطاش بأصفهان، فالراوندى يقول(٧): "وكان فى أصفهان أديب يسمى بعبد الملك بن عطاش، وكان يتشيع فى البداية، ثم اتهم بعد

---

(١) بيان الأديان ص ٢٠ ص ٤٣ - ٤٤ من الترجمة العربية، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازى ص٧٨.

(٢) نرى أثر التغيير الفاطمى فى كافة مؤلفات ناصر خسرو بلا استثناء. وهى واضحة كل الوضوح فى كتاب "وجه الدين" الذى يعده إيفانوف مقتبساً من مؤلفات عربية مختلفة ذات أسلوب إسماعيلى فاطمى. (انظر كتاب وجه الدين طبع برلين سنة ١٩٢٤، وإيفانوف فى كتابه عن ناصر خسرو (بالإنجليزية)، ص ٦١ - ٦٢).

(٣) تاريخ الأدب فى إيران، الترجمة العربية ص ٢٧٨.

(٤) يقول القزوينى فى آثار البلاد إن ملكشاه "بناها سنة خمسمائة" وهذا خطأ لأن ملكشاه مات سنة ٤٨٥هـ (انظر راحة الصدور للراوندى ص ١٣٢ - ص ٢٠٦ من الترجمة العربية).

(٤) ولكن هذه القلعة لم تقع فى يد الإسماعيلية إلا بعد موت عبد الملك بن عطاش إذ وقعت فى يدهم فى سنة ٤٨٧هـ.

(٦) عن الأهمية الاقتصادية والسياسية لأصفهان فى ذلك العصر انظر الإصطخرى ، المسالك والممالك ص ١١٧.

(٧) فى راحة الصدور ص١٥٥ تقابل ص ٢٣٨ من الترجمة العربية.

ذلك بالإلحاد وأخذ أئمة أصفهان يتتبعونه ويرون التعرض له وقتله، ففر من أصفهان إلى الرى، ثم خرج منها والتحق بالحسن بن الصباح". ويقول الحسن بن الصباح فى سيرته: "ولما وصل عبد الملك بن عطاش داعى العراق(العجمى) فى ذلك الوقت إلى الرى فى سنة أربع وستين وأربعمائة أعجب بى، فأمر بأن أتولى نيابة الدعوة وأشار بوجوب توجهى إلى الحضرة فى مصر، وكان فى ذلك الوقت هو المستنصر[1]".

كان ابن عطاش يتولى رئاسة الدعوة إذن فى العراق العجمى، وكان لديه عدد كبير من الدعاة الأقوياء[2]، ولكنه كان فى حاجة إلى دعاة أشد قوة وأعظم كفاءة.

ويبدو أنه كان يبحث عن شخصية تنوب عنه فى المناطق الشمالية وخصوصا فى الرى (وقد وجد بغيته في الحسن بن الصباح[3]. وكان يرسل بمن يلمس فيه الكفاءة والمقدرة إلى بلاط الخليفة الفاطمى لتلقى أصول الدعوة والتدرب على كيفيتها ووسائلها[4]. ويبدو أن عبد الملك بن عطاش قد انتهج سياسة ثابتة فى إرسال الدعاة إلى مصر، فلم يكن الحسن بن الصباح وحده هو الذى أوفد فى ذلك الوقت إلى بلاط الخليفة الفاطمى، بل تذكر مصادرنا داعيًا آخر يقال له "أبو حمزة الإسكاف وهو من أهل أرجان (مدينة مشهورة بإقليم فارس) سافر إلى مصر وعاد داعية لهم[5]". فلقد كان الدعاة يعودون من مصر إلى مواطنهم لتولى مهام الدعوة بها.

ولا نعرف على وجه التحديد متى توفى عبد الملك بن عطاش، ولا بد أن تكون وفاته قد وقعت بعد سنة ٤٦٤هـ، وهى السنة التى قدم فيها إلى الرى لمقابلة الحسن بن الصباح.

---

(١) جهانكشاى ج ٣ ص ١٨٩ وما يقابلها من الترجمة العربية فى كتابنا هذا.

(٢) يذكر الحسن بن الصباح، فى سيرته أسماء ثلاثة منهم هم أميره ضراب، وبونجم سراج ومؤمن. انظر جهانكشاى ج٣ ص ١٨٨ وما يقابلها من الترجمة.

(٣) يقول الراوندى فى راحة الصدور ص ١٥٦، ٢٣٨، ٢٣٩ من الترجمة أن عبد الملك بن عطاش أرسل إلى أحد أصدقائه بعد مقابلته للحسن بن الصباح كتاباً يقول فيه عن الحسن: "وقعت بالباز الأشهب فكان عوضاً عما خلفته".

(٤) ويبدو أن العمل على اكتشاف نوابغ الدعاة كان قد اتخذ صورة عامة فى ذلك الوقت. انظر كتاب دولة النزارية فى إيران للدكتور طه شرف ص ٢٨ – ٢٩.

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٢.

ولقد بدأت الدعوة الإسماعيلية فى العراق فى ذلك الوقت فى موقف لا تحسد عليه وكان رئيسها ابن عطاش نفسه مهددًا بالقتل فى أية لحظة، والواضح أنه كان يحاول العثور على شخصية فذة ذات مقدرة فائقة تقيم للدعوة صلبها وترد عنها غائلة المخالفين.

ولقد عثر على مطلبه فى الحسن بن الصباح فعينه نائبًا عنه فى الرى، ثم أوفده إلى مصر وعاد ابن الصباح ليعمل على إقامة دولة الإسماعيلية فى إيران.

الفصل السادس

دولة الإسماعيلية فى إيران

نشأتها ومقوماتها

يدور محور بحثنا فى هـذا الفصـل حـول نقطـة جوهريـة تثـير التسـاؤل: هل أقـام الإسماعيلية فى إيران دولة بالمفهوم الصحيح؟ ومن الطبيعى أن نبدأ بالتعرف - وفقًا لما لدينا من مصادر - على الظروف السياسية فى إيران قبل تمكن الإسماعيلية من تثبيت أقدامهم بها، ثم نستطرد فى دراسة طبيعة الحركة الإسماعيلية فى تلك الفترة لنرى ما إذا كانت شروط الدولة قد توافرت فيها.. وينبغى علينا أن نبادر فنقرر أننا لا نريد بهذه الدراسة أن نحكم للإسماعيلية أو عليهم، بل المراد هو محاولة تقرير الحقيقة التاريخية دون تعصب أو محاباة.

* * *

قد يبدو من الغريب حقًّا أن تنتعش الدعوة الإسماعيلية فى ظل الدولة السلجوقية العظيمة الاستيلاء، التى حاربت بلا رفق أو هوادة كافة المذاهب المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة. ولقد انحسر المد الشيعى والإسماعيلى الفاطمى عن الجزء الشرقى من العالم الإسلامى عقب ظهور السلاجقة بالقضاء على الدولة البويهية وإخماد ثورة البساسيرى فى بغداد سنة ٤٥٠هـ، حيث خطب للخليفة الفاطمى على منابر بغداد لمدة عام بأكمله.

كانت الأحداث تتواتر بسرعة غريبة فى صالح المعسكر السنى، وبدأ الموقف فى ذلك الجزء من العالم الإسلامى وكأنه لن تقوم قائمة لأى مذهب آخر غير المذهب السنى طالما يسيطر السلاجقة ذوو القدرة الهائلة فى القسر والقمع، بل إننا نجد هؤلاء السلاجقة الأقوياء يلتزمون جانب الحيطة، ويبالغون فى رصد مواضع التفوق التى قد

تهب منها رياح مخالفة، فها هو ذا الوزير نظام الملك الذى وزر لاثنين من سلاطين السلاجقة العظام ينتقد بصراحة ووضوح، فى كتابه سياستنامه، السياسة المعاصرة للدولة حيث قامت بتوظيف عدد من غير المسلمين كاليهود والمسيحيين والملاحدة والقرامطة وأتباع الباطنية، ويرى أن الخير كل الخير فى إبعاد هؤلاء جميعًا عن الجهاز الإدارى للدولة، وإلا فإن وجودهم سوف يقودها إلى الاندثار لا محالة[1]. بل إن نظام الملك نفسه يحرص على تشييد المدارس التى سميت باسمه فى المدن الهامة مثل بغداد وأصفهان وبلخ ونيسابور وهراة والبصرة ومرو وآمل والموصل، فأنشأ فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة[2]، وهى المدارس التى اشتهر ذكرها فى التاريخ بأنها رفعت لواء الدفاع عن مذهب السنة ومناهضة المذاهب المخالفة، وكانت نشأتها فى الحقيقة مرتبطة بالدعوة المضادة للدعوة الشيعية[3] . ولقد قاوم نظام الملك المذهب الإسماعيلى بأقصى ما يستطيع من قوة، وصبغ عداء الإسماعيلية للدولة السلجوقية بصبغة العداء للدين نفسه.

إلا أنه رغم هذا كله اشتدت شوكة الدعوة الإسماعيلية فى إيران بالذات، وكسبت الكثير من المستجيبين. واستطاعت فى النهاية أن تثبت أقدامها وتحرز نصرًا سياسيًّا كبيرًا بالاستيلاء على مناطق شاسعة فى تلك المنطقة من العالم الإسلامى، وذلك فى عصر أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق وهو السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان.

والواقع أن الدولة السلجوقية كانت -وقت نجاح الإسماعيلية السياسى بالاستيلاء على قلعة الموت فى أواخر عصر ملكشاه سنة ٤٨٣هـ على النحو الذى سيحدثنا عنه عطا ملك الجوينى فى القسم الثانى من هذا الكتاب- قد بدأت تفقد تماسكها الذى تمتعت به طوال الفترة السابقة؛ إذ أخذت تعانى من الخلاف الذى دب بين السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك لسيطرة أبنائه على ما ولوه من بلاد وعسفهم فى معاملة الناس من ناحية، ولأن نظام الملك كان يحبذ من ناحية أخرى أن يتولى بعد ملكشاه أكبر أبنائه المسمى بركيارق، فى حين كانت تركان خاتون زوج السلطان ملكشاه تريد لأبنها محمود أن يخلف أباه على العرش، مما جعل تركان خاتون تسعى بنظام الملك لدى

(١) The Decline of The Seljuqid Empire, by Sanaullah Nawlawi Fadil, p. 51.

(٢) انظر كتاب "تاريخ التربية الإسلامية" للدكتور أحمد شلبى، وانظر أيضاً Political Thought .. p. 62.

(٣) "سلاجقة إيران والعراق" للدكتور عبد النعيم حسنين ص ٨١.

السلطان فتمكنت من التأثير عليه حتى فكر فى عزله[١]. ولقد كان هذا الخلاف من بين العوامل التى سببت حدوث تدهور سريع فى مقدرة الحكومة المركزية للدولة السلجوقية مما جعلها تلجأ إلى معالجة المشكلة المتفاقمة باستيلاء الإسماعيلية على حصن منيع فى منطقة منيعة عن طريق المقطعين والحكام المحليين[٢] دون أن تكلف نفسها مئونة التدخل المباشر لحسم الموقف حتى بعد أن فشل هؤلاء المقطعون والحكام فى استخلاص القلعة من أيدى الإسماعيلية، الأمر الذى مهد الطريق أمام طموح الإسماعيلية وجعل حلمهم فى تثبيت أقدامهم سياسيًا فى تلك المنطقة حقيقة واقعية[٣].

ويعزو العماد الأصفهانى فى "تواريخ دولة آل سلجوق" السبب فى نجاح الدعوة الإسماعيلية بإيران فى الحصول على كسب سياسى فى ذلك الوقت على هذا النحو المفاجئ إلى أنه "لم تكن للدولة أصحاب أخبار، وكان الرسم فى أيام الديلم (يعنى البويهيين) ومن قبلهم من الملوك أنهم لم يخلوا جانبًا من صاحب خبر وبريد، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصى والأدانى، وحال الطائع والعاصى، حتى ولى فى الدولة السلجوقية ألب أرسلان محمد بن داود، ففاوضه نظام الملك فى هذا الأمر فأجابه أنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر ... فأسقط السلطان هذا الرسم ... فلم يشعر إلا بظهور القوم (يعنى الإسماعيلية) وقد استحكمت قواعدهم واستوثقت معاقدهم. وأخافوا السبل، وأجالوا على الأكابر الأجل"[٤].

غير أن هناك سببًا آخر أدى إلى وقوع هذه المفاجأة غير المتوقعة بالنسبة للسلاجقة بقيام دولة للإسماعيلية بين ظهرانيهم، هو أن سلاطين السلاجقة لجأوا منذ البداية إلى الإقطاع كأسلوب إدارى[٥] فى إدارة شئون البلاد المترامية الأطراف الواقعة تحت حكمهم، فنحن نجد طغرل أول سلاطينهم يتبع هذا الأسلوب فيوزع الأراضى الواسعة التى دخلت فى حوزته على أمراء السلاجقة، وقد ظل سلاطين السلاجقة التابعون

---

(١) سلاجقة إيران والعراق ص ٧٥ -٧٦ .

(٢) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٠٠، ٢٠٣ وما يقابلها من الترجمة.

(٣) Political Thought in Medieval Islam, by Rosenthal p. 85.

(٤) تواريخ دولة آل سلجوق ص ٦٢ – ٦٣ سلاجقة إيران والعراق ص ١٧١.

(٥) عن الإقطاع ونظمه انظر مقال الدكتور جعفر حسين خصباك فى مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٦١م بعنوان "أحوال العراق الاقتصادية فى عهد الإيلخانيين المغول" (٦٥٦ –٧٣٧هـ).

يسيرون على هذا النهج، الأمر الذى أدى إلى نشوب المنازعات بين حكام هذه الولايات بعضهم البعض وإلى تفتيت قوتهم ونزوعهم إلى الاستقلال المطلق عن السلطة المركزية. فبينما كانت قوة سلاطين السلاجقة وهم أصحاب الرئاسة العليا فى إيران تميل إلى الانخفاض كانت قوة حكام الولايات تزداد بحيث يصبح كل منهم حاكمًا شبه مستقل[١].

ويبدو أن اتجاه الدعوة الإسماعيلية فى عصر الفاطمين فى إيران إلى دعوة الفئات الكادحة قد أتت بنتيجة إيجابية، فوسعت دائرة المعتنقين للمذهب الإسماعيلى فى جهات متعددة، وخلقت لدى كبار الدعاة أملاً طموحًا فى إحراز كسب سياسى فى المنطقة. وقد ساعد على نجاح هذا الاتجاه فى الدعوة ازدياد أهمية المدن فى عصر السلاجقة الذى كان أثرًا من آثار سياسة اللامركزية فى الإدارة التى انتهجوها منذ بداية حكمهم لإيران؛ فقد صار لبعض المدن فى تلك المنطقة شخصية واضحة لها مقوماتها ومميزاتها[٢]. ونتج عن ظهور المدن بهذه الصورة أن ظهر فى كل مدينة عدة طبقات كالعظماء والأشراف والتجار، والعمال، والصناع، والفقراء، وكثرت طبقة الصناع فى بعض المدن[٣]. ولعل دعاة الإسماعيلية فى ذلك الوقت قد استغلوا هذا التمايز الطبقى فأصابوا - فى ظل اتجاههم نحو دعوة الطبقات الكادحة - الكثير من النجاح.

على أنه إذا كانت المدن قد برزت فى ذلك العصر على هذه الصورة الاجتماعية الهامة والمؤثرة فإن القلاع المنتشرة فى أرجاء إيران لم تكن تقل أهمية وتأثيرًا، وخصوصا من الناحية السياسية. ولقد فطن الإسماعيلية إلى أهمية القلاع، وبثوا دعاتهم بين أهلها وتمكنوا من السيطرة على عدد من القلاع المحكمة كانت خير عون لهم على تثبيت أقدامهم فى مواجهة المقاومة السلجوقية المقتدرة.

---

(١) انظر تحليلاً للوضع السياسى فى إيران فى عهد السلاجقة فى الفصل الأول من الجزء الثانى من كتاب "تاريخ أدبيات إيران" للدكتور ذبيح الله صفا، والملاحظ أن منطقة الموت نفسها كانت إقطاعاً لأمير من أمراء السلاجقة قبل استيلاء الإسماعيلية عليها. (انظر جهانكشاى ج٣ ص ١٩٩ وما يقابلها من الترجمة فى القسم الثانى من كتابنا هذا).

(٢) انظر ذلك تفصيلاً فى كتاب "نظامى الكنجوى شاعر الفضيلة" للأستاذ الدكتور عبد النعيم حسنين ص ٥٨.

(٣) أيضاً.

ولقد كان استيلاء الحسن بن الصباح على قلعة الموت المنيعة[1] فى سنة ٤٨٣هـ هو أول بوادر النجاح السياسى للإسماعيلية فى إيران، وشعر السلاجقة بالخطر الكامن وراء هذا الحدث فبدأوا على الفور فى محاولات استرداد هذه القلعة، ولقد فشلت المحاولة الأولى التى يبدو أنها وقعت فى نفس السنة، أى سنة ٤٨٣هـ، وكان من آثارها المباشرة انطلاق الدعاة إلى المناطق المجاورة تمهيدًا لضم هذه المناطق إلى حوزة الإسماعيلية. ولقد كانت مهمة هؤلاء الدعاة بالدرجة الأولى سياسة لا مذهبية، وانطلق أول الدعاة من الموت فى العام التالى لفتحها مباشرة سنة ٤٨٤هـ[2]. ولم تكن الحملة الثانية التى شنها السلاجقة لاستخلاص الموت من يد الحسن بن الصباح سنة ٤٨٥هـ بأوفر حظا من سابقتها، فقد أصيبت هى الأخرى بالخذلان[3]. وقد أتبعها الإسماعيلية مباشرة بالقضاء على نظام الملك، وتوفى السلطان ملكشاه بعده بقليل، فدب النزاع على العرش بين أبنائه، وانشغل أمراء الفرق بالقتال فيما بينهم وتحولوا عن مهاجمة الإسماعيلية[4]. وانتهز ابن الصباح فرصة هذا النزاع فأخذ يثبت أقدامه ويبث دعاته[5] ويوسع أراضيه.

ولم يلبث أحمد بن عبد الملك بن عطاش رئيس الإسماعيلية فى أصفهان أن استولى هو الآخر على القلعة المنيعة المشرفة على أصفهان والمعروفة بشاهدز فى سنة ٤٨٧هـ، مستغلا النزاع الذى وقع على عرش السلاجقة بين بركيارق بن السلطان ملكشاه وأخيه محمود، ولقد كان استيلاء الإسماعيلية على هذه القلعة من الأحداث الخطيرة التى هددت سلامة الدولة السلجوقية وأمنها[6]. وكان أحمد بن عبد الملك قد تولى رئاسة الدعوة بأصفهان خلفًا لأبيه[7]. ويحدثنا ابن الأثير عن قوة هذا الداعى السياسية فى أصفهان وما حولها فيقول: "كان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من

---

(١) انظر وصفاً مفصلاً ومزوداً برسوم توضيحية لموقع قلعة الموت ونظامها المعمارى فى كتاب
The Valleys of The Assassins and Other Persian Travels, by Freya Stark pp. 200 – 238.

(٢) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٠٠ وما يقابلها من الترجمة، والملاحظ أن الدعاة كانوا يتجهون مباشرة إلى القلاع ويعولون على الاستيلاء عليها.

(٣) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٠٢ وما يقابلها من الترجمة.

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٨، ١٥٤.

(٥) راحة الصدور ص ١٥٥ = ص ٢٣٨ من الترجمة العربية.

(٦) سلاجقة إيران والعراق، ص ٩٨.

(٧) راحة الصدور ص ١٥٦ = ٢٣٩ من الترجمة العربية، وروضة الصفا الجزء الرابع ص ١١٠.

قدروا على قتله، فقتلوا خلقًا كثيرًا لا يمكن إحصاؤهم، وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى، فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم[1]"، ويقول ابن الأثير إن هذا حدث فى أثناء الخلاف الواقع بين بركيارق ومحمد الذى استمر حتى سنة ٤٩٨هـ.

ويبدو أن الإسماعيلية فى أصفهان لم يتمكنوا من تثبيت أقدامهم إلا بعد استيلائهم على قلعة شاهدز[2]، ومنذ ذلك الحين وهم ينتزعون من أيدى السلاجقة يومًا بعد يوم جزءا من المناطق التى تقع تحت سيطرتهم. والظاهر أن ابن عطاش كان يعمل فى أصفهان مستقلا عن ابن الصباح فى الموت، ولم تكن هناك وحدة بين رئيسى المنطقتين، فقد خلف أحمد بن عطاش أباه فى رئاسة الدعوة بأصفهان، بينما تولى ابن الصباح رئاسة الدعوة فى الرى وظل كلاهما، فيما يبدو، يعمل منفردًا حتى بعد نجاح ابن الصباح فى الموت ونجاح ابن العطاش فى أصفهان فى الاستيلاء على مناطق شاسعة من أراضى الدولة السلجوقية، غير أن المكانة السياسية التى حصل عليها الإسماعيلية فى أصفهان لم تلبث أن انهارت إزاء إصرار السلطان محمد السلجوقى على استئصالهم، فلقد باشر السلطان بنفسه إجراءات الهجوم على قلعة شاهدز فى سنة ٥٠٠هـ، ووقع أحمد بن عطاش فى قبضته، فقضى عليه وعلى من بقى من الإسماعيلية فى القلعة، وطهر أصفهان وما جاورها منهم.

ومنذ ذلك الحين وقوة الإسماعيلية الرئيسية فى إيران تتركز فى المنطقة الواقعة جنوبى بحر قزوين، تلك المنطقة التى كان الحسن بن الصباح قد وطد دعائم حكمه فيها وصبغها بالصبغة الإسماعيلية البحتة، بعد أن تمكن من تحويل كافة من أقام فيها إلى المذهب الإسماعيلى. واستطاع أن يتوج جهود من سبقه من الدعاة، فنجح فى إقامة دولة للإسماعيلية فى إيران.

ويرى بعض الباحثين أن الإسماعيلية لم ينشئوا فى إيران دولة بالمفهوم الصحيح لكلمة الدولة. وممن يذهب إلى هذا الرأى الدكتور زكى النقاش فى رسالته "الحشاشون وأثرهم فى السياسة والاجتماع[3]" إذ يقول: "لم تستطع هذه الفرقة (يعنى إسماعيلية إيران) مع

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨١.

(٢) انظر الراوندى ص ١٥٦ – ٢٣٩ من الترجمة العربية، وابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٠ – ١٨١.

(٣) مخطوط بالمكتبة العامة لجامعة القاهرة تحت رقم (١٤٤ رسائل)، انظر ص ٧١.

ما توصلت إليه من القوة والبطش والجبروت أو لم تشأ أن تخلق لها دولة بالمعنى المفهوم ولا أن تؤسس أسرة يتعاقب أفرادها فى التربع على دست الملك أو يتوارثون عرشًا أو تاجًا، بل كان ما رموا إليه وتوصلوا إلى تحقيقه أنهم أقاموا منظمة ثورية لها كيانها وزعامتها وحماتها وأتباعها".

بيد أن لدينا نحن عددًا من الأدلة تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الإسماعيلية أقاموا فى إيران دولة بالمفهوم الصحيح لمعنى الدولة، فقد كانت عناصر الدولة وشروطها متوافرة فى نظمها السياسية، كما كانت نظمها الاجتماعية ذات طابع فريد بحيث عاش فيها مجتمع متجانس يسعى إلى تحقيق أهداف محددة ومرام واضحة، كذلك تميزت بالاستقلال فى تطورها العقدى وبالتفرد فى استنباط مذهب جديد على نحو أعاد إلى عقائدهم نزعة الغلو والتطرف ومزجها ببعض ملامح النزعة الفارسية القومية. ونتناول فيما يلى هذه النقاط الثلاث بالشرح والتفصيل.

أولاً النظم السياسية:

لم يكد الحسن بن الصباح يستولى على قلعة الموت حتى بادر بالاستيلاء على القلاع المجاورة فأطلق دعاته لتحقيق هذا المأرب[1]. ولم يمض وقت طويل حتى كان ابن الصباح قد استولى على المنطقة الواقعة جنوبى بحر قزوين برمتها بعد أن سيطر دعاته على القلاع المتناثرة فى أرجائها، والتى تبلغ نحو الستين قلعة[2].

كانت هذه القلاع تقع فى الغالب وسط وديان صالحة للزراعة وبالقرب من موارد ثابتة للمياه، فالملاحظ أن القلاع الرئيسية فى أراضى الإسماعيلية كانت تقع بالقرب من نهر "شاهرود" وفروعه[3]. وكانت القلعة تكون وحدة اقتصادية عسكرية مستقلة بذاتها، يعيش أهلها معتمدين على أنفسهم فى زراعة الأرض والدفاع عن القلعة وما حولها فى مواجهة أى غزو أو اعتداء. ولقد كان للوفرة والتنوع الذى امتازت به المحاصيل التى يمكن أن تزرع فى هذه المنطقة أكبر الأثر فى تحقيق استقلالها وتكاملها الاقتصادى[4]، وكانت المحاصيل تزرع فى الأرض المحيطة بالقلاع. ويبدو أن

---

(١) جهانكشاى ج٣ ص٢٠٠ - ٢٠١ وما يقابلها من الترجمة العربية.

(٢) The Gastles of The Assassins, by Peter Willy, London 1963.

(٣) انظر حواشى القزوينى على جهانكشاى ج ٣ ص ٣٨٧ - ٣٩٠، وكذلك الخريطة الموجودة فى آخر هذا الكتاب.

(٤) The Gastles..... p. 318.

الإسماعيلية كانوا يضطرون إلى الامتناع بقلاعهم فى أثناء الحملات التى كان يشنها عليهم أعداؤهم ويتركون الأراضى المنزرعة حول القلعة دون حماية مما كان يعرض محاصيلهم ومزروعاتهم للنهب والغارة والتلف[1].

ولكن ذلك لا يعنى أن هذه القلاع كانت تعيش فى معزل عن بعضها البعض أو يحكمها مقدموها دون رقيب أو معقب، وإنما كانت كل واحدة من هذه القلاع تكون وحدة محلية تابعة للسلطة المركزية فى قلعة الموت، فقد كان رؤساء هذه القلاع يتبعون مباشرة الحاكم الإسماعيلي فى قلعة الموت[2] الذى كان يمثل السلطة العليا، يعاونه ثلاثة من الوزراء، فقد أوصى ابن الصباح لما اقترب أجله بأن يتولى "بزرك أميد" الحكم من بعده على أن يعاونه ثلاثة خص أحدهم بديوان الدعوة، وخص الثانى بقيادة الجيش[3]، بحيث يتولى الأربعة جميعًا ـ برئاسة بزرك أميد ـ تصريف شئون البلاد إلى أن يحين الوقت الذى يأتى فيه الإمام بنفسه لتولى الحكم[4]. غير أنه يبدو أن هذا النظام لم يعمر طويلا، حيث تمكن بزرك أميد الذى كان مرهوب الجانب قوى الشخصية[5] من جمع كافة السلطات فى يده وأوصى بأن يتولى ابنه حكم البلاد من بعده، فانقلب نظام الحكم منذ عهد بزرك أميد إلى نظام وراثى تتجمع فيه السلطة فى يد الحاكم الذى ظل يحكم باسم الإمام الغائب. ولم يلبث الحسن بن محمد بن بزرك أميد أن ادعى أنه الإمام فاستحوذ على السلطة كلها وامتلك حق التشريع المذهبى ذاته.

وكانت المناطق التى تسيطر عليها هذه القلاع جميعًا تمثل رقعة واحدة من الأرض تقع جنوبى بحر قزوين وتمتد فتشمل الطالقان فى الجنوب الشرقى حتى حدود قزوين جنوبًا كما تمتد غربًا حتى بهرام آباد ورودبار على الحدود المتاخمة لشرقى آذربايجان. وذلك يعنى أن المناطق التى سيطر عليها الإسماعيلية كانت ذات حدود سياسية تفصلها عن المناطق المجاورة لها والتى تقع تحت سيطرة غيرهم. غير أن هناك ولاية تقع خارج

---

(١) جهانكشاى ج ٣ ص ٢١١ وما يقابلها من الترجمة.

(٢) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٠٨، ٢٠٩ وما يقابلها من الترجمة.

(٣) لم يعين للثالث عمل محدد (انظر جهانكشاى ج ٣ ص ٢٤١ وما يقابلها من الترجمة).

(٤) أيضاً.

(٥) يبدو أن كيابزرك أميد كان يتمتع بمكانة عالية بين أهل ديلمان لعراقة نسبه (انظر تاريخ طبرستان لسيد ظهير الدين المرعشى ص ٥٧ ـ ٦٩).

نطاق هذه الحدود استطاع الإسماعيلية الاستيلاء عليها وهى ولاية قهستان[1] المجاورة لخراسان منذ سنة ٤٨٤هـ، فأصبحت تابعة للدولة، وظل حكامها المحليون يتبعون ملوك الإسماعيلية فى الموت حتى قضى عليهم المغول[2] والملاحظ أن بعض المؤرخين القدامى، وفى مقدمتهم ابن الأثير، يطلقون على المناطق التى كان يحكمها الإسماعيلية فى إيران اسم "بلاد الإسماعيلية[3]". ويقول ابن ميسر فى هذل الصدد: "ثم امتدت مملكته (يعنى ابن الصباح) بعد وفاته فصار لهم عدة بلاد ومملكة طويلة إلى حد شرقى آذربايجان وبحر طبرستان وجرجان ولهم بخراسان مدينة كبيرة يقال لها رشيش (صح: ترشيش أو طريثيث)[4]". ويعد هذا اعترافًا ضمنيًا من المؤرخين المعاصرين للإسماعيلية بأنهم أقاموا فى إيران دولة واسعة ذات حدود سياسية.

وفى العصر الحديث بذلت محاولات عدة للتعرف على المنطقة التى استولى عليها الإسماعيلية جنوبى بحر قزوين، فقد قام عدد من المستشرقين والباحثين الأوربيين منذ منتصف القرن الماضى بزيارة تلك المنطقة[5]، واستمرت هذه المحاولات حتى فترة قريبة جدًّا إذ كانت آخرها ـ فيما نعرف ـ هى البعثة التى أرسلها جامعة أكسفورد فى سنة ١٩٦٠م لاكتشاف قلاع الإسماعيلية فى تلك المنطقة[6]. ولقد أجمعوا جميعًا على أن المنطقة التى أقام فيها الإسماعيلية حكمهم تؤهلها طبيعتها الجغرافية للاستقلال الاقتصادى والسياسى، كما أن شبكة القلاع التى تقع غالبًا فى وديان صالحة للزراعة كانت تكون رقعة واحدة من الأرض مستقلة عما سواها.

---

(١) "وهى الجبال التى بين هراة ونيسابور" (ياقوت فى المعجم البلدان ص ٢٠٥ - ٢٠٦).

(٢) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٠٠، ٢٢٩، ٢٢٧ وما يقابلها من الترجمة العربية، وكان الإسماعيلية فى الشام تابعين هم أيضاً لحكام الموت وإن كانوا قد تمتعوا بنوع من الاستقلال السياسى كما كانوا يعتمدون على أنفسهم دون تدخل فعلى من الموت. ويمكن للحصول على مزيد من المعلومات عن الإسماعيلية فى الشام الرجوع إلى رسالة الدكتور زكى النقاش، الحشاشون وأثرهم فى السياسة والاجتماع ص ١٤٦ وما بعدها.

(٣) انظر مثلاً ج ١٠ ص ١٤١ - ١٥٦ - ١٥٧.

(٤) ابن ميسر "أخبار مصر" ص ٦٨.

(٥) The Gastles of The Assassins, pp. 24 – 25.

(٦) وقد أخرجت هذه البعثة كتاباً عظيم الأهمية فى دراسة كل من النواحى الجغرافية والاقتصادية والجيولوجية للمنطقة التى أقام فيها الإسماعيلية قلاعهم، أصدره رئيسها بيتروبلى فى لندن سنة ١٩٦٣م بعنوان The Gastles of The Assassins, by Peter Willy, p. 23.

والواقع أن حكام الموت تمكنوا من العمل على تحقيق وحدة الحركة الإسماعيلية فى إيران، تلك الوحدة التى كانت - فيما يبدو - مفقودة طيلة الفترة السابقة. فقد رأينا فى الفصلين السابقين أن الدعوة فى إيران كانت على الدوام موزعة بين مركزين على الأقل، بينما توزعت بعد عودة ابن الصباح من مصر فى سنة ٤٧٣هـ بين ثلاثة رؤساء: أحمد بن عبد الملك بن عطاش فى أصفهان، وناصر خسزو فى خراسان، والحسن بن الصباح فى الرى. ولقد استوعب ابن الصباح البقية الباقية من إسماعيلية أصفهان بعدما هجروا إليه للإقامة فى منطقة الموت لدى محاصرة السلطان محمد لقلعة شاهدز سنة ٥٠٠هـ، حيث هلك ابن عطاش. ولكن إسماعيلية خراسان ظلوا محافظين على استقلالهم عن حكام الموت مدة طويلة. ويشير أبو المعالى العلوى فى كتابه بيان الأديان (مؤلف سنة ٤٨٥هـ[١]) إلى وجود نوع من الاختلاف بين الدعوة (الناصرية) نسبة إلى ناصر خسرو، والدعوة (الصباحية) نسبة إلى الحسن بن الصباح، وذلك دون أن يذكر الآراء والعقائد المميزة لكل من الدعوتين وهو كتاب "اعتقادات فرق المسلمين والمشتركين" للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ. وهذا يعنى أن الاختلاف ظل قائمًا حتى فترة متأخرة من عصر الدولة الإسماعيلية فى إيران. غير أننا نلاحظ أن استيلاء الحسن ابن الصباح على جزء من قهستان المتاخمة لخراسان سنة ٤٨٤هـ[٢] قد مهد لضم إسماعيلية خراسان إلى الحركة الإسماعيلية الموحدة فى إيران التى كان يتزعمها ابن الصباح وملوك الإسماعيلية[٣] من بعده فى الموت. فلم يلبث الإسماعيلية فى قهستان أن نسجوا على منوال إسماعيلية الموت: "وبذلوا هم أيضًا غاية جهدهم فى العمل على إنشاء الدعوة بقهستان واستخلاص النواحى المحيطة بهم وحدودها عن طريق استعمال التزاوير والاستيلاء على القلاع[٤]". ولكن يبدو أن السلطان السلجوقى سنجر فطن إلى ما يهدف إليه الإسماعيلية من إنشاء هذا المركز القوى بالقرب من مقر السلطة المركزية للسلاجقة فى خراسان، فعمد إلى إيفاد أكبر أمرائه، وهو الأمير بزغش، للقضاء عليهم

---

(١) بيان الأديان ص ٣٥ = ٤٦ من الترجمة العربية.

(٢) جهانكشاى ج٣ ص ٢٠٠ ومايقابلها من الترجمة، وانظر ياقوت فى معجم البلدان تحت عنوان "قهستان" ج ٤ ص٢٠٥ - ٢٠٦.

(٣) على حد تعبير ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٠٠ - ٢٠١ طبع ليدن، وابن خلكان ج ١ ص ٢٧٨ - طبع بولاق.

(٤) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٠٠ - ٢٠١ وما يقابلها من الترجمة.

فى سنة ٤٨٤هـ، فهاجم قهستان وطبس فى سنة ٤٩٧هـ وشرط على الإسماعيلية "أنهم لا يبنون حصنًا ولا يشترون سلاحًا ولا يدعون أحدًا إلى عقائدهم"[١]. بيد أن الظاهر أن الالتزام بتنفيذ شروط هذه الهدنة كان مقصورًا على الإسماعيلية من أتباع الحسن بن الصباح بقهستان وطبس دون غيرهم من الإسماعيلية المقيمين بخراسان؛ لأن ابن الأثير يقول إن الإسماعيلية فى طرثيث[٢] من أعمال بيهق لم يقفوا على هذه الهدنة، ومن ثم أغاروا فى السنة التالية مباشرة (٤٩٨هـ) على المناطق المجاورة لمنطقتهم وأكثروا من قتل أهلها ونهب أموالهم وسبى نسائهم[٣]. ويبدو أن الإسماعيلية فى طرثيث قد بقوا مدة طويلة مستقلين فى عقائدهم وعلاقاتهم بمن حولهم عن حكام الموت[٤]، ولقد تعرضوا لهجمات السلاجقة فى سنتى ٥٢٠، ٥٤٦هـ. والظاهر أنهم كانوا يسيطرون على مناطق واسعة[٥] كما كانت لهم قرى مخصوصة[٦] بهم لا يقيم بها غيرهم. غير أنه يستفاد من نص نقله إيفانوف عن الكتاب الإسماعيلى "هفت باب أبى إسحاق" فى المقدمة الإنجليزية لكتاب "كلام بير[٧]" أن "رفاق" خراسان كانوا يشتركون فى المحافل العامة التى تقام فى الموت مثلهم فى ذلك مثل رفاق العراق والديلم، فلقد اشتركوا فى أول عيد من أعياد "القيامة" فى عهد الحسن بن محمد بن بزرك أميد سنة ٥٥٩هـ[٨]. ولهذا نستطيع أن نقول بأنه يبدو أن هذه الوحدة المذهبية بين ما يسمى "بالناصرية" و"الصباحية" كانت حقيقة واقعة فى منتصف القرن السادس[٩]. ومما يدعم هذا القول

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٤ – ١٣٥، ١٥٨.

(٢) "ناحية وقرى كثيرة من أعمال نيسابور وطرثيث قهستان" (ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص ٥٣٤).

(٣) ابن الأثير، حوادث سنة ٤٩٨.

(٤) نستطيع أن نتتبع تاريخ إسماعيلية خراسان فى ابن الأثير ج ١٠ طبع مصر ص ١٦٤ - ٢٦٠ ج ١١ طبع مصر ص٦٨، ٧٠، ٨٩ - ٩٠، ١٠١، ١٢٥، ١٤١. ويبدو أن ابن الأثير ينقل عن السلامى من كتابه المفقود "تاريخ ولاة خراسان".

(٥) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٠.

(٦) ابن الأثير ، أيضاً.

(٧) ص ١١٥ - ١١٧.

(٨) عن دعوة "القيامة" انظر جهانكشاى ج ٣ ص ٢٢٦ وما يقابلها من الترجمة العربية.

(٩) تجدر الإشارة إلى أن إيفانوف فى كتابه "المرشد إلى الأدب الإسماعيلى" ص ٩٠ – يتحرج من تحديد تاريخ لوقوع هذه الوحدة المذهبية بين الفرقتين وإن كان يسلم بوقوعها.

أن ابن الأثير يشير في حوادث سنة ٦٠٠هـ إلى أن رئيس الإسماعيلية بخراسان كان مقيمًا بقهستان[١]، وكانت قهستان - كما ذكرنا - تتبع ملوك دولة الإسماعيلية، حكام الموت منذ سنة ٤٨٤هـ. ويخبرنا المرعشي في تاريخ طبرستان أن خراسان كانت وقت الغزو المغولي "قد امتلأت بالملاحدة[٢]". ولا بد أن ذلك الازدهار قد حدث بفضل التوجيه المركزي لشئون الدعوة في الموت.

وعلى هذا النحو تمكنت دولة الإسماعيلية في إيران من أن تحقق التآلف بين الفرق المتفرعة عن المذهب، فتجنبت بذلك التشتت الذي منيت به الدعوة الإسماعيلية في إيران منذ أقدم أطوارها، كما نجحت تلك الدولة في أن تكسب إلى جانبها - من الوجهة السياسية والمذهبية على حد سواء - المعتنقين للمذهب الإسماعيلي في المنطقة.

ولقد استطاع الإسماعيلية في إيران أن يعملوا - بعد قيام دولتهم مباشرة - على تكوين جيش ساهم بصورة فعالة في أحداث الفترة التي عاشتها دولتهم. وبديهي أن الإسماعيلية - الذين دخلوا بعد استيلائهم على الموت مباشرة في سلسلة من الحروب الدفاعية - كان لديهم جيش يتولى الدفاع عما بأيديهم من أراض اغتصبوها من السلاجقة. ولكن الملاحظ أن جهانكشاي - وهو المصدر الرئيسي عن هذه الدولة - لا يشير إلى وجود هذا الجيش إلا في وقت متأخر من حياتها في عصر جلال الدين مسلمان، مما يجعل الشك في وجود هذا الجيش منذ البداية يتطرق إلى الأذهان، بيد أن ابن الأثير والعماد الاصفهاني[٣] يشيران إلى أن الإسماعيلية كان لديهم جيش منظم في عصر مبكر من حياة دولتهم، فيذكر أن الأمير دادحبشي بن التونتاق شق عصا الطاعة وتمكن من الاستيلاء على أكثر بلاد خراسان وطبرستان وجرجان في سنة ٤٩٣هـ، فحاول السلطان السلجوقي بركيارق أن يكسبه إلى جانبه ليكون عونًا له على أخيه السلطان سنجر، فلما أحس سنجر بالخطر وجه أميرين من أمرائه لقتال دادحبشي الذي طلب عون السلطان بركيارق، وجمع جيشًا قوامه على حد قول ابن الأثير: "عشرون

(١) ونصه هو "وصل رسول شهاب الدين الغوري من عند مقدم الإسماعيلية بخراسان برسالة أنكرها فأمر علاء الدين محمد بن علي متولي بلاد الغوربة بالسير إليهم ومحاصرة بلادهم فسار في عساكر كثيرة إلى قهستان إلخ "(ابن الأثير ج ١٢ ص ١٢٤ طبع ليدن).

(٢) تاريخ طبرستان ص ٨٤.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٢٢ - ١٢٣، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٣٨.

ألف فارس فيهم من رجاله الباطنية خمسة آلاف[١]، أما العماد الأصفهانى فيعتبرهم من فرسان الباطنية وليس من رجالتهم، إذ يقول: "ومعه (يعنى دادحبشى) خمسة آلاف فارس من الباطنية أصحاب إسماعيل الكاكى صاحب طبس". ويبدو من الفقرة الأخيرة أن مقتضيات الدفاع عن القلاع التى يسيطر عليها الإسماعيلية قد اضطرتهم إلى أن يوزعوا قوات جيشهم بين هذه القلاع والمناطق، ولكنها على أية حال كانت ـ طبقًا لما أورده المؤرخان المذكوران ـ قوات نظامية تكون جيشًا من رجاله[٢] وفرسان. وإذا كان الإسماعيلية قد تمكنوا من تكوين جيش بهذه الصورة المنظمة فى وقت مبكر، فإننا نلاحظ أن الحسن بن الصباح يوصى قبل موته فى سنة ٥١٨هـ بأن يتولى "كيابا جعفر" صاحب الجيش منصبًا أشبه بالمنصب الوزارى[٣]، مما يدل على مدى ما تمتع به قواد الجيش من حيثية واهتمام، كما نشاهد هذا الجيش بعد زمن طويل يساهم فى الأحداث العامة فى عصر جلال الدين نومسلمان ويتدخل، كما تدخل جيش الخليفة العباسى، لمدد الأتابك مظفر الدين أزبك محمد بن إيلدكز من أتابكة آذربايجان ضد ناصر الدين منكلى، فقد حارب جيش الإسماعيلية على قدم المساواة مع جيش الخليفة العباسى وجيش الأتابك وتمكنوا جميعًا من القضاء على منكلى واقتسام المناطق التى كان يحكمها فيما بينهم. ولقد حدث ذلك فى سنة ٦١١هـ[٤].

والظاهر أن ذلك الجيش الذى كونه الإسماعيلية فى إيران كان شيئًا آخر غير المنظمة الرهيبة التى أقاموها وأطلقوا على أعضائها اسم الفداوية إذ يبدو أن نشاط الجيش كان قائمًا على أساس التدخل أو الدفاع الجماعى المنظم المكشوف، بينما كان نشاط تلك المنطقة قائمًا على أساس فردى باغتيال المناوئين لكل من الدولة والمذهب على حد سواء. وكان أعضاء هذه المنظمة ينتقون منذ نعومة أظافرهم لتعليمهم فنون الاغتيال وسفك الدماء. ونال الفداوية شهرة واسعة منذ اغتيالهم للوزير السلجوقى نظام الملك فى سنة ٤٨٥هـ، فأوقعوا الخلل والتوتر فى نفوس المخالفين لمذهبهم حتى انعدم الأمن،

---

(١) ابن الأثير فى الموضع المشار إليه فى الحاشية السابقة.

(٢) أو بالاصطلاح العصرى "مشاة".

(٣) جهانكشاى ج ٣ ص ٢١٥ وما يقابلها من الترجمة.

(٤) جهانكشاى ج ٣ ص ٣٤٥ وما يقابلها من الترجمة، ويذكر ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤١ ـ ١٤٢ تاريخ هذه الواقعة فى سنة ٦١٢هـ.

ووصل الأمر إلى أن الملوك والسلاطين لم يجدوا فى حفظ أنفسهم من الفداوية حيلة[1]. وكانت سرية الدعوة الإسماعيلية وسريانها فى مختلف الأوساط من الأسباب التى أدت إلى انتشار الفوضى والتوتر فى ذلك الوقت، فلم يكن أحد ليستطيع أن يميز الباطنى عن غيره حتى أنه "ما كان سلطان يلى يثق بخواصه، وسعى ذوو الأغراض فى ذوى اختصاصه[2]". ولقد أصبح اتهام الأبرياء بتهمة اعتناق مذهب الباطنية سببًا قويًا يتذرع به كل من أراد التخلص من مناوئيه أو أعدائه[3]. "ولما عرفوا جد السلطان فى إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض، وأحب وصمه بالإلحاد لسابق عداوة وبغض، ووسمه باسم لم يمحه عنه غير السيف[4]". ويبدو أن الفداوية لم يكونوا يهتمون بنوع العمل الذى يكلفون بالقيام به بقدر ما كان يهمهم الهدف النهائى من تحقيقه. وكان هذا الهدف بالطبع هو إيقاع التوتر والاضطراب فى صفوف أعداء مذهبهم. ولقد عول الفداوية على اصطياد الشخصيات السياسية البارزة فى الدولة السلجوقية بالقتل والاغتيال، فجردوها من قوتها الفعالة وعقولها المدبرة. مما أفضى بها إلى المسارعة إلى نهايتها المؤسفة. مجمل القول أن دولة الإسماعيلية فى إيران قد استطاعت بهذه المنظمة أن تحقق لنفسها لدى غيرها من الدول التى عاصرتها مهابة سياسية بنفس القدر الذى استطاعت به أن توقع الخلل والاضطراب فى نفوس أعدائها.

وأخيرًا فقد عاشت الدولة الإسماعيلية فى إيران فترة زمنية أكبر من الفترة التى عاشتها دولة السلاجقة التى تعد من أعظم الدول التى قامت فى تلك المنطقة[5].

ثانيًا- النظم الاجتماعية:

إذا كانت النظرة السياسية الإسلامية إلى مفهوم "الدولة" تتجه إلى اعتبارها مجتمعًا له ذاتيته المستقلة التى تميزه عن غيره، يعترف بقانون واحد وتسير حياته وفقًا لنظام واحد،

---

(١) انظر العماد الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٣.

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٣.

(٣) ابن الأثير ج١٠: ١٣٤،١٨٣،١٨٥.

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق، ص٦٣.

(٥) أقام السلاجقة دولتهم الرئيسية فى إيران سنة ٤٢٩هـ، وتم القضاء عليها نهائيا بعد أن تضعضعت قوتها بالتدريج وتوزعت بين أعدائها فى سنة ٥٩٠هـ (سلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص ١٣٨ -١٣٩)، أى أنها عاشت فى كل من إيران والعراق حوالى مائة وستين عاماً. بينما عاشت دولة الإسماعيلية فى إيران مائة وواحد وسبعين عاماً منذ سنة ٤٨٣هـ بعد استيلاء ابن الصباح على الموت حتى سنة ٦٥٤هـ حينما قضى عليها هولاكو.

ويهدف إلى غايات مشتركة وتقوم بين أفراده وشائج قوية من الجنس واللغة والدين، والشعور العام بالتضامن[1]، فإننا يمكن أن نطبق هذا المفهوم على التنظيم السياسي الذى أقامه الإسماعيلية فى إيران، إذا استطاع الإسماعيلية أن يكونوا فى بلادهم مجتمعًا إسماعيليًا خالصًا يدين أفراده بالمذهب الإسماعيلى، ويعملون من أجل الدفاع عن مذهبهم ونشره على أوسع نطاق. ذلك أنه لما اشتد حصار السلطان محمد السلجوقى على الإسماعيلية المقيمين بقلعة شاهدز بأصفهان سنة ٥٠٠هـ طلب جزء منهم أن يخلى السلطان سبيلهم للذهاب إلى ابن الصباح فى الموت، أما الجزء الذى بقى منهم بالقلعة فقد أبادتهم عن آخرهم جيوش السلطان[2].

ويمكن القول بأن انتقال هذا الجزء من إسماعيلية أصفهان إلى المنطقة التى سيطر عليها ابن الصباح جنوبى بحر قزوين قد ساعد على تكوين مجتمع إسماعيلى خالص فى هذه المنطقة فلم يكن يعيش فيها غير من يعتنق مذهب الإسماعيلية[3].

والملاحظ أن هناك أوجهًا للشبه بين المجتمع الإسماعيلى الخالص الذى عاش فى دولة الإسماعيلية فى إيران واعتنق كل أفراده المذهب الإسماعيلى وبين "دار الهجرة" التى أقامها القرامطة منذ بدء قيام الحركة الإسماعيلية فى القرن الثالث الهجرى. فلقد كان القرامطة يعيشون فى مناطق قاصرة عليهم دون غيرهم. كما كانوا يطبقون سياسة الاكتفاء الذاتى فى المعيشة فى المناطق التى يقيمون بها[4]. ولم يكن هذا هو وجه الشبه الوحيد بين دولة الإسماعيلية فى إيران وبين القرامطة، بل كان الإسماعيلية فى إيران كالقرامطة فى مقتهم للحج وقتلهم للحجيج[5] وكان بعض رؤساء القرامطة يجمع الصبيان فى دور ويجرى عليهم ما يحتاجون إليه وينصب لهم عرفاء يعلمونهم ركوب

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية للدكتور ضياء الدين الريس، ص١٦.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٢.

(٣) جهانكشاى ج ٣ ص ٢٣٩ وما يقابلها من الترجمة.

(٤) اتعاظ الحنفا، طبع مصر ص ٢١١ – ٢١٢.

(٥) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦٤، ج ١١ ص ١٠١، ولقد استرعت هذه الظاهرة انتباه المستشرق الفرنسى سيديو فى كتابه "تاريخ العرب العام" ص ٢٦٥.

الخيل والطعان "فينشأون لا يعرفون غير الحرب[1]". مما يوحى بوجود شبه بين هؤلاء وبين الفداوية الذين كانوا ينشأون تنشئة خاصة.

ولقد رأينا فيما سبق أن الدولة الإسماعيلية فى إيران فى طورها المبكر كانت تدعو إلى نفس العقائد التى كان يعتنقها القرامطة عندما كانوا يتزعمون النزعة الغالية فى الحركة الإسماعيلية، تلك النزعة التى تعد فى الواقع التعبير الحقيقى عن روح المذهب الإسماعيلى. ولكن هذه العقائد وإن كانت قد اتجهت بفضل الفاطميين اتجاهًا محافظًا إلا أنها سرعان ما عادت بعد فترة ضئيلة إلى الغلو والتطرف بمجرد قيام الدولة. حقيقة أننا لم نستطع أن نثبت – بما لدينا من مصادر – أن الدعوة الإسماعيلية فى إيران فى ذلك الطور المبكر كانت تخضع لتوجيه مركزى من جانب القرامطة فى البحرين، ولكن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود كما يقولون، وربما كانت هناك علاقات قائمة بين القرامطة وإسماعيلية إيران فى طور الدعوة المبكر[2]، بحيث أثرت تلك العلاقات على سير الدعوة هناك على هذا النحو الذى جعل المجتمع الذى أقامه القرامطة مثلا تحتذى دولة الإسماعيلية فى إيران ببعض جوانبه كلها فى تكوين مجتمعها.

ثالثًا- العقائد المذهبية:

لاحظنا فيما سبق كيف ظلت الدعوة الإسماعيلية فى إيران فى طورها الأول محافظة على التقاليد الثورية للعقائد الإسماعيلية، ثم كيف تحولت فتبعت التغيير الذى أحدثه الفاطميون للتخفيف من غلو هذه العقائد.

غير أنه يبدو أن هذا التحول كان عارضًا لم يؤثر فى التطور التاريخى للدعوة تأثير الدور الأول، فسرعان ما عاد الإسماعيلية فى إيران إلى نزعة الغلو والتطرف، تلك النزعة التى استؤنفت فور قيام دولتهم، واستمرت سمة من سمات تلك الدولة حتى قضى عليها هولاكو فى سنة ٦٥٤هـ.

ولقد مهدت الأحداث السياسية التى وقعت فى موطن أئمة الإسماعيلية فى مصر بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧هـ لعودة الإسماعيلية فى إيران إلى نزعة الغلو والتطرف. فلقد أصيبت وحدة الحركة الإسماعيلية بعد موت المستنصر بالتصدع والانشقاق. وكان

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ٢١٦.

(٢) انظر فيما سبق ص ٨٥.

المستنصر قد أوصى قبل موته بتولى ابنه الأكبر نزار، ولكن ابنه الآخر المستعلى نازع نزارًا على العرش وقاتله وهزمه وتربع مكانه. فتبع الإسماعيلية فى إيران نزارًا، بينما تبع الإسماعيلية فى مصر المستعلى. ولم تلبث العلاقات بين الإسماعيلية فى كل من إيران ومصر أن قطعت كلية، ودب النزاع المذهبى والسياسى بينهما[1].

والواقع أن هذا الانفصام المبكر عن المركز الرئيسى للتشريع المذهبى فى القاهرة قد جعل الإسماعيلية فى إيران يعتمدون على أنفسهم اعتمادًا كبيرًا فى هذا المجال، فمنذ أن ظفروا بالاستقلال المذهبى عن الخلفاء الفاطميين فى مصر وهم يعملون على تطوير العقائد الإسماعيلية التى كانت منذ استيلاء الفاطميين على مصر قد تركت الغلو جانبًا ونحت نحو التحفظ، فاتجه تطويرهم لهذه العقائد منذ الوهلة الأولى إلى الغلو، حقيقةً أن هذا التطور المذهبى فى دولة الإسماعيلية فى إيران قد بدأ متحفظًا نسبيًا فى "الدعوة الجديدة[2]" التى أحدثها الحسن بن الصباح، والتى اعتمدت أساسًا على "التعليمية"، وهى النظرية التى نشاهد جذورها لدى أبى حاتم الرازى الداعى والفيلسوف الإسماعيلى المبكر[3]. ولكن هذا التطور المذهبى فى دولة الإسماعيلية فى إيران وصل أشده فى عهد الحسن بن بزرك أميد بدعوة القيامة[4] التى أدت إلى تحليلهم لكافة المحارم[5] ونبذهم لكل الأصول الشرعية والعقائد الدينية.

---

(١) أصبحت مصر هى الأخرى، من جراء هذا النزاع، منطقة من المناطق التى يمارس فيها الفداوية نشاطهم وكانت حياة خلفائها ووزرائها وحكامها فى المدة الباقية من العصر الفاطمى بعد موت المستنصر مهددة على الدوام بخطرهم، انظر ابن ميسر فى مواضع متفرقة ، مثلاً ص ٥٧، ٦٣، ٦٥، ٦٦.

(٢) يرد اصطلاح الدعوة الجديدة فى كتابات معظم المؤرخين ومؤلفى الملل والنحل من أهل السنة، فقد ورد فى جهانكشاى وجامع التواريخ والملل والنحل للشهرستانى وغيرها إلا أنه لا يظهر على الإطلاق فى كتابات الإسماعيلية أنفسهم، اللهم إلا الإسماعيلية المستعلية حيث تطلق عليها مصادرهم اسم "البدعة". انظر مقدمة إيفانوف الإنجليزية لكتاب "كلام بير".

(٣) انظر رسائل فلسفية لأبى بكر الرازى الفصل الخاص بالمناظرات بين الرازيين ص ١٩٥، ٢١٣ وبوجه أخص ص٢٩٧ حيث يقول أبو حاتم الرازى: "ولا نرى أحداً يدرك شيئاً من الأمور بفطنته وكيسه وعقله إلا بمعلم يرشده إلخ".

(٤) انظر جهانكشاى ج٣ ص ٢٢٦ وما يقابلها من الترجمة.

(٥) تبصرة العوام ص ١٨١، ١٨٢ نقلاً عن كتاب تاريخ ادبيات در إيران ص ١٧٩ للدكتور ذبيح الله صفا.

ولقد نشرت فى الأونة الأخيرة بعض الكتب الإسماعيلية التى تتناول بالشرح والتوضيح العقائد المذهبية للدولة الإسماعيلية فى إيران، وكان الفضل فى نشر هذه الكتب للمستشرق الروسى "إيفانوف". ويجدر بنا أن نعرض هنا لبعض ما ورد بهذه الكتب لنتبين إلى أى مدى ذهب هؤلاء الإسماعيلية فى عقائدهم مستعينين فى عرضنا السريع هذا بكتاب "كلام بير[١]"، وهفت باب بابا سيدنا[٢]، ومطلوب المؤمنين[٣]، وفصل دربيان شناخت امام[٤]، وكلها كتب إسماعيلية.

تأول الإسماعيلية فى إيران فى تلك الفترة أركان الشريعة وفرائضها على نحو أبطلها تمامًا، فقد أصبحت الشهادة فى تأويلهم هى معرفة الله عن طريق الإمام، أما الطهارة فهى أن يتجاوز المرء عن قواعد السنة ويعتبر كل ما يقوله الإمام حقًا، وأما الصلاة فهى ألا يغفل المرء قط عن طاعة الله ورسوله وخليفته (أى الإمام)، وأما الصوم فهو أن ينذر أعضاء جسده فى الظاهر والباطن لأمر الله، والزكاة هى أن يعطى المرء كل ما وهبه الله له من مال لبيت المال أو يهبه - بأمر الإمام - لأخ مؤمن فيرد للفقراء والمساكين حقهم، وأما الجهاد فهو جهاد النفس والقضاء على هواها، وأما الحج فهو أن تحفظ يدك عن الدنيا الفانية وتطلب الدار الباقية[٥]. كما أولوا الطهارة على أنها التطهر من فعل أهل الظاهر، والوضوء هو الرجوع إلى علم الإمام لأن الماء هو الحقيقة[٦]. إلى غير ذلك من التأويلات التى دلت على شىء فإنما تدل على أن الإمام ظل هو المحور الأصلى للعقائد الإسماعيلية، وإن كان الإسماعيلية فى إيران فى تلك الفترة قد ارتفعوا

---

(١) كان هذا الكتاب منسوباً إلى ناصر خسرو، ولكن إيفانوف أثبت أنه من تأليف مؤلف مجهول كان يعيش فى أوائل العصر الصفوى وقد اقتبست مشتملات هذا الكتاب من كتب إسماعيلية قديمة.

(٢) يشتمل هذا الكتاب على بعض أقوال الحسن بن الصباح، ومؤلفه مجهول، ويقول إنه ألفه بعد وفاة الحسن بن الصباح (٥١٨هـ) بثمانين عاماً، أى فى أواخر القرن السادس الهجرى.

(٣) من تصنيفات نصير الدين الطوسى المؤرخ والرياضى وعالم الفلك المشهور، والذى كان يعمل وزيراً لركن الدين خورشاه آخر ملوك الإسماعيلية.

(٤) كتاب مجهول المؤلف، ألف حوالى نهاية القرن العاشر الهجرى.

(٥) مطلوب المؤمنين ص ٥٢ - ٥٤.

(٦) كلام بير ص ٩٤ - ٩٥ والملاحظ أن تأويل معنى الصلاة والصيام والزكاة والحج فى كلام بير يختلف عن تأويل معانى هذه الأركان فى كتاب "مطلوب المؤمنين" وهوالتأويل الذى ذكرناه فى المتن.

به ووضعوه فى منزلة البشر[١]، فجعلوه فى وضوح وجلاء هو الواسطة بين الله والبشر، كما وضعوا كافة أركان الدين وشرائعه فى قبضته[٢]، وجعلوه لازمة من لوازم الوجود. على أنهم ظلوا محافظين على العقيدة الفاطمية فى شأن الإمام المستودع والإمام المستقر[٣].

ولقد ذهب بهم التأويل إلى القول بأن عيسى ابن الله، ويقولون إن المسيح سيعود إلى الظهور فى القيامة ليظهر أمر أبيه، كما يقولون إن المسيح قد أحيا رجلا ميتًا فى دور الشريعة فإذا ما جاء دور القيامة فإنه يحيى الخلق جميعًا فيتم حكم القيامة ويصبح مساعدًا لأبيه[٤].

وبالغوا أيضًا فى شأن على بن أبى طالب، فقالوا إنه هو الذى رفع السماء وبسط الأرض وهو قاسم النار والجنة، ولا مبدأ له ولا معاد، ولا هو بذى بداية ولا نهاية فهو حى قائم على الدوام[٥].

ويمكن القول بأن هذا التطور العقدى تنطوى بعض ملامحه على نزعة فارسية قومية، فلقد ارتفعوا بمنزلة سلمان الفارسى وجعلوه: "بابًا من أبواب الجنة[٦]" و"روح الجنة[٧]". أما الترك – ولقد كان السلاجقة من الترك – فللإسماعيلية فى إيران رأى فيهم، يدلى به الحسن بن الصباح بنفسه، وينقله عنه صاحب كتاب "هفت باب بابا سيدنا" وهو أن "هؤلاء الأتراك ليسوا من بنى الإنسان، ويطلق على بعضهم اسم "الجن"، ويقال إن الجن أى الأتراك، كانوا يملكون الدنيا قبل آدم[٨]". فهم عند الإسماعيلية إذن ليسوا من بنى البشر ومن عنصر آخر شرير. ومن المعروف أن روح

---

(١) كلام بير ص ٢٧.

(٢) مطلوب المؤمنين ص ٥٠.

(٣) ينسبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: لو خلت الأرض من إمام ساعة لمادت بأهلها (كلام بير ص٢٢).

(٤) هفت باب بابا سيدنا ص ١٢.

(٥) أيضاً، ص ١٤ – ١٦.

(٦) أيضاً ص ٣٠.

(٧) كلام بير ص ٩٢، وقد تطورت عقيدة الإسماعيلية فى إيران بشأن سلمان فأصبح عندهم كما يقول المؤلف المجهول لكتاب "فصل دربيان شناخت امام" ص ١٢: "هو المعلم، ومرتبته أعلى من مرتبة الرسول".

(٨) هفت باب بابا سيدنا ص ٣٠.

العداء للعنصر التركى تعد من الملامح الأساسية فى تكوين الشخصية الفارسية، وهو عداء تمتد جذوره إلى الأغوار السحيقة فى التاريخ، بل تمتد هذه الجذور إلى عصر الأساطير[1]، مما يرجح أن هذه العقيدة ذات الصبغة السياسية تنتمى هى الأخرى إلى النزعة القومية الفارسية.

ويبدو أن الضعف السياسى الذى منى به الفاطميون - الذين كانوا يتبنون نزعة الاعتدال فى العقائد الإسماعيلية - بعد عصر المستنصر، كان من العوامل التى منحت الإسماعيلية فى إيران هذه الانطلاقة غير المحدودة للعودة إلى نزعة التطرف، بل المغالاة فيها. على أنه بعد القضاء على الفاطميين فى مصر فى سنة ٥٦٦هـ كان إسماعيلية إيران هم الذين يشار إليهم بالبنان فى تزعم الحركة الإسماعيلية فى كافة الأقطار الإسلامية.

* * *

وهكذا يمكن القول بأن الإسماعيلية فى إيران أقاموا نظامًا سياسيًّا توافرت له المقومات التى ينبغى أن تتوافر للدولة، وتمكنوا بقيام هذه الدولة من أن يحققوا وحدة الحركة الإسماعيلية فى إيران كما كونوا فى هذه الدولة مجتمعًا إسماعيليًّا خالصًا، له ذاتيته المستقلة.

ولقد كانت دولة الإسماعيلية فى إيران تعامل الدول المعاصرة لها بمثل ما تعامل به الدول بعضها ببعضًا، بالمسالمة حينًا، وبالمهادنة حينًا، وبالمعاداة والتنافر أحيانًا، ولكنها كانت فى كل وقت تتمتع بالاستقلال فى تحديد نوع علاقاتها بالآخرين، وبمنعة أراضيها، وبمقدرتها على صد العدوان. والثابت أن هذه الدولة كانت ذات تأثير سياسى واجتماعى كبير خارج نطاق حدودها. مما جعل السلاطين والحكام المعاصرين لها يحرصون على مهاجمتها؛ رغبة فى القضاء عليها والتخلص من تأثيراتها، فهاجمها

(١) من المستطاع التأكد من صحة هذا القول إذا راجعنا "الشاهنامه" للفردوسى الطوسى.

معظم سلاطين دول: السلاجقة والخوارزميين[1] وملوك طبرستان ومازندران[2]، كما أراد صلاح الدين الأيوبى القضاء عليها[3]، فصمدت لهؤلاء جميعًا وساهمت بنصيب كبير فى التأثير على الأحوال السياسية والاجتماعية وتوجيهها على النحو الذى أدى بها إلى التدهور الكامل والتفكك الذى انحدر إليه العالم الإسلامى مما مهد لحدوث النكبة الكبرى باجتياح المغول لإيران والعراق والشام وقضائهم على كل أثر من آثار الحضارة فيها.

***

(١) جهانكشاى ج ٢ ص ٤٣،٤٥،٤٩،٢١٦، وابن الأثير ج١٢ ص ١٠٠ - ١٠١ ص ١٠٤، ١٠٦ طبع ليدن ، ونهاية الأرب النسخة المصورة بدار الكتب المصرية ج٢٥، ورقة ١٧٣.

(٢) انظر تاريخ طبرستان لسيد ظهير الدين ص ٥٧ - ٥٩ وابن الأثير ج ١٠ ص ١٠١ طبع مصر.

(٣) راحة الصدور ص ٣٣٧ - ٤٧٠ من الترجمة العربية.

خاتمة البحث

تعرضنا فى مجالات هذا البحث إلى تاريخ الدعوة الإسماعيلية فى إيران، وشاهدنا كيف انتهى الأمر بهذه الدعوة إلى إحراز كسب سياسى ضخم بإقامة دولة قوية مرهوبة الجانب، كان قيام تلك الدولة يعد النتيجة المنطقية للجهود الفائقة التى بذلها دعاة الإسماعيلية فى تلك المنطقة طيلة قرنين من الزمان.

ولقد لعبت هذه الدولة دورًا كبيرًا فى أحداث عصرها، فلقد انعكس تطرفها العقدى فى معظم الأحيان على علاقاتها السياسية، وجعلها مسئولة إلى حد كبير - لما أثارته من قلائل وتوتر - عن الوضع المفكك الذى آل إليه المشرق الإسلامى، فانفتح على مصراعيه أمام جحافل المغول البربرية تجتاح - كالسيل الجارف - كل أثر من آثار الحضارة فى كل من إيران والعراق والشام. ولقد وقعت هذه الدولة نفسها فريسة للغزو المغولى. وإذا كان قد ظهر من بين الإسماعيلية فى إيران، قبل قيام دولتهم بها، عدد لا بأس به من الفلاسفة والمفكرين الذين حاولوا العثور على قواعد فلسفية لأصول مذهبهم، كأبى حاتم الرازى وأبى يعقوب السجستانى وناصر خسرو والمؤيد، فإن دولة الإسماعيلية فى إيران قد أنجبت عددًا من الشخصيات السياسية الفذة التى دأبت على تطوير العقائد المذهبية بما يتلاءم مع الأوضاع والأخطار المحيقة بهم، ووضع هذه العقائد موضع التطبيق، فتمكنت من تكوين مجتمع ذى طابع فريد أشبه ما يكون بالمجتمع الذى كونه القرامطة فى البحرين.

ولقد أقام الحسن بن الصباح صرح تلك الدولة ومنحها طبيعتها المميزة لها، كما قطع الحسن بن محمد بن بزرك أميد بعقائدها شوطًا لم تبلغه فرقة من الفرق الإسلامية الغالية، بينما عاد جلال الدين نومسلمان بهذه العقائد المتطرفة إلى الاعتدال، فتمكن من دعم علاقاته السياسية بمن حوله. ولقد استطاع حكام هذه الدولة الحفاظ على استقلالها السياسى والمذهبى طيلة حياتها، وكانت من القوة والبطش بحيث تؤثر فى من حولها ولا تتأثر بهم إلا حين يجردون عليها حملات انتقامية. كما كانت من القدرة والمنعة بحيث تستطيع أن تحدد نوع علاقاتها بغيرها.

وإذا كان المؤرخان الكبيران عطا ملك الجويني في كتابه جهانكشاى ورشيد الدين فضل الله في كتابه "جامع التواريخ" يحاولان أن يجعلا من المغول حماة للإسلام وحفظة للدين القويم بقضائهم على الإسماعيلية في إيران، فإن واقع الأمر لا يفصح عن ذلك؛ إذ يكفي ما ارتكبه المغول في حملتهم على بلاد الإسلام من جرائم وفظائع تجل عن الوصف للدلالة على القول بعكس ما قال به المؤرخان المذكوران. ويبدو أن المغول ما كانوا يستطيعون اجتياز إيران إلى العراق للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد دون أن يؤمنوا ظهورهم، ولم يكن يتسنى لهم ذلك دون القضاء على دولة الإسماعيلية في إيران. ولكن القضاء على تلك الدولة لم يكن سهلا ميسورًا حتى بالنسبة للمغول الجبابرة، فقد كلفهم ذلك الكثير من أرواح جنودهم، وخسروا أمام الإسماعيلية عددًا من المعارك، كما اضطروا - تجاه المقاومة الإسماعيلية - إلى التأخر عن تحقيق هدفهم الرئيسي بالقضاء على الخلافة العباسية ما يقرب من سنتين، كان من الممكن للعالم الإسلامي في خلالهما أن يجمع شتات نفسه، ويتماسك ليتمكن من الوقوف في وجه العاصفة المغولية العاتية دفاعًا عن بغداد.

* * *

القسم الثانى

دولة الإسماعيلية فى إيران

كما جاءت فى كتاب (تاريخ جهانكشاى)

للمؤرخ الكبير عطا ملك الجوينى

تقديم

عطا ملك الجوينى

حياته، وكتابه (تاريخ جهانكشاى)

يحسن بنا أن نقدم لترجمة النص الفارسى الذى أورده الجوينى فى كتابه عن "دولة الإسماعيلية فى إيران" بكلمة عن حياة هذا المؤرخ الكبير وأعماله.

ولا أحسب أننا بحاجة ملحة إلى التعريف فى إسهاب بعلاء الدين عطا ملك الجوينى، فقد وفّاه العلامة الإيرانى الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى حقه من الدراسة والبحث فى مقدمته القيمة لكتاب "تاريخ جهانكشاى[1]"، حيث تناول أسرته وحياته ومؤلفاته بالدراسة فى دقة وتتبع وإتقان، الأمر الذى جعل من هذه المقدمة مرجعاً أصيلا وافيًا لكل من أراد أن يتعرف بالتفصيل على شخصية عطا ملك الجوينى. لذلك سنتناول هذه الشخصية فى هذه المناسبة فى أضيق الرسوم، معتمدين فى المقام الأول على ما أورده القزوينى فى مقدمته، مبتدئين بترجمة حياة المصنف، ثم شرح لكتابه جهانكشاى، ثم عرض لما ورد عن الإسماعيلية فى ذلك الكتاب[2]

* * *

---

(١) لم يكن القزوينى هو أول من كتب عن عطا ملك، بل سبقه إلى هذا المضمار اثنان من المستشرقين الفرنسيين، أولهما كاترمر الذى كتب مقالا عن الجوينى فى كتاب "الكنوز المشرقة" المنشور فى سنة ١٨٠٩م، وثانيهما شفر الذى نقل مقال كاترمر مع إجراء بعض التعديلات والإضافات فى كتابه "مختارات فارسية" المنشور فى سنة ١٨٨٥م. وقد نشر الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى مقدمته عن المصنف وأسرته ومؤلفاته فى أوائل الجزء الأول من "تاريخ جهانكشاى" الذى صدر فى سنة ١٩١٢م.

(٢) وينبغى أن نشير إلى مقال نشر باللغة العربية فى الفترة الأخيرة تناول شخصية عطا ملك وكتابه جهانكشاى، ألفه أستاذى الدكتور أحمد محمود الساداتى بعنوان "تاريخ جهانكشاى" فى العدد الثانى من المجلد الرابع من مجلة تراث الإنسانية الصادر فى ٥ فبراير سنة ١٩٦٦(ص ١١٨ - ١٣٢).

ينحدر علاء الدين عطا ملك الجويني من أسرة عريقة كان لها شأن كبير في دولة السلاجقة وملوك خوارزم والمغول. وقد عرفت هذه الأسرة في التاريخ بأسره صاحب الديوان.

ويشير الذهبي – نقلا عن ابن الفوطي – إلى أن نسب هذه الأسرة يصل إلى الفضل ابن الربيع حاجب خلفاء بني العباس[1]. فالذهبي يذكر نسب علاء الدين على النحو التالي: هو الصدر المعظم صاحب الديوان علاء الدين أبو المظفر عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن شمس الدين[2] محمد بن بهاء الدين[3] محمد بن علي بن محمد بن محمد ابن محمد بن علي بن علي بن محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن أيوب بن الفضل بن الربيع[4].

ويتبين لنا مما كتبه المصنف في كتابه جهانكشاى أن جد والده المسمى بهاء الدين محمد بن علي قام على خدمة السلطان تكش بن ايل أرسلان بن اتسز خوارزمشاه في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة عندما كان يتحرك بجيوشه متجهًا صوب الري لمحاربة السلطان طغرل، آخر سلاطين السلاجقة[5]. كذلك يذكر علاء الدين أن خال بهاء الدين المذكور هو منتجب الدين بديع الكاتب الجويني[6] من مشاهير كتاب عصره، ومن أصحاب التصانيف الرفيعة في فن الإنشاء والترسل[7]. وكان من أقرب الكتاب إلى السلطان سنجر السلجوقي وأشدهم تأثيرا عليه، ولقد استطاع أن يجعل السلطان يغفر للشاعر المعروف رشيد الدين الوطواط فعلته المشهورة بإقدامه على هجاء سنجر

---

(١) تاريخ الإسلام، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢ تاريخ، ج ٢٣ ورقة ٧.

(٢) لم يذكر الذهبي هذا اللقب، بل ذكره المصنف نفسه في الجزء الأول من جهانكشاى ص ١٣٤.

(٣) لم يذكر الذهبي هذا اللقب أيضا، بل ذكره المصنف في الجزء الثاني من جهانكشاى ص ٢٨.

(٤) ولقد اغتنم ابن الطقطقي صاحب كتاب "الفخري في الآداب السلطانية" بسبب العداء الذي كان يكنه لعلاء الدين، فرصة الترجمة للربيع الحاجب في كتابه وقدح قدحا شديدا في نسب الربيع، وذكر أنه مشكوك ومطعون فيه لدى علماء التاريخ، وأبدى دهشته من انتساب علاء الدين إلى رجل مثل الفضل بن الربيع. (انظر الفخري في الآداب السلطانية ص ١٢٩ - ١٣٠ طبع المطبعة الرحمانية بمصر).

(٥) جهانكشاى ج ٢ ص ٢٨.

(٦) في ترجمة حياة منتجب الدين هذا. انظر لباب الألباب لمحمد عوفي ج ١ ص ٧٨ - ٨٠ طبع ليدن.

(٧) مثل رقية القلم، وعتبة الكتبة الذي طبع في طهران سنة ١٣٦٩هـ بتصحيح الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزويني والأستاذ عباس إقبال عن النسخة الخطية الوحيدة الموجودة بدار الكتب المصرية.

الذى كان مصممًا على سفك دمه وتقطيعه إربًا فكان لمنتجب الدين الفضل فى إنقاذ الشاعر من هذا المصير البشع[1].

كان جد المصنف شمس الدين محمد بن محمد بن على من ملازمى السلطان محمد خوارزمشاه، كما كان يعمل مستوفيًا لديوانه[2]. وظل محتفظًا بهذا المنصب فى عهد ابنه السلطان جلال الدين المنكبرتى[3]. أما أبو المصنف، بهاء الدين محمد بن محمد صاحب الديوان فكان يعيش فى ملازمة حكام المغول ونوابهم الذين عينوا لحكم البلاد فى الفترة الواقعة ما بين فتوحات جنكيز خان حتى قدوم هولاكو إلى إيران، وهى فترة تبلغ نحو خمسة وثلاثين عاما. ولقد عهد جنتمور (الذى كان يحكم خراسان ومازندران من قبل الإمبراطور المغولى أوكتاى قاآن) إلى بهاء الدين بوظيفة صاحب ديوان هذين الإقليمين[4] فى حدود سنة ٦٣٠هـ. وبعد حوالى سنتين فى حدود سنة ٦٣٣هـ أرسل جنتمور كلا من بهاء الدين وكركوز[5] برسالة إلى أوكتاى قاآن الذى أحسن لقاءهما وأنعم على بهاء الدين بوظيفة صاحب ديوان الممالك[6].

وكان بهاء الدين يتولى حكم البلاد الغربية التى تقع تحت إمرة حكام المغول كنائب عنهم فى أثناء سفرهم إلى العاصمة المغولية[7]. وصحب الأمير أرغون، الحاكم المغولى للبلاد الغربية من إيران، إلى بلاط الإمبراطور كيوك خان فى حدود سنة ٦٤٤هـ أو ٦٤٥هـ[8].

---

(١) انظر تفصيل هذه الحادثة فى جهانكشاى ج ٢ ص ٦ - ١٠، وأيضًا فى المقدمات الضافية التى كتبها الأستاذ عباس إقبال لكتاب "حدائق السحر فى حقائق الشعر" لرشيد الدين الوطواط. وقد قام المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربى بنقل الكتاب إلى اللغة العربية مع تعريب مقدماته وتوضيح حواشيه، ونشره فى مصر بنفس العنوان سنة ١٩٤٥م (انظر ص ٨ - ١٠ من الترجمة العربية).

(٢) حبيب السير، أوائل الجزء الثالث فى ترجمة حياة شمس الدين محمد الجوينى أخى المصنف.

(٣) أيضًا.

(٤) وظيفة صاحب الديوان تعادل فى عصرنا الحاضر وزارة المالية أو الخزانة.

(٥) كان كركوز تركيا من أصل الأويغور، وكان من ملازمى جنتمور المذكور وتولى بعده حكم خراسان ومازندران وسائر الولايات الغربية. (جهانكشاى ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٦) جهانكشاى ج ٢ ص ٢١٧ - ٢٢٤.

(٧) أيضًا ج ٢ ص ٢٣١ و٢٤٥ و٢٤٨.

(٨) مقدمة القزوينى لجهانكشاى ج ١ ص ك.

وفى سنة ٦٥١هـ[١] عين أرغون بهاء الدين مع رجل آخر من المغول يسمى نايمتاى حاكمين على العراق العجمى ويزد[٢]. وكان بهاء الدين عندئذ قد بلغ الستين من عمره، وعزم على أن يعتزل أعباء الوظائف الديوانية بقية عمره[٣]. غير أنه اضطر تحت ضغط أمراء المغول وإلحاحهم إلى التوجه لحكم العراق، ولكنه لم يكد يصل إلى أصفهان حتى وافته المنية، وكان ذلك فى سنة ٦٥١[٤].

* * *

ولد علاء الدين عطا ملك الجوينى فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة[٥]. وقد اشتغل، كما يقول فى مقدمة كتابه – منذ أوائل شبابه قبل أن يناهز العشرين – بأعمال التحرير والديوان، وانخرط فى سلك الكتبة المخصوصين للأمير أرغون. وقد بقى الأمير أرغون هذا حاكما عاما من قبل سلاطين المغول على كافة الولايات الواقعة غربى جيحون، وهى ولايات خراسان، ومازندان، وجزء من بلاد الهند، والعراق وفارس وكرمان، واللور واران وبلاد الكرج، والموصل وحلب[٦]– ما يقرب من خمسة عشر عاما منذ حوالى سنة ٦٥٤هـ[٧] وهى السنة التى قدم فيها هولاكو إلى إيران[٨].

---

(١) جهانكشاى ج ٢ ص ٢٥٦.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) أيضا، ص ٢٥٧.

(٤) أيضا ص ٢٥٨.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبى، نسخة دار الكتب المصرية ورقة ٧. انظر أيضا ابن الفوطى فى الحوادث الجامعة (ص٤٢٣): "وكان مولده (يعنى علاء الدين عطا ملك) فى عاشر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وستمائة". بينما يذكر ابن الفوطى نفسه فى تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب (القسم الثانى من الجزء الرابع ص ١٠٣٦) أن علاء الدين "ولد سنة اثنتين وعشرين وستمائة". ويبدو أن التاريخ الأخير سهو من الناسخ أو من المؤلف نفسه، أو لعل تدخل محقق ذلك الكتاب، أعنى كتاب تلخيص معجم الآداب، فى هذه الفقرة بالذات هو السبب فى هذا الخطأ.

(٦) جهانكشاى ج ٢ ص ٢٤٣ ص ٧٤.

(٧) أيضا ج٢ ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

(٨) "تقلد الأمير أرغون آقا أمور المملكة وفقا للقاعدة إلى وقت وصول هولاكو خان" (جامع التواريخ طبع بلوشة ص٣٤٢).

وفي خلال هذه المدة سافر أرغون خمس مرات أو ستا إلى بلاط سلاطين المغول (الذى كان يقع فى أغلب الأحيان فى قراقورم عاصمة منغوليا) وكان فى معظم هذه الأسفار يصطحب معه كاتبه الخاص علاء الدين صاحب الترجمة. وقد عاش المصنف ما يقرب من عشر سنوات ما بين سفر وانتقال وحل وترحال كما يقول هو نفسه فى مقدمة كتابه (ج ١ ص ٧): "ويليق بأصحاب الفضل والأفضال أن يعفوا ويتجاوزوا، بفيض كرمهم، عما يعترى ألفاظى من ركاكة وقصور؛ حيث إنى قضيت عشرة أعوام عانيت فيها من الغربة فابتعدت عن التحصيل، فنسج العنكبوت خيوطه على أوراق العلوم التى لدى ...إلخ". ويبدو أن المصنف التحق بخدمة الأمير أرغون وهو فى السابعة عشرة من عمره، فباشر الأعمال وثابر الأسفار[١].

والظاهر أن علاء الدين سافر إلى بلاد المغول لأول مرة فى حدود سنة ٦٤٤هـ أو سنة ٦٤٥ فى صحبة الأمير أرغون، كما سافر فى صحبته أيضا سنة ٦٤٧هـ[٢] ومكث فى البلاط المغولى مدة طويلة عاد بعدها إلى إيران سنة ٦٤٩هـ، لكنه لم يلبث أن سافر مرة أخرى فى نفس السنة(٦٤٩هـ) فى صحبة هذا الأمير الذى توجه إلى قراقورم لحضور الجمعية العامة للمغول (قوريلتاى) [٣] التى عقدت بمناسبة جلوس منكوقا آن، وفى هذه المرة وصل أرغون ومرافقوه إلى قراقورم من صفر سنة ٦٥٠هـ [٤]، وخرجوا منها فى رجب سنة ٦٥١هـ [٥].

وطبقا لذلك، فقد توقف المصنف فى سفره هذه المرة ما يقرب من سنة وخمسة أشهر فى بلاط منكوقا آن فى قراقورم. وكما يقول فى مقدمة كتابه أنه خلال مدة توقفه فى بلاط هذا السلطان: " أشار جماعة من أصدقاء الوفاء وإخوان الصفا إلى أنه طالما قد انقلبت مشاق السفر إلى ببسطة العيش فى الحضر فى ظل حضرة السلطان، فإنه ينبغى

---

(١) مقدمة القزوينى لجهانكشاى ج ١ ص ك ج.

(٢) جهانكشاى ج ٢ ص ٢٤٩.

(٣) قوريلتاى: كلمة مغولية. والقوريلتاى هو اجتماع حافل يضم كافة الأمراء وأركان المملكة الذين كانوا يجتمعون عند تولى احد أعضاء الأسرة المالكة الملك.

(٤) جهانكشاى ج ٣ ص ٧٤، وكان ذلك بقول رشيد الدين فى جامع التواريخ (طبع بلوشة ص ٣٤٠) فى غرة المحرم سنة ٦٥٠هـ.

(٥) جهانكشاى ج ٢ ص ٢٥٦، وجامع التواريخ طبع بلوشة ص ٣٤١.

لتخليد المآثر المنتخبة، وتأييد المفاخر الحميدة لسلطان الزمان أن يؤلف[1] كتابا في التاريخ ويعد مجموعة لتدوين آثاره وأخباره تنسخ آيات القياصرة وتمحو روايات الأكاسرة" [2]. ولما كان المصنف يشاهد ما صار إليه سوق الأدب والعلم من كساد في ذلك العهد، فضلا عن أنه لم يكن يأنس في نفسه القدرة على النهوض بأعباء هذا العمل الخطير، فقد رفض دعوة أصدقائه. غير أنه لاحظ من ناحية أخرى أنه لم يتوافر لأحد غيره ما توافر له من إمكانات تؤهله للاضطلاع بهذا العمل، وذلك لأمرين:

١ ـ أنه كان طيلة عشر سنوات[3] دائم التنقل والحركة في كافة ممالك المغول، فلقد سافر عدة مرات إلى بلاد ما وراء النهر وتركستان وبلاد الأويغور وبلاد المغول كما سافر إلى أقصى بلاد الصين[4]. وكان شاهد عيان لكثير من الوقائع الهامة.

٢ ـ أنه كان يتقلد أعلى المناصب في خدمة سلاطين المغول، كما كان يعيش في صحبة عظمائهم وأشرافهم، الأمر الذي يسر له على النحو الأكمل وسائل جمع الحكايات والروايات المتعلقة بأقوام المغول عن طريق الاتصال بثقات رجالهم[5].

مما حدا به أخيرا إلى الاستجابة لطلب أصدقائه، فبدأ في تدوين ما شاهد وما سمع فأخرج لنا بذلك كتاب جهانكشاي، الذي بدأ في تأليفه في حدود سنة ٦٥٠هـ وانتهى منه في سنة ٦٥٨هـ [6].

ورجع عطا ملك من سفره هذا الأخير في سنة ٦٥١هـ ليستأنف عمله كواحد من كتاب الأمير أرغون حتى أوائل سنة ٦٥٤هـ، وهي السنة التي قدم فيها هولاكو إلى إيران، وسافر فيها أرغون مرة أخرى إلى بلاط منكوقاآن. وفي سهل "شفورقان"[7] من محال بلخ[8] عين أرغون قبل سفره ابنه "كراي ملك" والأمير "أحمد بيتكجي"، وعلاء

---

(١) يتحدث المصنف عن نفسه بصيغة المفرد الغائب.

(٢) جهانكشاي ج ١ ص ٢ ـ ٣.

(٣) جهانكشاي ج١ ص ٧.

(٤) أيضا، ص ٦ ـ ٧.

(٥) مقدمة القزويني على جهانكشاي ج ١ ص كه.

(٦) أيضا، ص فد وما بعدها.

(٧) جهانكشاي ج٣ ص ١٠٠.

(٨) ياقوت في معجم البلدان ذيل "شفورقان".

الدين عطا ملك مصنف الكتاب فى خدمة هولاكو لتنظيم المهام وتدبير المصالح، وقد عهد إليهم بإدارة دفة الأمور فى ممالك العراق وخرسان ومازندران(١). ومنذ ذلك الحين أصبح المصنف من خواص الملازمين والكتاب لهولاكو ومن المقربين إليه، وكانت منزلته تزداد بمرور الأيام رفعة، ومكانته تطرد فى سبيل المنعة، حتى ابتلى فى أخريات أيام حياته بداهية مجد الملك اليزدى فبدأ نجمه فى الأفول على النحو الذى سنفصله فيما بعد.

وحسبما ورد صراحة فى جهنكشاى يتضح أن علاء الدين عطا ملك كان يلازم هولاكو بصفة دائمة أثناء حملته لاستئصال الإسماعيلية. ولقد عهد هولاكو إلى علاءالدين بكتابة مرسوم يتضمن شروط التسليم والصلح التى فرضها على المقيمين بقلعة "ميمون دز" أمنع قلاع الإسماعيلية، الذين اضطروا تحت وطأة حصار المغول إلى التسليم. وقد أرسل هذا المرسوم داخل القلعة إلى ركن الدين خورشاه آخر ملوك الإسماعيلية فى إيران(٢).

وبعد فتح الموت واستئصال الإسماعيلية فى سنة (٣)٦٥٤هـ خشى عطا ملك أن تتعرض مكتبة الموت (التى استطار صيتها فى الأقطار) للغارة والتلف فتذهب تلك الآثار القيمة كلها أدراج الرياح، فعرض الأمر على هولاكو قائلا: "إنه لا ينبغى أن تضيع نفائس الكتب فى الموت". فتقبل هولاكو رأيه بقبول حسن(٤)، وأمره أن يذهب إلى القلعة ليطلع على ما تشتمل عليه تلك المكتبة من نفائس وآثار قيمة أمضى الإسماعيلية قرابة مائة وسبعين عاما فى جمعها ليخرج منها ما يليق بالسلطان(٥). فامتثل علاء الدين للأمر وقام بعد مراجعة مجموعات المكتبة ومحتوياتها باستخراج المصاحف والكتب القيمة والآلات الخاصة بمرصد النجوم(٦) أما باقى الكتب التى تتصل من

(١) جهانكشاى ج ٢ ص ٢٥٩، ج ٣ ص ١٠١.

(٢) جهانكشاى ج٣ ص ١٢٩.

(٣) أيضا، ج ٣ ص ٢٦٧ وما يقابلها من الترجمة العربية.

(٤) أيضا، ص ٢٦٩ – ٢٧٠ وما يقابلها من الترجمة العربية.

(٥) أيضا، ص ١٨٦ وما يقابلها من الترجمة العربية.

(٦) أيضا، ص ٢٩٦ – ٢٧٠ وما يقابلها من الترجمة العربية.

قريب أو بعيد بأصول مذهب الإسماعيلية وفروعه فيقر بأنه أحرقها عن آخرها[١]. ومن على وقائع أحوال الحسن بن الصباح يسمى "سركذ شت سيدنا" (أى سيرة سيدنا) نقل المصنف خلاصة مختصرة منه فى الجزء الثالث من تاريخ جهانكشاى[٢]، كما نقل منه رشيد الدين فضل الله فى الجزء الثانى من جامع التواريخ فى تاريخ إسماعيلية الموت[٣] خلاصة أكثر تفصيلا.

ولما فرغ هولاكو فى سنة ٦٥٥هـ من الإسماعيلية اتجه بجيوشه نحو الجنوب الغربى بين الكتب التى أخرجها المصنف من مكتبة الموت ولم يحرقها لحسن الحظ كتاب يشتمل لفتح بغداد، وكان المصنف فى زمرة أصحابه[٤].

وبعد فتح بغداد بسنة واحدة، عهد هولاكو إلى علاء الدين بحكومة بغداد[٥]، فبقى حاكما عليها حتى توفى هولاكو فى ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ[٦].

ولقد أقر أباقا بن هولاكو، لدى جلوسه فى رمضان من نفس السنة شمس الدين محمد الجوينى أخا المصنف فى منصب الوزارة على الرسم السابق، وأسند ممالك بغداد وفارس إلى أمير مغولى يقال له سونجاق أغا[٧]، ونصب علاء الدين عطا ملك نائبا عن الأمير سونجاق فى بغداد.

وظل علاء الدين عطا ملك طوال مدة سلطنة أباقا (من سنة ٦٦٣ حتى سنة ٦٨٠هـ) أى طيلة سبعة عشر عاما، الحاكم الفعلى المطلق لبغداد وكل العراق العربى[٨]،

---

(١) أيضا.

(٢) أيضا ص ١٨٥ – ٢١٦ وما يقابلها من الترجمة العربية.

(٣) طبع هذا القسم من جامع التواريخ مرتين حتى الآن فى طهران، المرة الأولى بعناية الأستاذ دبير سياقى فى سنة ١٣٣٧ ش، والمرة الثانية فى سنة ١٣٣٨ ش بعناية الأستاذ محمد تقى دانش بزوه والأستاذ محمد مدرسى، ويقع تخليص "سركذ شت سيدنا" المشار إليه فى الطبعة الأخيرة فى الصفحات ما بين ٩٧ و١٣٧.

(٤) جامع التواريخ طبع كاترمر ص ٢٦٤، تعادل ص ٢٨١ – ٢٨٢ من الترجمة العربية لجامع التواريخ طبع كاترمر.

(٥) مقدمة القزوينى ك ط، نقلا عن رسالة "تسلية الإخوان" وهى من تأليف المصنف نفسه الخطية الرقيمة Suppl. Pers. 1556. بالمكتبة الأهلية بباريس ورقة ٢٢٣.

(٦) جامع التواريخ طبع كاترمر ص ٤١٦، تقابل ص ٣٤١ من الترجمة العربية لجامع التواريخ طبع كاترمر.

(٧) اسم هذا الشخص مذكور فى تاريخ الوصاف (طبع بومباى ص ٥٥): "سوغنجاق".

(٨) يزخر كتاب "الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة" المنسوب إلى كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق ابن الفوطى البغدادى مؤرخ علاء الدين وتلميذه بكثير من الإشارات إلى ما قام به علاء الدين عطا ملك طيلة=

وإن كان فى الظاهر يحكم نائبا عن الأمير سونجاق. ولقد صرف علاء الدين كل همه فى مدة حكمه فى تعمير البلاد وراحة العباد. وأسقط عن كاهل الفلاحين مغارم كثيرة[١]، وبذل غاية جهده فى إنشاء القرى ومجارى المياه، وحفر نهرا متفرعا من الفرات مبدؤه مدينة الأنبار (تقع غربى بغداد وتبعد عنها عشرة فراسخ) (ومنتهاه إلى الكوفة والنجف[٢]، وقد أنفق ما يربو على مائة ألف دينار من الذهب الإبريز فى هذا العمل[٣]، وإنشاء مائة وخمسين قرية على امتداد هذا النهر[٤]. كما أنشأ رباطا[٥] فى مشهد أمير المؤمنين على فى النجف[٦]. ولم يمض وقت طويل حتى سار العراق العربى بخطى واسعة نحو العمران وتضاعف دخله وعمر سواده[٧]، بعد أن كان قد تحول إلى خراب من أثر الغزو المغولى. ولقد بالغ بعض الناس وقال: "عمر صاحب الديوان بغداد حتى كانت أجود من أيام الخلافة"[٨].

وفى سنة ٦٦٨هـ بينما كان عطا ملك يسير ذات يوم ممتطيا صهوة جواده هاجمه على حين غرة رجل ضربه بسكين عدة ضربات، وأحضر الطبيب فسبر الجرح فوجده

=حكمه لبغداد والعراق العربى من أعمال، فهو ولا شك أكثر المراجع تفصيلا وأعظمها دقة فى سرد حوادث هذه الفترة من حياة المصنف. وقد طبع هذا الكتاب فى بغداد سنة ١٩٣٢ ميلادية.

(١) تاريخ الإسلام للذهبى نسخة دار الكتب المصرية (٤٢ تاريخ) ج ٣٢ ورقة ٦.

(٢) أيضا.

(٣) الوصاف طبع بومباى.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبى، النسخة المذكورة ورقة ٦.

(٥) يرد " الرباط" بمعنى الموضع الذى يسكن فيه العلماء والصوفية، كما يرد أيضا بمعنى الموضع الذى ينزل فيه الطلاب الفقراء وغيرهم مثل الزاوية. (القزوينى، مقدمته لجهانكشاى ص ل ب).

(٦) تاريخ الإسلام للذهبى، النسخة المذكورة ورقة ٧.

(٧) تاريخ الإسلام أيضا، وقف على أحوال العراق الاقتصادية فى ذلك العصر فى البحث المنشور بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٦١م للدكتور جعفر حسين خصباك بعنوان "أحوال العراق الاقتصادية فى عهد الإيلخانيين المغول(٦٥٦ - ٧٣٧هـ)"، وفى هذا البحث يتبين أثر علاء الدين عطا ملك فى النهوض باقتصاديات العراق العربى فى ذلك الحين.(انظر مثلا ٢٠، ٢٥، ٤١).

(٨) تاريخ الإسلام للذهبى، النسخة المذكورة، ورقة ٧.

سليما من السم، وأحضر الرجل وسئل عن سبب إقدامه على ذلك الأمر فلم يقل شيئا وعاجله الموت[١].

* * *

ولقد بلغت المدة التى حكم فيها علاء الدين بغداد قرابة الأربع والعشرين سنة، قضى منها ما يقرب من ست سنوات فى عهد هولاكو من سنة ٦٥٧ - ٦٦٣هـ، وما يقرب من سبعة عشر عاما مدة سلطنة تكودار المعروف بالسلطان أحمد من سنة ٦٨٠ - ٦٨١هـ. وفى خلال هذه المدة سعى به أعداؤه عدة مرات لعزله، إلا أنه نظرا لعلو المرتبة التى حازها أعضاء أسرته فى دولة المغول كانت سعايات السعاة تحبط فى غالب الأحيان.

وكان أنشط هؤلاء السعاة وأقدرهم على التأثير فى أمراء المغول هو مجد الملك اليزدى[٢] الذى استطاع أن يؤلبهم على أسرة صاحب الديوان، وانتهى الأمر بأن نكبت هذه الأسرة نكبة مماثلة لنكبة آل برمك[٣].

كان مجد الملك رجلا من أهل يزد، استخدمه شمس الدين الجوينى الوزير، فلما وقف شمس الدين على ما أودع فى فطرته من خبث وكيد أراد أن يستميله فأصدر أمرا بتوليه حكومة سيواس بآسيا الصغرى وزاد من راتبه. ولكن مجد الملك تمكن من

---

(١) يقول ابن العبرى فى التاريخ العام الذى كتبه باللغة السريانية أن الملاحدة هم الذين هاجموا عطا ملك (القزوينى فى المقدمة نقلا عن كاترمر فى الكنوز المشرقية ص ٢٢٦). ولكن ابن الفوطى يقول فى الحوادث الجامعة (ص٣٦٦): "لكن توهموا أن ذلك بوضع بعض النصارى". وقد اعتمد الأستاذ القزوينى على رواية ابن العبرى، والظاهر أنه لم يكن قد اطلع على ما كتبه ابن الفوطى فى هذا الصدد، وهو الأرجح فيما يبدو؛ لأن الإسماعيلية كانوا قد قضى على نشاطهم منذ وقت ليس بقليل وانقطعت عن الناس اغتيالاتهم.

(٢) ترجم ابن الفوطى لمجد الملك اليزدى فى كتابه معجم الألقاب، وقد نقل الترجمة المرحوم محمد رضا الشبيبى فى كتابه "ابن الفوطى مؤرخ العراق" ج ٢ ص ١٥١ - ١٥٢. وانظر "تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب" لابن الفوطى أيضا، تحقيق الدكتور مصطفى جواد (القسم الثانى من الجزء الرابع ص ١٠٣٦ ج ١). وانظر أيضا جامع التواريخ نسخة المكتبة الأهلية بباريس ورقة ٣١٢ وما بعدها (Suppl. Pers. 209) ويستخرج الأستاذ القزوينى فى مقدمته لجهانكشاى ما ورد عن مجد الملك فى جامع التواريخ. انظر ص لد وما بعدها.

(٣) مقدمة القزوينى لجهانكشاى ص لو.

الوصول إلى حضرة السلطان آباقا خان، وأدخل فى روعه أن السلطة الفعلية فى الدولة ليست فى يد المغول بقدر ما هى فى يد أسرة الجوينى التى يتزعمها شمس الدين محمد الوزير وعلاء الدين عطا ملك حاكم العراق، وأنه لا أحد سواه يعلم مقدار ثرائهما الفاحش الذى يتضاءل بجانبه ما تحتويه خزائن السلطان من أموال ونفائس، فثارت ثائرة آباقا وأمر بالقبض فورا على نواب صاحب الديوان المتفرقين فى كافة الأقاليم وإحضار سجلاتهم لدراستها بدقة. فاستعان شمس الدين صاحب الديوان بأولجاى خاتون[1] وكتب على نفسه حجة أقر فيها بأن كل أملاكه ومتعلقاته التى اشتراها خلال مدة وزارته هى ملك للسلطان، فعرضت أولجاى خاتون الأمر على السلطان مستندة إلى هذه الحجة وأثنت على صاحب الديوان، ولم تزل بآباقا حتى هدأت ثورته فأنقذت صاحب الديوان من تلك الورطة.

ولكن آباقا أصدر أمرا فى سنة ٦٧٩هـ يقضى بأن يتولى مجد الملك الإشراف على كافة الممالك من شاطئ نهر آموى حتى حدود مصر، وأن يشارك صاحب الديوان فى الحكم. فبدأ مجد الملك يكيد لشمس الدين الجوينى، غير أنه لما رأى أن مكائده لن تؤثر فيه اتجه إلى أخيه علاء الدين وبدأ فى التفنن فى النيل منه[2].

وقد ألف علاء الدين رسالة أسماها "تسلية الإخوان" فى شرح هذه المصائب التى تواترت عليه فى أواخر العمر من جراء سعاية مجد الملك اليزدى، كما ألف رسالة أخرى مجهولة الاسم هى عبارة عن تكملة لرسالة تسلية الإخوان. وكلتا الرسالتين موجودة لحسن الحظ بالمكتبة الأهلية فى باريس[3]. وقد أورد الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى مقدمته لكتاب "جهانكشاى" ملخصا لما ورد بهاتين الرسالتين من

---

(١) كانت زوجة لهولاكو وأما لمنكوتيمور، وقد أصبحت بعد وفاة هولاكو – طبقا لعادة المغول الذميمة – زوجة ابنه آباقاخان. (القزوينى مقدمته لجهانكشاى ص م، والترجمة العربية لجامع التواريخ طبع كاترمر ص ٢٢٢).

(٢) جامع التواريخ نسخة المكتبة الأهلية بباريس (Suppl. Pers. 209) ٣١٣، نقلا عن مقدمة القزوينى ص مب.

(٣) لا توجد نسخ مستقلة لهاتين الرسالتين فى المكتبة الأهلية بباريس، بل إن كل واحدة منهما مكتوبة فى ذيل إحدى نسخ جهانكشاى الخطية. وقد ألف علاء الدين تسلية الإخوان فى سنة ٦٨٠هـ، كما ألف الرسالة الأخرى فى شهور سنة ٦٨١هـ وهى السنة الأخيرة من عمره.

معلومات تفيد في التعرف على الحقبة الأخيرة من حياة علاء الدين كما وصفها بنفسه[1].

فلقد اتهم مجد الملك علاء الدين بأنه احتجن من أموال الديوان ما يقرب من مليونين وخمسمائة ألف دينار ووضع هذه الأموال في جرار دفنها في باطن الأرض بداخل منزله ببغداد. فأمر آباقا بمسير جماعة إلى بغداد لتتولى تحصيل هذه الأموال من علاء الدين الذي تمكن بمساعدة أخيه شمس الدين من تدبير جزء ضئيل لم يرض عنه السلطان، وأرسل جماعة لاستخراج الكنوز والدفائن التي زعم مجد الملك وجودها في منزل علاء الدين، فلما لم يجدوا شيئا عولوا على تعذيب علاء الدين وأعوانه[2]. ويقول ابن الفوطي في الحوادث الجامعة إنهم ألقوه في دار بأعلى بغداد مكتوفا وعليه قميص واحد وكان البرد شديدا جدا. وضرب خواصه وخدمه وأتباعه[3].

ولكن السلطان استجاب لرجاء بعض أمراء المغول وأميراتهم في العفو عن علاء الدين، وكان ذلك في سنة ٦٨٠هـ[4].

ولجأ مجد الملك إلى توجيه تهمة ـ كانت تعد لدى المغول من أفظع الجرائم ـ إلى علاء الدين وأخيه شمس الدين، وهي مكاتبة المصريين، ولكن ثبت بطلان هذه التهمة، وأعاد السلطان أحمد تكودار ـ بعد أن تولى السلطنة خلفا لأخيه آباقا ـ علاء الدين حاكما على بغداد[5]، ورد إليه الأموال التي سلبها مجد الملك وأعوانه[6].

ودارت الدائرة على مجد الملك فاتهم بالسحر[7] حيث وجد في جيب حزامه أدراج للتعاويذ والرقى، وهذا الفعل يعد عند المغول في غاية الشناعة والقبح، فسلموه إلى علاء

(١) انظر المقدمة ص مد وما بعدها.

(٢) تسلية الإخوان ورقة ٢٢٩ نقلا عن القزويني في مقدمته لجهانكشاى ح ١ ص مز.

(٣) الحوادث الجامعة ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٤) تسلية الإخوان ورقة ٢٨٨. نقلا عن مقدمة القزويني ص مح.

(٥) الرسالة المكملة لرسالة الإخوان، ورقة ٣٥ نقلا عن مقدمة القزويني ص نز.

(٦) أيضا.

(٧) كان السحر من الجرائم التي يعاقب عليها بالإعدام بأفظع الوسائل عند المغول (الرسالة المذكورة، أيضا).

الدين ليفعل به ما يشاء. وانتهى الأمر بقتله على يد المغول فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة[1].

* * *

وبعد جلوس تكودار المعروف بالسلطان أحمد دب خلاف شديد بينه وبين ابن أخيه أرغون بن آباقا، ودخل فى روع أحمد أن أرغون يدعو لنفسه ليكون سلطانا. ولما كان شمس الدين الجوينى وأخوه علاء الدين من أخص خواص السلطان أحمد، وكانا يقومان بتصريف شئون مملكته، فقد تغير عليهما أرغون تغيرا شديدا.

وفى سنة ٦٨١هـ توجه أرغون إلى بغداد لقضاء الشتاء بها[2]، فلما وصل بغداد طالب بالأموال التى زعم السعاة أن علاء الدين احتجنها فى عهد آباقا، وأخذ أصحاب علاء الدين وعاقبهم وغلهم، وأمر بنبش قبر نجم الدين الأصفر الذى كان يعمل كنائب لعلاء الدين، ولم يكن قد مضى على وفاته وقت طويل - وبإلقاء جثته فى عرض الطريق. فلما وصل ذلك الخبر إلى علاء الدين تغير وتألم ألما شديدا فأصابه صداع مفاجىء توفى على أثره[3] فى رابع ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وستمائة[4] فى مغان

---

(١) جامع التواريخ، نسخة المكتبة الأهلية بباريس Suppl. Pers. 209 ورقة ٣١٦، نقلا عن مقدمة القزوينى ص نح.

(٢) جامع التواريخ، أيضا، ورقة ٣١٦.

(٣) يقول الذهبى (تاريخ الإسلام نسخة دار الكتب ٤٢ تاريخ ج ٣٢ ورقة ٧) أن علاء الدين "سقط عن فرسه فمات".

(٤) جامع التواريخ، النسخة المذكورة، ورقة ٣١٧ نقلا عن القزوينى ص نط، وهذا أصح الأقوال فى تاريخ وفاة علاء الدين، وهو مطابق فى اليوم والشهر والسنة للوصاف، طبع بومباى ص ١١٩، وتاريخ الإسلام للذهبى، نسخة دار الكتب المصرية المذكورة ورقة ٧، وفى الشهر والسنة لتاريخ كزيده، طبع براون ص ٥٨٦، وفى السنة فقط للمنهل الصافى لابن تغرى بردى نسخة دار الكتب المصرية ١١١٣ تاريخ ج ٢ ورقة ٣٧٧. ولكن النويرى فى نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ١٢٧ من نسخة دار الكتب المصرية ٥٤٩ معارف عامة، وابن شاكر الكتبى فى ذيل ابن خلكان طبع بولاق ج ٢ ص ٤٥، والمقريزى فى السلوك ج ١ ص ٧٠٥ طبع الدكتور زيادة، وأبو الفدا فى تاريخه يذكرون أن عطا ملك توفى فى سنة ثمانين وستمائة. ويجعل حاجى خليفة فى كشف الظنون تحت "جهان كشا" وفاة المصنف فى سنة ٦٨٣هـ. والصواب هو التاريخ المذكور فى المتن لأنه مطابق لأقوال المؤرخين المعاصرين.

وحمل نعشه إلى تبريز ودفن فى مقبرة جرنداب[1] فأرسل السلطان أحمد السيد هارون ابن أخيه شمس الدين ليتولى حكومة بغداد مكانه[2].

ولم تلبث النكبة أن امتدت إلى جميع أعضاء الأسرة بعد جلوس أرغون على عرش المغول فقد عمل على استئصالهم عن آخرهم.

* * *

(١) الوصاف ص ١٢٤ -١٤٣.

(٢) جامع التواريخ، النسخة المذكورة، ورقة ٣١٧ نقلا عن القزوينى ص س، وأبو الفدا فى حوادث سنة ٦٨٠هـ، والحوادث الجامعة ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

جهانكشاى

ينقسم كتاب "تاريخ جهانكشاى" إلى ثلاثة أجزاء يتناول الجزء الأول تاريخ أقوام المغول وعاداتهم ورسومهم، والقوانين التى وضعها جنكيزخان وسميت بالياسا، وفتوحات جنكيز خان فى بلاد ما وراء النهر وإيران، وتاريخ أوكتاى قا آن وتوراكينا خاتون وابنها كيوك خان. ويتناول الجزء الثانى تاريخ ملوك خوارزم والقراخطاى والكورخانية، وتاريخ حكام المغول ونوابهم الذين حكموا إيران وتوابعها حتى قدوم هولاكو إلى إيران. ويبدأ الجزء الثالث بشرح وقائع تتويج منكو قا آن، ثم يتناول مسير هولاكو فى حملته على إيران بالتفصيل، ويستطرد فى ذكر تاريخ الإسماعيلية فى الموت، فيشرح تاريخ مذهبهم، وتطوره، وسيرة الحسن بن الصباح المعروفة بسركذشت سيدنا، ويختتم هذا الجزء بذكر آخر ملوك الإسماعيلية وانقراضهم على يد هولاكو سنة ٦٥٥هـ.

ولقد نال كتاب "تاريخ جهانكشاى" شهرة عظيمة منذ زمن تأليفه؛ حيث لم تكن هناك مؤلفات أخرى تتناول تلك الموضوعات، بالإضافة إلى المزايا التى تجمعت لدى المصنف الذى كان من أعاظم الرجال فى دولة المغول، وسافر السنين الطوال فى طول ممالك هذه الدولة وعرضها، وكان شاهد عيان لمعظم الوقائع التى ذكرها، واستمد باقى الوقائع من الثقات، كما كان كل آبائه وأقربائه من كبار رجال الدولتين الخوارزمية والمغولية، مما جعل أغلب المعاصرين له ينقلون عن هذا الكتاب دون تصرف تقريبا، واعتبروه أحد مصادرهم المعتمدة[١].

وكان عبد الله بن فضل الله الشيرازى صاحب كتاب "تاريخ وصاف" والمعاصر لعلاء الدين هو أول المستفدين بجهانكشاى؛ فقد لخص أجزاء جهانكشاى الثلاثة برمتها وألحق الملخص بالجزء الرابع من كتابه الذى ألفه باللغة الفارسية فى سنوات ٦٩٩، ٧٢٨هـ. وهو يقول إن تاريخه يعد ذيلا لجهانكشاى؛ لأنه يبدأ من حيث ينتهى جهانكشاى فى سنة ٦٥٥هـ، ويستطرد فى شرح الحوادث والوقائع حتى سنة ٧٢٨هـ[٢].

---

(١) مقدمة القزوينى ص ع ز.

(٢) الوصاف طبع بومباى ص ٦.

أما رشيد الدين فضل الله المؤرخ الكبير والذى تولى منصب الوزارة فى عهد اثنين من سلاطين المغول فى إيران، هما غازان خان وأولجايتو فقد ضمن مشتملات أجزاء جهانكشاى الثلاثة تقريبا تاريخه الكبير "جامع التواريخ" الذى أتم تاليفه فى حدود سنة ٧١٠هـ[١].

ويقول أبو الفرج غرغريوس بن أهرون الملطى المعروف بابن العبرى والمتوفى سنة ٦٨٥هـ فى تاريخه العام المطول الذى ألفه باللغة السريانية إن كتاب جهانكشاى عديم النظير فى موضوعه، وإن كل ما جاء فى كتابه يتعلق بتاريخ الدول الخوارزمية والإسماعيلية والمغول منقول عن جهانكشاى[٢]. كما ينقل أبو الفرج المذكور ويترجم إلى العربية فصولا بنصها أو مع تصرف يسير عن جهانكشاى فى كتابه الآخر المعروف بتاريخ مختصر الدول. وتعد المعلومات المتعلقة بتاريخ الخوارزمية والمغول والإسماعيلية حتى سنة ٦٥٥هـ والتى وردت فى مختصر الدول منقولة برمتها من جهانكشاى[٣].

وينقل صفى الدين محمد بن على بن محمد بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى، صاحب كتاب الفخرى الذى ألف فى سنة ٧١٠هـ – عدة فقرات بدون تصرف عن جهانكشاى[٤].

ويشير شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله الكاتب الدمشقى المعروف بابن فضل الله العمرى فى مواضع عديدة من كتابه "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" المؤلف فى سنة ٧٣٨هـ إلى أنه ينقل عن "الصاحب علاء الدين الجوينى[٥]".

كذلك ينقل تاريخ كزيده، وتاريخ البناكتى، وروضة الصفا، وحبيب السير، وسائر التواريخ الفارسية المتأخرة – فصولا كثيرة عن جهانكشاى؛ إذ اقتصر تعويل المتأخرين

(١) مقدمة القزوينى ص ع ح.

(٢) أيضا، ص ع ج نقلا عن كاترمر فى الكنوز المشرقية ص ٢٣٣.

(٣) أيضا، ع ج.

(٤) أيضا، ف.

(٥) انظر النسخة المصورة بدار الكتب المصرية من مسالك الأبصار (٥٥٩ معارف عامة) الجزء الثانى من المجلد الأول ورقات ٢١٣ و٢١٩ و٢٢٣ فى معرض سرده، لتاريخ التتر.

فـى الغـالب الأعـم فيمـا يتعلـق بتـاريخ ملـوك خـوارزم والإسماعيليـة والمغـول علـى جهانكشاى وجامع التواريخ والوصاف دون غيرهم[1].

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب "تاريخ جهانكشاى" يقف بأسلوبه الفريد المبتكر على مشارف حلقـة جديـدة مـن حلقـات تطـور النثر الفارسى. ويعتبر النقـاد أن عطـا ملـك الجوينى هو أول من استعمل الألفاظ المغولية فى اللغة الفارسية[2].

ولقد ترجم كتاب "تـاريخ جهانكشـاى" إلى اللغة الإنجليزيـة فـى السنوات الأخيـرة، ترجمه بويل، وراجعه المستشرق الروسى مينورسكى، ونشر فى مجلدين فى هارفـارد سنـة ١٩٥٨م م تحت إشراف الأمم المتحدة[3].

* * *

تاريخ الإسماعيلية فى جهانكشاى:

قلنـا إن عطـا ملـك الجوينـى كـان يصـاحب هولاكـو بصفـة دائمـة فـى أثنـاء حملتـه لاستئصال الإسماعيلية فى إيران[4]. وكـان للجوينـى الفضـل فـى إنقـاذ مكتبـة المـوت الشهيرة من التخريب، عندما استأذن هولاكو فى الإبقاء عليها؛ ريثما يستخرج منها مـا يليق من الكتب، فكان كتاب "سركذشت سيدنا" الذى يتحدث عن سيرة الحسـن بـن الصباح مؤسس دولة الإسماعيلية فـى إيران من بين الكتـب التى استخرجها المصنـف، ونقل خلاصة مختصرة منه فى الجزء الثالث من كتابه "تاريخ جهانكشاى[5]".

ويشتمل القسم الخاص بتاريخ الإسماعيلية فى جهانكشاى على مقدمة يعرض فيـها المصنف لتاريخ المذهب الإسمـاعيلى وتطوره، ويتحـدث عـن قيـام الدولـة الفاطميـة فـى المغـرب ومصـر معتبرا هـذه الدولـة ثمرة مـن ثمـرات الحركـة الإسماعيلية. ويذكـر فـى اختصـار تواريـخ الخلفـاء الفـاطميين فـى مصـر إلى زوال دولتـهم على يـد الأيوبيين، ثـم

(١) مقدمة القزوينى ف – فا.

(٢) هذا هو رأى الأستاذ محمد تقى بهار الذى خصص حوالى خمسين صفحة فى الجزء الثالث من كتابه "سبك شناسى يا تاريخ تطور نثر فارسى" (ص ٥١ – ١٠٠) للحديث عن أسلوب جهانكشاى.

(٣) صدرت الترجمة بعنوان: The History of The World Conqueror.

(٤) انظر فيما سبق ص ١٣٤.

(٥) جهانكشاى ج ٣ ص ١٨٥ - ٢١٦.

يشرع فى نقل مختصر لكتاب "سركذشت سيدنا" يسرد فيه سيرة الحسن بن الصباح ومذهبه الذى استحدثه بعد قدومه من مصر، وينبرى المصنف للرد عليه وتفنيد عقائده وإبطالها، ثم يتحدث عن ملوك الإسماعيلية الذين أتوا بعد الحسن بن الصباح وآخرهم ركن الدين خورشاه الذى قتله المغول وقضوا على أتباعه. ويعقد المصنف فصلا فى وصف بعض القلاع التى كان الإسماعيلية يتخذونها معاقل، ويبدى إعجابه بمناعتها وعظمتها، وينهى تاريخ الإسماعيلية فى كتابه بذكر ما كان من قتل ركن الدين وأتباعه.

وترجع أهمية القسم الخاص بالإسماعيلية فى كتاب "تاريخ جهانكشاى"، وهو القسم الذى قمنا بنقلة إلى العربية، إلى أنه يعد المصدر الأول الذى كتب عن الدولة التى أنشأها أتباع هذه الطائفة فى إيران. وإذا كان رشيد الدين قد خصص قسما كاملا للحديث عن الإسماعيلية فى موسوعته الضخمة "جامع التواريخ" - التى أتمها بعد وفاة المصنف بما يقرب من ثلاثين عاما - ويمتاز هذا القسم فى جامع التواريخ بأنه أكثر تفصيلا عما أورده عطا ملك فى جهانكشاى، إلا أن رشيد الدين فى هذا القسم لا يكاد يضيف شيئا ذا أهمية، خصوصا من الوجهة العلمية يتميز به عما أورده علاء الدين فى تاريخه، مما يجعل هذا القسم تابعا فى الأهمية للقسم الوارد فى جهانكشاى عن تاريخ الإسماعيلية[1].

ويبدو أن أحسن ما قيل إلى الآن فى المقارنة بين النصين – تاريخ الإسماعيلية فى جهانكشاى، وتاريخهم فى جامع التواريخ – هو ما كتبه هارولد بوين فى مقال له بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية[2] يقول فيه إنه إذا كان يجد أن رشيد الدين لديه فى الغالب الأعم مزيد من الحقائق تكثر عما أورده الجوينى فإنه يجد أن الجوينى لديه المزيد من الحقائق التى أغفلها رشيد الدين. فإذا اتفقا نجد الألفاظ متشابهة فى معظم الأحيان.

---

(١) حرصت على الرجوع إلى تاريخ الإسماعيلية فى جامع التواريخ، وقد أعاننى ذلك على ترجمة بعض العبارات الغامضة الواردة فى نص جهانكشاى.

(٢) The Sar-Gudhasht – i—Sayyidna, The "Tale of Three School- Fellows and The Wasaya of Nizam al Mulk", by: Bowen. وانظر أيضا: The History of The World Gonqueror, p. 666, by: Boyle ويرى إيفانوف فى A Guide to Ismaili Lit. p. 10. رأيا جديدا فيما يختص بتاريخ الإسماعيلية فى جامع التواريخ.

ويفترض أن الجوينى كان يلتقط المبادئ العامة التى يقوم رشيد الدين بتفصيلها، حتى فى مقدمة رشيد الدين عن هذا القسم تلك المقدمة التى يبدو بوضوح أنها نفس المقدمة النثرية للجوينى، المؤلفة فى عصر مبكر.

وعندما اضطلعت بترجمة النص الذى أورده عطا ملك فى كتابه "تاريخ جهانكشاى" عن دولة الإسماعيلية فى إيران[1]، حاولت أن أقلد بصفة عامة الترجمة القيمة التى قام بها أساتذتى الأفاضل: المرحوم الأستاذ الدكتور أمين الشواربى، والأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين، والأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد لكتاب "راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية"، كما رأيت من الأنسب أن أحتفظ بحواشى أسفل الصفحات التى كتبها الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى تعليقا على بعض النقاط الواردة فى المتن أو تصويبا لها، وأن أضيف إليها عددا من التعليقات بغية المزيد من التوضيح بالنسبة للقارئ العربى.

ولقد استعملت ـ فى ترجمة هذا النص ـ علامات الترقيم بكثرة قد تجاوز حد الضرورة، غير أنى كنت فى غالب الأحيان مضطرا إلى ذلك بسبب ما تتصف به الجملة عند الجوينى من طول غير عادى، ولعدم جرى أسلوبه على وتيرة واحدة، ولكثرة ما يورد من الجمل المختصرة المبتسرة.

والحقيقة أنه لولا الطبعة الممتازة من كتاب "تاريخ جهانكشاى" التى توفر الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى على إخراجها لما قيض لهذا النص عن تاريخ دولة الإسماعيلية فى إيران ـ ولا لغيره من الموارد التى أوردها الجوينى فى كتابه كله ـ أن تكتسب هذا الوضوح الذى يسر على مهمة الترجمة إلى حد بعيد.

وينبغى أن أقرر أننى فيما يتعلق بالمواضيع التى استعصت على ترجمتها من النص الفارسى قد استشرت الترجمة الإنجليزية لكتاب "تاريخ جهانكشاى" التى قام بها المستشرق الأمريكى بويل، وراجعها المستشرق الروسى مينورسكى.

* * *

---

(١) يستغرق النص المذكور الصفحات من ١٤٢ ـ ٢٧٨ من الجزء الثالث من جهانكشاى الذى طبع فى ليدن بهولندا سنة ١٩٣٧م، ضمن سلسلة "جب" التذكارية البريطانية: Gibb Memorial Series.

ذكر تقرير

مذاهب الباطنية والإسماعيلية وأحوالهم[1]

في صدر الإسلام بعد أيام الخلفاء الراشدين – صلوات الله عليهم أجمعين – ظهر من بين المسلمين جماعة لم تأتلف ضمائرهم مع دين الإسلام؛ فقد رسخت عصبية المجوس في قلوب هذه الطائفة. (١٤٣) ولكي يشيعوا بين الناس الشك والضلال أذاعوا أقوالا مؤداها أن لظاهر الشريعة باطنا ستر عن أكثر الناس. ودعموا هذه الأباطيل بالأقوال التي وصلت إليهم عن فلاسفة اليونان، كما اقتبسوا بعض المبادئ من مذاهب المجوس. ولكي لا يشنع عليهم أهل الإسلام، بل لكي يشيعوهم[2] كانوا ينكرون على طوائف فرق المؤمنين أنهم لم ينصروا آل بيت الرسول – صلوات الله عليهم – خاصة عندما جهر بظلمهم يزيد[3] وأتباعه – عليهم ما يستحقون – فلم ينتقم لهم أحد من بين هؤلاء الأمراء وأهل الحل والعقد، ورضوا بخلافة آل يزيد.

ولما انفصل الكيسانية[4] عن باقي الشيعة، وتبعوا محمد بن الحنفية انضم أولئك إلى الكيسانية ونسبوا إليه[5] تقرير العلوم الباطنية. إلى أن خرج زيد بن علي، ورفضه

---

(١) هذا القسم الوارد في الجزء الثالث من جهانكشاى ابتداء من ص ١٤٢، وسوف نثبت أرقام صفحات الأصل في المتن.

(٢) "شيعه على رأيه تابعه وقواه، وفلان يشيعه على ذلك أي يقويه" (لسان العرب).

(٣) المترجم: يعني يزيد بن معاوية الخليفة الأموي الثاني.

(٤) المترجم: الكياسنة فرقة من فرق الشيعة. يقول الشهرستاني (الملل والنحل ج ١ ص ٢٨٠) بأنهم أصحاب كيسان مولى علي بن أبي طالب. بينما ينسبها النوبختي (فرق الشيعة ص ٢٣) والقمي (المقالات والفرق ص ٢١) إلى المختار بن أبي عبد الله الثقفي وكان لقبه كيسان. وهم الذين قالوا بإمامة محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية. (انظر أيضا مقالات الإسلاميين للأشعري ج ١ ص ١٦ – ٢١، الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٧ – ٣٤، الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠١).

(٥) يعني إلى محمد بن الحنفية.

شيعة[1] محمد بن على بن الحسين - صلوات الله عليهم - ورضوانه، فقيل: رفضوا زيدا. وقد ظل اسم الرافضى[2] يطلق عليهم منذ ذلك الحين. ولما أصيب الكيسانية بالوهن بسبب نقص عددهم وعدتهم انضم هؤلاء القوم إلى الروافض.

وكان من بينهم شخص من أعقاب (١٤٤) جعفر الطيار[3] يقال له عبد الله بن معاوية[4] قبل دعوة الروافض، وتبحر فى ذلك المذهب، ووضع المؤلفات فى توطيده، ومن جملة مؤلفاته أنه اخترع جدولا[5] فى تعيين أوائل الشهور العربية، وقال بعدم الحاجة إلى رؤية الهلال. وقد نسب وضع الجدول - وهو بحر الضلال - إلى أئمة أهل البيت - رضوان الله عليهم - وقال إن الإمام يستطيع رؤية الهلال، ولا يمكن لأحد ذلك عليه روافض الشيعة ودب بينهم الخلاف. فأطلق جماعة الجدوليين غيره أن يشعر به، فأوائل الشهور تقع قبل التمكن من رؤية الهلال. فأنكر على أنفسهم اسم (أهل العلم الباطن) وأطلقوا على باقى الشيعة اسم "أهل الظاهر".

---

(١) يعنى الإمام محمد الباقر.

(٢) المترجم: إلى مثل هذا الرأى فى سبب تسميتهم بالرافضة أو الروافض يذهب الفخر الرازى (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٢) فيقول: "وإنما سموا بالرافضة لأن زيد بن على بن الحسين خرج على هشام بن عبد الملك فطعن عسكره فى أبى بكر فمنعهم من ذلك فرفضوه. فقال لهم: رفضتمونى؟ قالوا: نعم. فبقى عليهم هذا الاسم". ولكن الأشعرى يقول فى مقالات الإسلاميين ج١ ص ١٥: "وإنما سموا الرافضة لرفضهم إمامة أبى بكر وعمر". وانظر وجها آخر فى سبب هذه التسمية لدى كل من النوبختى (فرق الشيعة ص ٦٣) والقمى (المقالات والفرق ص ٧٧). وانظر أيضا البغدادى (الفرق بين الفرق ص ٢٥)، ابن الجوزى تلبيس ص ١٠٣، الإسفراينى (التبصير فى الدين ص ٧٥).

(٣) فى سبب تسمية جعفر بالطيار انظر عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب طبع بومباى ص ١٨ - ١٩.

(٤) المترجم: هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب خرج على بنى أمية فى أواخر أيام دولتهم واستولى على فارس وأصفهان وكرمان، لكنه قتل فى النهاية على يد أبى مسلم الخراسانى فى سنة ١٣٠هـ، انظر الطبرى ٢: ١٨٧٩ - ١٨٨٧، ١٩٧٦ - ١٩٨٠ وابن الأثير فى حوادث سنتى ١٢٧، و١٢٩.

(٥) أبو الريحان فى الآثار الباقية ص ٦٤ - ٦٨ وأبو منصور البغدادى فى الفرق بين الفرق ص ٢٥٦ ينسبان وضع هذا الجدول إلى عبد الكريم بن أبى العوجاء الزنديق المعروف. ولم أعثر فى أى مرجع من المراجع المتعلقة بترجمة حال عبد الله بن معاوية أو الخاصة بشرح مذهبه وطريقته على ما يثبت نسبة وضع هذا الجدول إليه كما يزعم الجوينى.

حتى جاء عصر جعفر الصادق رضى الله عنه. وكان له أربعة أولاد أكبرهم إسماعيل الذى كان حفيدا للحسن من جهة أمه(١)، والثانى موسى وكانت أمه أم ولد، (١٤٥) والثالث محمد الديباج(٢) وهو مدفون بظاهر جرجان(٣) بجانب قبر الداعى(٤)، والرابع عبد الله المعروف بالأفطح(٥)، قال الشيعة إن جعفرا إمام معد وم، وقد نص على ابنه إسماعيل، غير أن إسماعيل كان يعاقر الخمر فأنكر جعفر الصادق عليه ذلك. وقد

---

(١) أم إسماعيل هى فاطمة بنت الحسين الأثرم بن الحسن بن على بن أبى طالب: "فولد جعفر بن محمد بن إسماعيل الأعرج وعبد الله وأم فروة أمهم فاطمة ابنة الحسين الأثرم بن الحسين بن على بن أبى طالب" (الطبرى القسم الرابع، ص ٢٠٥٩). "وأما إسماعيل بن جعفر الصادق ويكنى أبا محمد وأمه فاطمة بنت الحسين الأثرم بن الحسن بن على ابن أبى طالب، وكان أكبر ولد لأبيه ويعرف بإسماعيل الأعرج" (عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب، ورقة ١٤٣). "ومكث الصادق خمسا وعشرين سنة لا ولد له إلا إسماعيل وعبد الله وأم فروة وأمهم فاطمة بنت الحسين ابن الحسن" (دستور المنجمين ورقة ٣٣٣، نسخة المكتبة الأهلية بباريس رقم Arabe 5968).

(٢) المترجم: "محمد الديباج بن جعفر الصادق لقب بذلك لحسن وجهه" (عمدة الطالب طبع بومباى ص ٢١٨).

(٣) "ومن مزار الأكابر (فى جرجان) قبر محمد بن جعفر الصادق، وهذا المزار مشهور باسم القبر الأحمر" (نزهة القلوب ص ١٥٩).

(٤) المترجم: المراد بالداعى هو "محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ملك طبرستان بعد أخيه الحسن بن زيد الداعى الكبير وأقام سبع عشرة سنة وسبعة أشهر، ثم حاربه محمد بن هارون السرجينى صاحب إسماعيل بن أحمد السامانى فقتله وحمل رأسه إلى بخارى ودفن بدنه بجرجان، عند قبر الديباج محمد بن الصادق عليهما السلام" (عمدة الطالب ص ٧٠ طبع بومباى باختصار). ومحمد بن زيد هذا هو أحد السادات العلوية الذين حكموا طبرستان منذ سنة ٢٥٠هـ واستمر حكمهم لها حتى سنة ٣١٦هـ عندما استولى أسفار بن شيرويه الديلمى عليها. ومحمد بن زيد يعد واحدا من الأربعة الكبار الذين حكموا تلك البلاد وكانوا يتمتعون بالاستقلال عمن سواهم، أولهم الحسن بن زيد المعروف بالداعى الكبير (٢٥٠ - ٢٧٠ هـ)، وثانيهم محمد ابن زيد المذكور وهومعروف بالداعى على إطلاقها (٢٧٠ -٢٨٧)، وثالثهم الحسن بن على الحسينى المعروف بناصر الحق والناصر الكبير الذى كان له الفضل فى إدخال الديالمة والجيل فى الإسلام (٣٠١ - ٣٠٤) والرابع هو الحسن بن القاسم الحسنى المعروف بالداعى الصغير (٣٠٤ - ٣١٦)، وفى السنة الأخيرة قتل على يد أسفار بن شيرويه، فانقرضت بموته تلك الدولة. (انظر الطبرى القسم الثالث فى مواضع عديدة وابن الأثير تحت السنوات المذكورة، وتاريخ طبرستان لسيد ظهير الدين ص ٢٨٢ وما بعدها).

(٥) الأفطح لقب عبد الله وكان أكبر أولاد الإمام جعفر الصادق سنا بعد إسماعيل، سمى به "لأن عبد الله بن جعفر كان أفطح الرأس، وقد قيل إنه كان أفطح الرجلين" (رجال الكشى ص ٢٤٥)، انظر أيضا خطط المقريزى، ج ٤ ص ١٧٤، والأنساب للسمعانى ص ٤٢٩ والشهرستانى ص ١٢٦.

روى عنه أنه قال: "إن إسماعيل ليس ابنى لكنه شيطان ظهر فى صورته". ونقلوا عنه أيضا أنه قال: "بدا[1] لله فى أمر إسماعيل". فنص على ابنه الآخر موسى.

أما الطائفة التى انتقلت من الكيسانية إلى الروافض فقد انضمت إلى إسماعيل وانفصلت عن الروافض، وقالوا إن الأصل هو النص الأول، ولا يجوز البداء على الله، وكل من يعرف باطن الشريعة لا يعاقب إذا ما أغفل الظاهر، وكل ما يأتيه الإمام من قول أو فعل فهو حق إذ لم يتطرق خلل أو نقصان إلى إسماعيل من جراء شرب الخمر. (١٤٦) فسموا الإسماعيلية وتميزوا بهذا الاسم عن باقى الشيعة.

وقبل وفاة جعفر الصادق – رضى الله عنه[2] – توفى إسماعيل سنة خمس وأربعين ومائة فى قرية عريض (وهى تبعد أربعة فراسخ عن المدينة) فأدخل المدينة محمولا على أكتاف الرجال، فأحضر جعفر الصادق – رضى الله عنه – والى المدينة – وكان يحكمها من قبل الخلفاء العباسيين رضوان الله عليهم– وجماعة من مشاهير المدينة ومشايخها وكشف لهم عن (جثته)، وحرر محضرا لإثبات وفاته موشحا بتوقيعات جماعة الحاضرين، ثم دفنه فى البقيع.

قال القوم الذين كانوا ينتسبون إلى إسماعيل إن إسماعيل لم يكن قد مات، ولكنهم أعلنوا موته على سبيل التعمية على الناس حتى لا يقصد هو وأتباعه بالقتل. وقال باقى الشيعة لقد كان غرض جعفر هو إظهار بطلان مقالة تلك الطائفة التى انتسبت إلى إسماعيل، وواقع الأمر أن هذين الرأيين (١٤٧) باطلان كلاهما؛ فقد فسر كل من الجماعتين هذا الفعل وفق هواه. ولقد كان هدف جعفر هو إبراء ساحته من حوالة

---

(١) المترجم: معنى البداء: "أن الله تعالى يزيد الشيء ويعزم عليه ثم يبدو له فلا يفعله" (ابن حزم ج ٤ ص ١٨٢)،وانظر البداء عند الشيعة "أصل الشيعة وأصولها" للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ص ١٩٠.

(٢) تقع وفاة الإمام جعفر الصادق على أشهر الروايات فى سنة ١٤٨هـ (انظر أصول الكافى، تهذيب الشيخ الطوسى، تاريخ ابن واضح اليعقوبى ج ٣ ص ٢ ٤٥٨ (= ج ٣ ص ١٥٠ طبع النجف)، ومروج الذهب فى أوائل خلافة المنصور، وابن الأثير فى حوادث سنة ١٤٨، وابن خلكان فى "جعفر"، وعمدة الطالب ورقة ١١٨ (= ورقة ٩٠ أ من نسخة دار الكتب المصرية، ص ١٧٣ طبع بومباى) وغيرها وغيرها. وبقول ضعيف فى سنة ١٤٧ (عمدة الطالب أيضا، فى إحدى روايتيه) أو سنة ١٤٦ (المعارف لابن قتيبة ص ٧٣)، وكانت وفاة إسماعيل بتصريح المصنف سنة ١٤٥ وبذلك تكون وفاة إسماعيل سابقة على وفاة أبيه بثلاثة أعوام أو بعامين أو بعام واحد وليس بخمسة أعوام على أى تقدير (كما تقول إحدى نسخ جهانكشاى الخطية).

دعوى الإمامة التى نسبوها إليه من حيث إن نصه على أولاده معناه إنكاره هو وشيعته للخلفاء.

مجمل القول أنه لما توفى جعفر - رضى الله عنه - تابع جمهور الشيعة موسى. وقال عدد يسير بإمامة محمد الديباج فسموا [1]. وقالت فرقة ضئيلة بإمامة عبد الله الأفطح فسموهم الفطحية[2].

وبعد مدة أرسل الخلفاء إلى المدينة وأحضروا موسى على سبيل الاشخاص إلى بغداد حيث حبسوه وتوفى فى السجن، وقال الشيعة إنه سم. ولقد نقل إلى حافة الجسر وأخرج لأهل بغداد حتى يروا أن ليس بجثته جروح. ودفن بمقابر[3] قريش.

(١٤٨) وقد بقى ابنه على بن موسى الرضى بالمدينة حتى نقله المأمون إلى خراسان، وله قصة مشهورة، وتوفى بطوس، وقالوا مات مسموما، وقد دفن بها.

ولما كان الخلفاء يتعقبون هذه الجماعة لادعائهم الإمامة فقد توارى أولاد إسماعيل وتفرقوا عن المدينة إلى العراق وخراسان وتوجه بعضهم إلى المغرب.

وقال الإسماعيلية إن إسماعيل كان لا يزال حيا بعد وفاة جعفر بخمسة أعوام؛ فقد رئى فى سوق البصرة، يسأله مقعد، فأخذ إسماعيل بيده فبرئ، ووقف على قدميه وسار معه. كما دعا أيضا لأعمى فأبصر.

ولما مات إسماعيل توجه ابنه محمد، الذى كان شابا يافعا فى عصر جعفر كما كان أكبر سنا من موسى(بن جعفر)[4]، توجه إلى الجبال[5] ثم قدم إلى الرى ومنها إلى قرية

(١) يبدو أن التصحيح بدياجى ودياجية من تصرفات النساخ أنفسهم بمناسبة كلمة "ديباج" ولم نر فى موضع آخر تسمية لهذه الفرقة باسم "الديباجية" فالشهرستانى فى موضع واحد من الملل والنحل ص ١٦ يسمى أتباع محمد الديباج العمارية: "فمنهم من قال بإمامة محمد وهم العامرية" وفى موضع آخر ص ١٢٦ يسميهم الشميطية.

(٢) المترجم: نسبة إلى عبد الله الأفطح بن جعفر الصادق.

(٣) لا توجد كلمة قريش فى أية نسخة من النسخ الخطية وواضح أنه بدونها تصبح العبارة لغوا ومن قبيل النار حارة، وصريح أقوال المؤرخين أن مدفن الإمام موسى الكاظم كان بمقابر قريش ببغداد: "ودفن بمقابر قريش" (عمدة الطالب ورقة ١١٨ = ص ١٧٥ طبع بومباى)، "ودفن فى مقابر قريش ببغداد" (الشهرستانى ص ١٢٧)، "مقابر قريش ببغداد وهى مقبرة مشهورة، وهى التى فيها قبر موسى الكاظم" (ياقوت فى باب الميم).

(٤) كانت ولادة موسى الكاظم فى سنة ١٢٨هـ، وولادة محمد بن إسماعيل بتصريح دستور المنجمين ٣٣٤ فى سنة ١٢١هـ يتضح إذن أن محمد بن إسماعيل كان أكبر من عمه موسى الكاظم بسبعة أعوام.

(٥) المترجم: يعنى الرى وأصفهان وهمدان وتوابعها وكان يطلق عليها فيما مضى اسم "العراق العجمى".

سمله[1]. "ومحمد آباد" بالرى منسوبة إليه. وكان له أولاد تواروا فى خراسان، ثم توجهوا إلى قندهار[2] من أعمال ولاية السند واستوطنوها.

وقد تدفق دعاة الإسماعيلية فى داخل الولايات ودعوا الناس إلى مذهبهم، فقبل دعوتهم خلق كثير.

(١٤٩) توجه على بن إسماعيل من تلك الناحية إلى الشام والمغرب مناديا: "من نجا برأسه[3]". ولما لم يكن طالب إمامة كما أن أحدا لم يتبعه ظهر هناك وظهر أعقابه من بعده ولا زالوا ظاهرين حتى الآن.

وبرز لجماعة الإسماعيلية رؤساء شرحوا مقالاتهم وفصلوها فقالوا لم يخل العالم من إمام قط ولن يخلو من إمام. وكل من كان إماما لا بد أن يكون أبوه إماما وأبو أبيه وهلم جرا حتى آدم عليه السلام، بل حتى الأزل كما يذهب بعضهم لأنهم يقولون بقدم العالم. كما لا بد من أن يكون ابن الإمام إماما وابن ابنه، وهلم جرا إلى الأبد. ولا يمكن أن يموت الإمام إلا بعد أن يكون ابنه الذى سوف يتولى الإمامة من بعده قد ولد أو انفصل عن صلبه. ويقولون إن هذا هو معنى الآية ﴿ذرية بعضها من بعض﴾، والآية ﴿وجعلها كلمة باقية فى عقبه﴾.

ولما احتج عليهم الشيعة بالحسن بن على وكان إماما باتفاق الشيعة أجمعين، بينما لم يكن ابنه إماما، أجابوا بأن إمامته مستودعة، أى لم تكن ثابتة، فكانت إمامته عارية، بينما كانت إمامة الحسين مستقرة، والآية ﴿فمستقر ومستودع﴾ تشير إلى ذلك.

ويقولون إن الإمام لا يكون ظاهرا على الدوام؛ فهو أحيانا يظهر وأحيانا يستتر مثله فى ذلك مثل الليل والنهار متعاقبان. فإذا كان الإمام ظاهرا يجوز أن تكون دعوته

---

(١) يحتمل أن تكون هذه الكلمة تصحيف شلمبه التى كانت قصبة دماوند (انظر ياقوت فى باب الشين وابن خرداذبه ص ١١٨). المترجم: وجاء فى رسالة القضاء والقدر للشيخ الرئيس ابن سينا (ص ٤٤): "إنه لما تيسر عودى من شلمبه راكبا جدد أصفهان عرست ببعض القلاع المعقودة على الجادة" (نقلا عن حواشي "دانش بزوه" على جامع التواريخ الجزء الخاص بالإسماعيلية ص ٢٠٠).

(٢) المترجم: ليس المقصود بها قندهار الموجودة فى أفغانستان، ولكن المقصود بها "كندهارا" المملكة الهندية وعاصمتها فايهند التى تقع بين الأندوس ونهر كابل. انظر: Minorsky Hudud el Aalam, pp. 255 – 254.

(٣) مجمع الأمثال فى باب الميم ج ٢ ص ١٦٩. وقد ذكرها المصنف فى ص ٤٦ من الجزء الثالث من جهانكشاى ص١ – ٢: "من نجا برأسه فقد ربح".

(١٥٠) مستورة، وأما إذا كان الإمام مستورا فلا بد وأن تكون دعوته ظاهرة[١] وأن يعين دعاته بين الناس، حتى لا يكون للناس على الله حجة.

فالرسل أصحاب التنزيل والأئمة أصحاب التأويل. ولا يخلو عهد قط ولا عهد أى رسول من إمام، وقد جاء بعد إبراهيم شخص ورد ذكره فى التوراة فقالت[٢] إنه كان فى ذلك الوقت ملك يسمى فى التوراة باللغة السريانية والعبرية ملخيزداق ملخ شوليم[٣] ومعناه باللغة العربية ملك الصدق وملك السلام. وقالت[٤] إنه لما وصل إليه إبراهيم – صلوات الله عليه – أعطاه عشر حيوانات. والخضر الذى أراد أن يعلم موسى العلم اللدنى كان إماما وإماما مشهورا[٥].

(١٥١) وكانت فترة ما قبل الإسلام دور ستر فكان الأئمة مستترين وقد ظهرت الإمامة فى عصر على – رضى الله عنه – وكان على (بن أبى طالب) إمام ذلك الدور. ومنذ عهده ظهر الأئمة حتى إسماعيل ومحمد بن إسماعيل الذى كان سابع الأئمة[٦].

ثم بدأ الستر بإسماعيل ومحمد الذى كان آخر دور الظهور، فقد استتر تماما وبقى الأئمة من بعده مستترين إلى أن ظهروا.

وقالوا إن موسى بن جعفر فدى إسماعيل بنفسه كما فدى على بن موسى الرضا بنفسه محمد بن إسماعيل[٧]. وقصة إبراهيم الذبيح ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ تشير إلى ما

---

(١) عبارة الجوينى هى تقريبا نفس عبارة الشهرستانى: "قالوا ولن تخلو الأرض قط من إمام حى قاهر إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور، فإذا كان الإمام ظاهرا يجوز أن يكون حجته ودعاته ظاهرين" (الشهرستانى ص ١٤٦ = ج ١ ص ٤٢٥ طبع الأزهر).

(٢) يعنى قالت التوراة.

(٣) التوراة فى تراجمها المختلفة، طبع والتون، سفر التكوين فصل ١٤ آية ١٨.

(٤) يعنى التوراة.

(٥) المترجم: كذا فى الأصل: "إمام بود نامزد إمام".

(٦) كذا فى جميع النسخ، وفى دستور المنجمين ورقة ٣٣٤ يطلق عليه أيضا "السابع التام" وما زالت هذه المسألة وهى أن الإسماعيلية يعدون محمد بن إسماعيل السابع لا الثامن فى عداد الأئمة خافية على كاتب هذه السطور. انظر خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٢٩، ٢٣١ وانظر أيضا ترجمة كزانوفا لهذا الفصل من الخطط فى الرسالة المسماة "التعاليم الخفية لفاطميى مصر" ص ١٣٧ حاشية ٢، ص ١٤٠ ج١، ٤.

(٧) النسخة الخطية ح: "وقالوا فدى موسى بن جعفر محمد بن إسماعيل" ولو أن هذا مخالف لباقى النسخ إلا أنه مطابق تماما لدستور المنجمين ورقة ٣٣٤: "وقد روى أنه (أى موسى الكاظم) فدى ابن أخيه محمد بن إسماعيل لما طلبه=

يشاكل ذلك. ومجمل القول أنهم أقروا خرافات كثيرة وظهر من بينهم دعاة، منهم ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون[1] الذى يعد من كبار علماء هذه الطائفة، وحسن شيخ عبدان[2]. وظهر منهم فى زمن جعفر الصادق – رضوان الله عليه – أبوالخطاب[3] الذى ادعى ألوهية جعفر، وهذا ما يقوله كل من الاتحادية والحلولية. وقد قال جعفر عنه: "ملعون هو وأصحابه". وأمثال هؤلاء كثيرون، نجد إشارات عنهم فى كتب التواريخ والمقالات.

خلاصة القول أن هذا المذهب وتلك المقالات قد انتشرت، وظهر فى أكثر بلاد الإسلام من المغرب والمشرق قوم، بعضهم مستترون، وبعضهم ظاهرون، كلهم متفقون على أن الزمان لا يخلو من إمام يمكن به معرفة الله، ولا سبيل إلى معرفة الله بدون معرفة الإمام. وإلى هذا الإمام أشار الرسل فى كافة العصور، كما أن للشريعة باطنا وظاهرا، الأصل هو الباطن، فإذا كان الناس عالمين بباطن الشرع (١٥٣) فلا بأس إن هم

=العباسية"، والاحتمال قوى فى أن النسخة (ح) هى وحدها الصواب؛ لأنه فضلا عن مطابقتها لدستور المنجمين وهى نسخة قديمة ذات قيمة بالغة عن الإسماعيلية النزارية، وقد بقى أصل النسخة منذ عهدهم – فإن موسى بن جعفر كان معاصرا طيلة حياته تقريبا لمحمد بن إسماعيل وليس لإسماعيل.

(١) المترجم: كتب الأستاذ القزوينى بحثا واسعا عن ميمون القداح وابنه عبد الله فى حواشى الجزء الثالث من جهانكشاى ص ٣١٢ – ٣٤٣، وقد استند برنارد لويس فى كتابه The Origins of Ismailism الذى نشر فى سنة ١٩٤٠م على بحث الأستاذ القزوينى. أما إيفانوف فقد رجع لمناقشة الآراء المتعلقة بشخصيهما إلى مراجع إسماعيلية خالصة فى كتابه .Ismaili Tradition Concerning The Ris of The Fatimids المنشور فى سنة ١٩٤٢م، ثم عاد إيفانوف ونشر فى سنة ١٩٤٦م كتابا مستقلا عن صلة هذين الشخصين بالإسماعيلية بعنوان The Allaged Founder of Ismailism ناقش فيه بالتفصيل النصوص المتعلقة بهما وانتهى إلى نفس الآراء التى أجملها فى كتابه السالف الذكر.

(٢) المترجم: يريد به عبدان الكاتب، من كبار دعاة الإسماعيلية وصهر حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط رئيس القرامطة المشهور. ويورد ابن النديم فى الفهرست ص ١٨٩ أسماء بعض مؤلفات عبدان. وقد قتل عبدان فى حدود سنة ٢٨٠هـ. ويعرف سائر المؤرخين هذا الداعى باسم "عبدان" لا حسن شيخ عبدان كما ورد فى المتن. (انظر الفهرست ص ١٨٧ – ١٨٩، والتنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣٧٤، واتعاظ الحنفا للمقريزى ص ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥).

(٣) المترجم: المراد هو أبو الخطاب محمد بن أبى زينب مقلاص الأسدى الأجدع الذى تنسب إليه الفرقة المعروفة بالخطابية من غلاة الشيعة، وقد تناولنا مذهبه بشىء من التفصيل فى القسم الأول عند حديثنا عن نشأة الإسماعيلية.

استهانوا بالظاهر. وعلى هذا الأساس تعتبر مقالاتهم من مقالات أصحاب المذاهب، بمعنى أنها خارجة عن الملة.

حتى كان ظهور القرامطة فى عصر الخليفة المعتمد سنة ثمان وسبعين ومائتين، وتفصيل ذلك وارد فى التواريخ، وكان أولهم حمدان قرمط[١]. خرج فى سواد الكوفة لما التف حوله جماعة من الناس، فأعملوا أيديهم فى قتل المسلمين ونهب الأموال وسبى الذرارى، وكان يهاجم مدن العراق والشام، ثم يختفى فى البادية. واستفحلت فتنتهم وعجز الخلفاء عن التصدى لهم، وقد استولوا على البحرين[٢] وتوجهوا بعد ذلك إلى مكة،فقتلوا الحجيج، وملأوا بئر زمزم بجثث القتلى، وقطعوا الحجر الأسود[٣] واحتفظوا به خمسا وعشرين سنة[٤]، وقد طلب ملوك الإسلام أن يستردوه بمائة ألف دينار[٥]، إلا أنهم رفضوا بيعه. وفى نهاية الخمسة والعشرين سنة أحضروه إلى الكوفة وألقوا به فى جامع الكوفة ووضعوا معه ورقة كتب فيها: "أخذنا هذا الحجر بأمر ورددناه بأمر". وقد حمل أهل الإسلام[٦] الحجر إلى مكة ووضعوه فى مقره.

---

(١) المترجم: المقصود هو حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط الذى اشتق اسم القرامطة من لقبه على أشهر الأقوال. وتاريخ وفاته ليس معروفا، ولكن النويرى فى نهاية الأرب يشير إلى أن أثره قد فقد كلية قبل سنة ست وثمانين ومائتين بقليل، ولم يقف له أحد على أثر، ولم يعلم ماذا كانت نهايته. (انظر نهاية الأرب، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية جزء ٢٤ ورقة ١١٦).

(٢) المترجم: ليس المقصود بها الجزر الموجودة حاليا بهذا الاسم فى الخليج، بل فى الجهة المقابلة لها فى شبه الجزيرة العربية، وهى المنطقة التى يطلق عليها الآن اسم "حسا". (انظر كتاب الخليج العربى للدكتور جمال زكريا قاسم ص٢٧).

(٣) كذا فى بعض النسخ الخطية، وتقول النسخة (ح) وجامع التواريخ ورقة ١١ = ص ١٧ من طبعة طهران: "قطعوه نصفين" —وقد بحثت عجلا فلم أعثر فى أى موضع على ما يفيد بأن القرامطة قطعوا الحجر الأسود نصفين كما تقرر إحدى النسخ وجامع التواريخ، بل قال بعض المؤرخين، ومن بينهم المقريزى فى اتعاظ (ص ١٢٩ = ٢٤٥ طبع الدكتور الشيال): "شقوقا حدثت فيه بعد انقلاعه"، وقال الأزرقى وابن جبير إن الحجر الأسود قطع إلى عدة قطع، وسكت البعض الآخر، ومن بينهم ابن الأثير عن هذه الفقرة كلية. انظر قرامطة ديخويه ص ١٤٧.

(٤) المترجم: تبلغ المدة الحقيقية التى احتفظ فيها القرامطة بالحجر السود اثنين وعشرين عاما لا خمسة وعشرين. (انظر ابن الأثير ج٨ ص ١٩٢ فى حوادث سنة ٣٣٩، وتاريخ أبى الفدا فى حوادث نفس السنة، واتعاظ الحنفا للمقريزى ص ٢٤٣، ٢٤٦ طبع مصر).

(٥) كذا فى جميع النسخ الخطية، وكافة المؤرخين يذكرون خمسين ألفا، انظر قرامطة دى خويه ص ١٤٥.

(٦) وهذا أيضا مخالف لأقوال عامة المؤرخين؛ إذ يقولون إن القرامطة بعد أن علقوا الحجر مدة فى جامع الكوفة حملوه إلى مكة، وأعادوه إلى مكانه السابق. انظر اتعاظ ص ١٢٩ (ص ٢٤٦ طبع مصر)، ودى خويه ص ١٤٥.

وفى أثناء فتنة القرامطة قدم إلى ولاية الكوفة والعراق أحد دعاة الإسماعيلية، من أعقاب عبد الله بن ميمون القداح، وكان معه طفل وقال: "إننى داعى الإمام وظهور الإمام وشيك". وأرسل شخصا يسمى بلقاسم بن حوشب[1] إلى اليمن لكى يتولى أمر الدعوة بها. وكلفه بأن يرسل الدعاة إلى الأطراف. وقد تحسنت الأمور لأبى القاسم هذا ودخل جماعة فى (١٥٥) دعوته . وممن أرسلهم أبو القاسم رجل يقال له أبو عبدالله[2] الصوفى المحتسب[3] من قبيلة كتامة[4] بالمغرب – وكان قد دخل فى دعوة بلقاسم - ليتولى أمر الدعوة بها، وقد قبل أناس مذهبه، فكتب إلى ذلك الشخص الذى كان من أعقاب عبد الله بن ميمون، وأرسل إليه الرسائل؛ لأنه أقرب إلى الإمام من بلقاسم بن حوشب. (١٥٦) وكان ذلك الشخص يحرضه على الدعوة. فلما عظم أمر أبى عبد الله واستولى على بعض بلاد المغرب وحدود القيروان وسجلماسه توجه ذلك الشخص الذى كان من أعقاب عبد الله بن ميمون إلى تلك النواحى ومعه الطفل، ولدى وصولهما إلى سجلماسه استقبله أبو عبد الله الكتامى[5] وقد قام على خدمته وقال له: "إننى كنت أقوم بحكم هذه الولايات بصفتى نائبا عنك، أما وقد وصلت الآن فأنت أولى". قال: "إننى كنت أقول من قبل بأننى داعى الإمام حسب ما اقتضته المصلحة؛

---

(١) يريد به أبا القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب بن زادان النجار الكوفى الملقب بالمنصور، من مشاهير دعاة الإسماعيلية فى اليمن.

(٢) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بأبى عبد الله الشيعى.

(٣) لم أعثر بين كتب التواريخ على من يلقب أبا عبد الله الشيعى بلقب "الصوفى" إلا فى جامع التواريخ ورقة ١٣ = ص ٢٠ طبع طهران، حيث يسمى صاحب الترجمة (أبو عبد الله الصوفى الشيعى المشرقى)، ولكن نظرا لأن رشيد الدين قد استنسخ هذه الفصول بنفس عبارة جهانكشاى فى الغالب الأعم لذا لا يمكن اعتبار جامع التواريخ سندا مستقلا بذاته.

المترجم: غير أن المسعودى فى مروج الذهب ج ١ ص ٣٧١ وذيل الطبرى لعريب ص ٥٢ يسميانه: "أبو عبد الله المحتسب الصوفى".

(٤) المترجم: كان أبو عبد الله الشيعى بإجماع المؤرخين من أهل المشرق، وانتهى بعضهم إلى اعتباره من اهل الكوفة، واعتبره البعض الآخر من رامهرمز، وعده آخرون من صنعاء اليمن، فالمقريزى يرى فى اتعاظ الحنفا (ص٦٨ طبع الدكتور الشيال) أن أبا عبد الله كان "أصله من الكوفة.. من رامهرمز" بينما يرى ابن الاثير (ج٨ ص١٢ طبع ليدن) أنه كان من أهل صنعاء" وكذلك يرى القلقشندى فى صبح الأعشى (ج١٣ ص٢٤٠)، ويعتبره صاحب البيان المغرب (ج١ ص١٥٢) أنه كان " رجلا من أهل المشرق".

(٥) المترجم: هذا سهو واضح؛ لأن المؤرخين يجمعون على أن المهدى وابنه كانا قد وقعا فى قبضة اليسع بن مدرار والى سجلماسه قبل أن يقدم أبو عبد الله الشيعى على فتحها. ولقد بدا لعبد الله المذكور حينئذ أنه لن يستطيع أن يخلص المهدى وابنه من أسر اليسع إلا إذا فتح المدينة، فتم له فتحها فى السابع من ذى الحجة سنة ستة وتسعين ومائتين.(انظر ابن عذارى فى البيان المغرب ج ١ ص ١٥١).

حيث إن وقت ظهور الإمام لم يكن قد حان. أما الآن فقد حان وقت الظهور، وأنا أقول إننى الإمام وأنا من (١٥٧) أبناء إسماعيل بن جعفر". وسمى نفسه عبد الله[١] المهدى، كما أطلق على الطفل اسم القائم بأمر الله محمد، ونصب نفسه إماما وخليفة، واجتمع عليه المغاربة وبخاصة بنو كتامة. وبنى مدينة المهدية فى أرض القيروان[٢] سنة ثمان وخمسين ومائتين[٣](صح: ثمان وثمانين).

ولما ارتفع شأنه أراد أن يفسد إيوان الشريعة، فأخذ يبدى التهاون فى أحكامها. فداخل أبا عبد الله الصوفى المحتسب شك فى شأنه، ففترت عزيمته فى هذا الأمر. وأراد يوسف أخو عبد الله[٤] العصيان، كما طلب إلى عبد الله أن يخرج على المهدى. ولهذا قتل المهدى أبا عبد الله وأخاه.

وكان ظهور المهدى بسلجماسه من بلاد المغرب، وكان استيلاؤه فى سنة ست وتسعين ومائتين. وفى سنة اثنتين وثلاثمائة[٥] انتصر على بنى الأغلب الذين كانوا ملوك

---

(١) كذا أيضا فى جامع التواريخ ورقة ١٧ ص ٢٦ ط. طهران (ذكرت مرتين) - على الرغم من أن جمهور المؤرخين قد كتبوا اسم المهدى عبيد الله إلا أن دستور المنجمين وهو من تواليف الإسماعيلية أنفسهم يقول فى ترجمة حياة المهدى ورقة ٣٣٥: " مولانا الإمام المهدى بالله أبو محمد عبد الله صلوات الله عليه .. وكان يقال له قبل الظهور عبيد الله". ولما كان المصنف فى هذا الجزء من كتابه يستعمل الكثير من مصادر الإسماعيلية أنفسهم فينبغى ألا نعتبر أن عبد الله فى المتن بدلا من عبيد الله سهو وتصحيف من النساخ.

(٢) ذلك الخطر ظاهر لأن المهدى ولد فى سنة ٢٥٩ أو ٢٦٠هـ أى بعد سنة أو سنتين من هذا التاريخ. (انظر ابن خلكان ١: ٤٩٢، واتعاظ ص ٤٤، ودستور المنجمين٣٣٥)، فكيف يمكن إذن أن يكون قد بنى المهدية فى سنة ٢٥٨هـ، أى قبل ولادته بسنة أو سنتين؟! ولما كان المهدى قد شرع فى فى بناء المهدية فى سنة ٣٠٣هـ وأتمها فى سنة ٣٠٨هـ فالصواب فى المتن إما ان يكون "ثلاث وثلاثمائة" إذا كان قصد الجوينى هو تاريخ البدء فى بنائها، وإما "ثمان وثلاثمائة" إذا كان يقصد تاريخ إتمامها. ولكن نظرا لأن كافة أعداد المتن ليست خاطئة بل تبقى كلمة "ثمان" صحيحة على الأقل فإن الاحتمال الثانى يبدو أرجح.

(٣) الهامش السابق (٢) .

(٤) المترجم: يكتب المقريزى اسم أخى عبد الله الشيعى: " أبا العباس محمد" (اتعاظ الحنفا ص ٦٨ طبع مصر) بينما يكتبه ابن خلكان (ج ١ ص ١٧٨): "أبا العباس أحمد " ولم نر مرجعا ذكر اسمه على النحو الوارد فى المتن.

(٥) المترجم: هذا مخالف لإجماع المؤرخين فكلهم بلا استثناء حدد تاريخ انقراض بنى الأغلب بسنة ست وتسعين ومائتين، فقد هرب آخر سلاطين بنى الأغلب أبو مضر زيادة الله بن أبى العباس من وجه أبى عبد الله الشيعى عندما حاصر عاصمته رقادة فى السنة المذكورة.(انظر ابن عذارى ج ١ ص ١٤٤ وما بعدها، تاريخ الولاة للكندى ص٢٦٧ وابن الأثير ج ٨ فى حوادث سنة ٣٩٦، واتعاظ الحنفا ص ٦٩ طبع القسطنطينية).

المغرب من قبل الخلفاء العباسيين وقضى عليهم، كما انتصر على كافة ممالك المغرب وإفريقية وصقلية. وهم يروون خبرا عن الرسول علية الصلاة والسلام أنه قال: "على رأس الثلاثمائة، تطلع الشمس من مغربها". وقالوا إن ظهور المهدى هو تأويل هذا الخبر، وقالوا أيضا كان بين محمد بن إسماعيل والمهدى ثلاثة أئمة مستترين (١٥٩) أسماؤهم محمد بن أحمد بن (١) وألقابهم الرضى(٢) والوفى والتقى(٣)، وقال المسلمون بولاية المغرب إن المهدى من أعقاب عبد الله بن سالم البصرى(٤) ومن دعاة تلك الطائفة، بينما قال أهل بغداد والعراق إنه من أعقاب عبد الله بن ميمون القداح. خلاصة القول أنهم كلهم أجمعوا على تكذيب انتسابه لإسماعيل بن جعفر وأنكروه. وفى عصر القادر بالله عقد محضر فى بغداد، قرر فيه الأعيان والسادات والقضاة والعلماء كتابة أن مذهب(٥) أولاد المهدى مقدوح، وأنهم كاذبون فى انتسابهم لجعفر الصادق (١٦٠) رضوان الله عليهم - وسوف نثبت نص هذا المحضر فى أثناء ذكر "الحاكم" خامس أعقاب المهدى - وقد تولى المهدى ستا وعشرين سنة وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

---

(١) جامع التواريخ ١٧ = ص ٢٦ ط طهران: محمد بن أحمد، يقول دستور المنجمين تحت عنوان " الأئمة الثلاثة المستورين " ورقة ٣٣٥: "ويقال إسلامهم (ظ:أسماؤهم) محمدبن أحمد"، وهكذا يلاحظ أن اسم الإمام الثالث من الأئمة المستترين لا يرد حتى فى دستور المنجمين وهو من كتب الإسماعيلية أنفسهم.

(٢) جامع التواريخ ١٧: رضى(مشددا) = وفى النسخة المطبوعة بطهران ص ٢٦ك رضى بدون تشديد. ودستور المنجمين ورقة ٣٣٥: "الرضى، الرضى" فى موضعين وقد قرأ دخويه فى رسالة القرامطة ص ٥ و٩ كلمة الرضى هذه (الرضا) رغم أنه نقل فى ص ٢٠٤ من نفس الرسالة نص عبارة دستور المنجمين وطبع هذه الكلمة صوابا وبوضوح تام مرتين: "الرضى" بالياء المشددة.

(٣) جامع ١٧ = ص ٢٦ ط طهران، ابن خلكان ج ١ ص ٢٩٣: "وقيل هو (أى المهدى) عبيد الله بن التقى بن الوفى ابن الرضى".

(٤) المترجم: لا يذكر الطبرى وابن الأثير والمقريزى فى الخطط واتعاظ الحنفا اسم عبد الله سالم البصرى، وإن كان الطبرى يسمى عبيد الله المهدى فى موضعين من تاريخه (القسم الثالث ص ٢٢٩١،٢٢٩٢) " ابن البصرى". بينما يذكر عريب بن سعد اسم عبد الله بن سالم البصرى فى ذيل تاريخ الطبرى (ص ٢٧ - ٢٨ طبع المطبعة الحسينية): "عبيد الله هذا القائم بإفريقية هو عبيد الله بن عبد الله بن سالم. وكان عبيد الله يعرف أول دخوله القيروان بابن البصرى".

(٥) المترجم: كذا فى جميع النسخ الخطية: "مذهب" جامع ١٧ = ص ٢٦ ط طهران: "نسب" ويبدو أن هذا هو المعنى المقصود.

جلس مكان ابنه القائم، وخرج فى عهده رجل من أهل المغرب يقال له أبو يزيد[1]، وكان رجلا مسلما متدينا سنى المذهب ورعا. وعدد على الناس بدع المهدى والقائم، فتابعه بعض الناس، واشتبك فى قتال مع القائم، فهزم جيشه وحوصر فى المهدية. وأطلق عليه أتباع القائم اسم الدجال؛ لأنهم ذكروا فى الملاحم أن دجالا سوف يخرج على المهدى أو على القائم.

وقد توفى القائم فى أثناء تلك المعارك فى شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، فظل نبأ وفاته فى طى الكتمان.

وجلس مكانه ابنه المنصور إسماعيل، وبدأ فى الإعداد لمقاومة أبى يزيد وكان رجلا صاحب رأى شجاعا. فانتصر على أبى (١٦١) يزيد وهزمه، وتابع السير فى أثره مدة واشتبك معه وفى النهاية أسره وقتله.

وأمر بأن يطاف بجثته فى بلاد المغرب، وجلس مكان أبيه، وأظهر موته. وقد توفى هو أيضا فى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وجلس مكانه ابنه المعز أبو تميم معد، كان رجلا صاحب رأى، مدبرا، شجاعا، موفور الحظ، ساس الملك على الوجه الأكمل، واتسع ملكه عن ملك آبائه، وقد قصر جل همه على طلب ملك مصر، التى كانت فى ذلك الوقت فى يد كافور الإخشيدى. فأرسل المعز إليها غلامه أبا الحسن جوهر فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة كى يدعو له. فاستجاب له خلق كثير، وقد استمال كافور بعد ذلك، ودعاه فاستجاب له. فخطب فى مصر باسم المعز مناوأة للخلفاء العباسيين.

وقد توفى كافور فى نفس السنة أى سنة ثمان وخمسين[2]. واستقل جوهر بملك مصر من قبل المعز. وفى نفس السنة أيضا وضع أساس مدينة القاهرة على امتداد الفسطاط فاكتمل بناؤها سنة اثنتين وستين (١٦٢) وسموها القاهرة المعزية.

---

(١) المترجم: يريد به أبا يزيد مخلد بن كيدار خرج على القائم الفاطمى. كان بإجماع المؤرخين من الخوارج الإباضية (انظر التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣٣٣ – ٣٣٥، الفهرست لابن النديم ص ١٨٧. ويقول عنه المقريزى فى اتعاظ الحنفا ص ١٠٩ طبع مصر: "كان مذهبه تكفير أهل الملة واستباحة الأموال والدماء".

(٢) المترجم: توفى كافور على أشهر الأقوال فى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، ويقول فى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، ويقول آخر فى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. أى قبل قدوم جوهر إلى مصر (٣٥٨هـ) بسنة على الأقل وبثلاث سنين على الأكثر. وهكذا يلاحظ أن الفقرات السابقة المتعلقة بعلاقات جوهر بكافور بعد قدوم جوهر إلى مصر باطلة كلية. (انظر الولاة للكندى ص ٢٩٧، ابن الأثير حوادث سنة ٣٥٦ – ٣٥٨، ابن عذارى ج ١ ص ٢٣٦، الخطط للمقريزى ج ٣ ص ٤١ – ٤٢).

ووصل المعز إلى مصر فى رمضان سنة اثنتين وستين بجيوش لا حصر لها وتجملات لا نهاية لها. وجعل من القاهرة عاصمة له، وخرجت مصر وأرض الحجاز من قبضة تصرف بني العباس ودخلت في يد المعز، فبسط العدل والإنصاف فى تلك الممالك، وتتردد على الألسنة حكايات عجيبة عن مظاهر عدله وآثار إنصافه. وقد توفى فى ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة.

جلس مكانه العزيز أبو منصور نزار فدخلت ممالك المغرب ومصر والحجاز فى حوزته. وحكايات قتاله وحروبه وظفره على البتكين[١] المعزى[٢]، حاكم الشام من قبل الطائع لله، والحسن بن أحمد القرمطى الذى كان قد قدم لمدد البتكين، مذكورة فى تاريخ المغاربة. وكانت وفاته فى رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وكان العزيز رجلا حسن السيرة حليما، فمن حلمه أن الحسن بن بشر[٣] (١٦٣) الدمشقى هجاه هو ووزيره ابن كلس[٤] وكاتب إنشائه أبا منصور[٥] الدروانى[٦] بهذه القطعة[٧]:

---

(١) اسم هذا الشخص مكتوب فى ابن الأثير الفتكين" فى جميع المواضع، ومنها ٢٦٠:٨ وما بعدها، وفى الخطط "افتكين" ومنها ٦٦:٤.

(٢) "الفتكين التركى مولى معز الدولة بن بويه" (أيضا ٢٦٠:٨)، "قدم الأتراك عليهم الفتكين وهو من أكابر قوادهم وموالى معز الدولة" (ابن الأثير ٢٥٥:٨) "الفتكين مولى احمد بن بويه الملقب بمعز الدولة" (دستور المنجمين ٣٤١).

(٣) انظر ابن الأثير ٤٨:٩ فى حوادث سنة ٣٨٦.

(٤) هو أبو الفرج يعقوب بن ... كلس بكسر كاف ثم لام مشددة، وزير العزيز الفاطمى، انظر ابن خلكان فى حرف الياء ج ٢ ص ٥٠٠ - ٥٠٤، وابن الأثير ٤٨:٩، الخطط للمقريزى ٦٧:٤ وغيرها.

(٥) ابن الأثير ٤٨:٩ ومختصر الدول لابن العبرى ٣١٠: أبو نصر، ولا شك فى أن هذا هو الصواب وأن أبا منصور تصحيف من النساخ؛ لأنه فضلا عن ابن الأثير وابن العبرى فإن اسمه يرد صريحا فى الأشعار الآتية (أبو نصر)، غير أننا أبقينا المتن على حاله؛ نظرا لاتفاق النسخ، وهذا هو نص عبارة ابن الأثير: "كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقى وكان كثير الهجاء، فهجا يعقوب بن كلس وزير العزيز وكاتب الإنشاء من جهته أبا نصر عبد الله ابن الحسين القيروانى فقال: قل لأبى نصر الأبيات".

(٦) ابن الأثير: القيروانى (وسبق ذكر نصه فى الحاشية السابقة)، ويغلب على الظن أن "دروانى" فى المتن مصحف "القيروانى" الموجودة فى ابن الأثير، وخصوصا أن هذه الحكاية قد نقلت عنه حرفا بحرف، أو نقلها الاثنان من مصدر مشترك.

(٧) هذه الأبيات مذكورة فى ابن الأثير ٤٨:٩ ومختصر الدول لابن العبرى ص ٣١، وقد بحثت عجلا فلم أجدها فى موضع آخر.

قـل لأبى نصر [1] كاتب القصر والمتـأتـى[2] لنقـض ذا الأمـــــر
انقــض عــرى الملك للوزير تفز منـــه بحســـن الثنـــاء والذكـر
(١٦٤) وأعـط وامنع[3] ولا تخف أحدا فصاحب القصر ليس فى القصر
وليس يدرى[4] مـاذا يـراد بـه وهـــو إذا درى فمـــا يـــدرى

فشكاه ابن كلس إلى الوزير وأنشده هذه القطعة، فقال لـه: "هـذا شـىء اشـتركنا فـى الهجاء به[5] فشاركنى فى العفو عنه. فنظم مرة ثانية هجاء آخر، وأضاف فيه الفضل قائد جيشه[6]:

تنصـــر فالتنصـــر دين الحـــق عليـــه زماننـــا هـذا يـدل
وقـل بثلاثـة عــزوا وجـــلوا وعطل ما سواهـــم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا الـــعزيز ابن وروح القدس فضل

ومرة ثانية عرض الوزير[7] هـذا الشعر على العزيز، الـذى قـال رغـم شـدة غضبـه: "اعف عنه"[8] وعفا عنه مرة أخرى.

وفى النهاية دخل الوزير على العزيز فى المرة الثالثة (١٦٥) وقـال لم يبـق للعفـو عـن هذا معنى؛ فهو نقصان لهيبة الملك؛ فقد قال هـذه المرة شعرا فاحشا فى حقـك أنـت العزيز وفى أنا الوزير ونديمك ابن زبارج[9] فى هذه القطعة[10]:

زبارجى نديم وكلسى[11] وزير
نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

---

(١) كذا أيضا فى ابن الأثير ومختصر الدول، والوزن يقتضى ترك تنوينه فالظاهر أنه منع من الصرف لضرورة الشعر.
(٢) مختصر الدول ٣١٠: والمتأنى (بنون بدلا من التاء الثانية).
(٣) كذا أيضا فى مختصر الدول ٣١٠، ابن الأثير: أو امنع.
(٤) كذا ابن الأثير ومختصر الدول.
(٥) ابن الأثير: فيه فى الهجاء (بدلا من "فى الهجاء به").
(٦) بحثت عجلا فلم أجد هذه الأبيات إلا فى ابن الأثير ٩:٤٨.
(٧) ابن الأثير: "فشكاه (الوزير) أيضا إلى العزيز".
(٨) كذا فى ابن الأثير (بدون حركات).
(٩) ابن الأثير ٩:٤٨.
(١٠) بحثت عجلا فلم أعثر على هذين البيتين فى موضع آخر غير ابن الأثير ٩:٤٨.
(١١) كذا فى ابن الأثير (بدون حركات)، والواضح أن المقصود هو يعقوب بن كلس الوزير.

فغضب العزيز وأمر الوزير بالقبض عليه، ثم عاد فأسف على ما بدر منه، وأشار بإطلاق سراحه. ولما عرف الوزير بذلك بادر بقتله قبل وصول الرسول، فأسف العزيز على ذلك وأصابه الحزن.

وكان العزيز قد أعطى الشام ليهودى يقال له منشا[1]، كما أعطى مصر لنصرانى يقال له عيسى بن نسطورس[2] وكانا يظلمان المسلمين، ويعتديان عليهم بسبب العقيدة. فأرسلت امرأة رقعة إلى العزيز تقول فيها: "يا أمير المؤمنين (١٦٦) بالذى أعز اليهود بمنشا[3] بن لئام[4] والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا نظرت فى حالى". فتأثر العزيز بما جاء فى هذه الرقعة وعزلهما، وأخذ من النصرانى ثلاثمائة ألف دينار ورد مظالمه. وقد فرض فى مناسبات مختلفة على اليهود والنصارى مؤن المسلمين.

وقد تولى بعده ابنه الحاكم أبو على منصور وهو فى الثانية عشرة[5] من عمره، وكان بقدر ما عند أبيه من الحلم عنده من الطيش والجنون[6]، فقد أذاق أهل مصر غاية الظلم والعسف، وكان من عاداته أنه إذا ركب رفعوا إليه المظالم فيستمع إليها ولا ينكر بأى حال ما تشتمل عليه من مظالم. فكانوا يناولونه الأوراق يتضمن معظمها فحشا وشتما فيه وفى آبائه وأجداده وتقرير فساد نسبه.

---

(١) كذا أيضا فى ابن الأثير ٩: ٩٨، وتاريخ ابن القلانسى ص ٣٣: منشا بن إبراهيم الفرار، وتاريخ حلب لابن العديم (نسخة باريس Arabe 1666 ورقة ٤٩): أبو سهل منشا بن إبراهيم اليهودى القزاز (بقاف وزايين معجمتين أولاهما مشددة)، أبو الفدا ج ٢ ص ١٣٨، ميشا.

(٢) كذا أيضا فى ابن الأثير ٩: ٤٨، وابن القلانسى ص ٣٣، ٤٦.

(٣) كذا أيضا فى ابن الأثير وابن القلانسى.

(٤) جامع ٣٢ (= ص ٤٩ طبع طهران)، لا يذكر كل من ابن الأثير وابن تغرى بردى وأبو الفدا اسم أبى منشا، وابن القلانسى يقول مرتين فى ص ٣٣: منشا بن فرار، ومرة واحدة منشا بن إبراهيم بن الفرار، انظر ص ١٦٥ ج ٧.

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٩: "فولى وعمره أحدى عشرة سنة وستة أشهر".

(٦) المترجم: استعملت فى ترجمة هذه الجملة نفس أسلوب ابن الطقطقى فى "الفخرى" ص ١٥٩ عند عقده مقارنة بين تيقظ المأمون وإهمال الأمين وتفريطه.

لدرجة أنهم أعدوا تمثال امرأة من الورق (١٦٧) وألبسوها ملاءة في زى امرأة[1]، ووضعوا في يدها ظلامة مختومة ونصبوها فى طريقه الذى يمر به. فلما وصلت الورقة من يدها إلى الحاكم الظالم وجد شتائم وفحشا قبيحا وفضائح ومخازى له ولأسلافه. فغضب وأمر بالقبض على المرأة، فلما سارعوا إليها وجدوها تمثالا. فأمر العبيد والأجناد – من شدة غيظه من ذلك – بحرق مصر وقتل أهلها، فثار أهل مصر لدفع هذه الشناعة والذب عن حريمهم، إلا أن أصحاب الحاكم كانوا يحرقون كل موضع عجز أهل مصر عن الدفاع عنه، ويغيرون عليه. وكان الحاكم يذهب بنفسه كل يوم لمشاهدة تلك الحال، ويتظاهر بأن هذه الأفعال إنما تؤدى دون رضاه وإذنه. وفى اليوم الثالث من بدء هذا الحال لجأ مشايخ مصر وأربابها إلى المسجد الجامع، ورفعوا المصاحف على فروع الأشجار، ورفعوا المظالم وقالوا: "لو كان هذا الفساد ينفذ دون إذنك وأمرك، فأذن لنا، نحن عبيدك ورعاياك، بدفع المفسدين ومنعهم". (١٦٨) قال: "لم آمر بهذا الفساد، فهلا دفعتموه أنتم؟". وقال للجند: "امضوا فيما بدأتم فيه". فلما انشغلوا بالقتال ساق غوغاء المدينة الجنود إلى باب القاهرة، حيث محط رجال الحاكم، فخاف وأشار بمنع الجند. مجمل القول أن ربع مصر قد احترق فى هذه الواقعة وتعرض نصفها للغارة. وقد ارتكب غلمان الحاكم الكثير من الفضائح مع حريم أهل مصر فقتل أرباب الشرف والمروءة أنفسهم خشية العار.

وقد اعتاد الحاكم أن يطوف الأسواق ليلا ليتفقد أحوال الرعية. وكان أيضا يدفع بالعجائز وينظمهن للتجسس على أحوال النساء، والتعرف على أمورهن بحيث يدخلن قصور الناس ويخرجن منه، ينهين إليه ما صدق وما كذب عن النساء وأهل الستر. وقد قتل من جراء هذا خلقا من النساء، وأرسل مناديا ينادى بأن تمتنع النساء عن الخروج من البيوت، ولا يسرن على السطوح ولا يخيط الإسكافيون أحذية النساء.

وكان قد منع الناس من شرب الخمر فلما لم يمتنعوا أمر باقتلاع معظم أشجار العنب.

---

(١) هذه الحكاية بتمامها مطابقة حرفا بحرف تقريبا لابن تغرى بردى (فى النجوم الزاهرة) (ج ٢ ص ٦٦) الذى نقلها من تاريخ الصابى، والاحتمال قوى فى أن الجوينى نقل أيضا عن نفس المصدر أى عن ابن الصابى، وهذا هو نص الفقرة المعادلة فى النجوم الزاهرة: "عملوا تمثال امرأة من قراطيس بخف وإزار ونصبوها فى بعض الطرق، وتركوا فى يدها رقعة كأنها ظلامة". انظر أيضا ابن الأثير ٩: ٤٨، ١٣٠.

ولمحة أخرى من عادته، إذ كان يكتب الرقاع بخط يده بعضها يقول: "امنحوا من حمل هذه ألف دينار أو مدينة كذا (١٦٩) أو خلعة ثمينة" وبعضها الآخر يقول: "اقتلوا من حمل تلك، أو خذوا منه جزءا من المال، أو اقطعوا عضوًا من أعضائه ونكلوا ومثلوا به" ثم يختم الرقاع بالشمع والعنبر والطين المختوم[١]، وينشرها أيام الاحتفالات فيتناول كل شخص، في غاية الحرص، رقعة من هذه الرقاع وفقًا لحظة ويحملها إلى متصرفى الأعمال، بحيث ينفذ ما اشتملت عليه الرقعة فى الحال.

وقد أصدر الحاكم أمرًا بمنع النصارى واليهود من ركوب الخيل والبغال ومن امتلاك الركاب الحديد. وأن يكون لكل واحد منهم جرس[٢] يعلق فى صدره كقلادة حتى يميزهم عن المسلمين.

وبسبب هذه الحركات المذمومة اشمأز أهل البلد – مسلمين وذميين – من ذميم أفعاله وسوء أحكامه، وملّ منه حرمه وبطانته وخواصه.

وقد اتهم أخته ست الملك بابن دواس[٣] الذى كان أميرًا من أمرائه ومقدم جيوشه ومدبر أموره. فأبلغت أخته هذا الكلام فى رسالة إلى ابن دواس واتفقا على قتل الحاكم وإقامة ابنه عليا بعده، وتعاهدا واستقرا على أن يهلكاه. فأعطيا ألف دينار[٤] لغلامين من غلمان ابن دواس كى يعدا كمينًا على جبل المقطم[٥] القريب من القاهرة (١٧٠) فإذا ما توجه الحاكم مع الركابى إلى هناك وفقًا لعادته وثبا عليه لقتله. وكان الحاكم يدعى العلم بالنجوم، وكان قد تنبأ بأن تلك الليلة ستكون فاصلا بالنسبة له إذا عبره جاوز الثمانين، وأخبر والدته بهذا فبكت كثيرًا وتوسلت إليه قائلة إن من الأفضل ألا يتحرك الليلة . فالتزم كلام الوالدة. فلما حل السحر استولى عليه الضجر، فلم يطق

---

(١) الطين المختوم طين أحمر اللون يستعمل فى الطب. (تحفة المؤمنين وبرهان قاطع فى "كل مختوم").

(٢) جامع ٣٧ (= ص ٥٥ طبع طهران) "وأعدوا جرسًا به عدة قلادات"، الخطط ٤:٧٣: "ألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم جرس إذا دخلوا الحمام".

(٣) انظر ابن الأثير ٩:١٣٠، ١٣١١، والنجوم ٢:٧١: "سيف الدولة ابن دواس من شيوخ كتامه".

(٤) ابن الأثير ٩:١٣١، والنجوم ٢:٧٢: ألف دينار.

(٥) "خرج الحاكم إلى الجبل المعروف بالمقطم ليلة الإثنين السابع والعشرين من شوال يعنى سنة إحدى عشرة وأربعمائة فطاف ليلته كلها، وأصبح عند قبر الفقاعى، ثم توجه شرقى حلوان موضع بالمقطم، ومعه ركابيان إلخ" (ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٢:٧٥ نقلا عن الفقاعى).

السكون والراحة، ولم يستطع النوم والاستقرار، وقد بكت أمه كثيرًا، وتعلقت بطرف ثوبه، ولكن ذلك لم يُجد نفعًا، وقال: "لو لم أتحرك هذه اللحظة فإن روحى ستطير من جسدى". فتوجه – على عادته – إلى المقطم مع راكبيه. فخرج الغلمان من الكمين وفتكا به هو والركابى، وأحضرا جثته لإخفائها لدى أخته، فدفنته فى قصرها، ولم يطلع أحد على ذلك السر اللهم إلا الوزير الذى أطلعاه عليه بعد التأكيد والتحليف. ولما علم الوزير اتفق معهما فى تدبير الأمر وتسكين الناس. فكانوا ينسبون سبب غيبته إلى أنه غاب مدة تستغرق سبعة أيام، وكانوا يحضرون كل يوم شخصًا مختلفًا ليخبر الناس بأن الحاكم فى المكان الفلانى.

(١٧١) قصارى القول أنهم أطلعوا الأعيان والأركان، وبعد أخذ العهود وإطلاق العطايا بايعوا ابنه أبا الحسن عليًّا، ولقب بالظاهر بالله[١] وأجلس على العرش. وأظهرت (ست الملك) نبأ وفاة الحاكم، ومنحت ابن دواس خلعًا فاخرة، وولته أمور الملك.

وعندئذ استدعت نسيمًا الخادم الذى كان قهرمان القصور وأفضل الغلمان، وكان يلازمه على الدوام مائة غلام مسلحين بالسيوف لحراسة الخليفة، ووضعت معه خطة لقتل ابن دواس، واحتالا بأن جعلا هؤلاء الغلمان المائة ملازمين لركاب ابن دواس حتى دخل القصر يومًا فأمرت (ست الملك) به، فأغلق نسيم أبواب القصر وأحكمها وقال للغلمان: يقول مولانا الظاهر: اقتلوا ابن دواس قاتل أبى الحاكم[٢]، فأعملوا فيه السيوف حتى قضوا عليه. وبعد الفراغ منه قامت ست الملك (١٧٢) فى مدة وجيزة بالقضاء على كل من شاركه فى قتل الحاكم أو اطلع عليه، واستقلت هى وانفردت بتدبير أمور الدولة وترتيب مصالح المملكة وقامت هيبتها فى قلوب أرباب الحل والعقد وأعيان الدولة.

---

(١) جامع ٤٣ (= ص ٦٤ ط طهران): الظاهر لدين الله وقد ضبط كافة المؤرخين لقبه "الظاهر لإعزاز دين الله"، وليس الظاهر بالله ولا الظاهر لدين الله. انظر ابن الأثير ٩: ١٣٢، ١٨٦، وأبى الفدا ٢: ١٥٨، ١٦٧ وابن خلكان ١: ٤٠٢، وابن القلانسى ٨٣ والخطط للمقريزى ٢: ١٦٧، وابن تغرى بردى (فى النجوم الزاهرة): ١٢٩ وما بعدها، ودستور المنجمين ورقة ٣٤٢، وابن العبرى ٣١٣.

(٢) "هذا قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه" (ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٢: ٧٧).

وكان قتل الحاكم وتخليص الله تعالى لخلائق تلك البلاد من ظلمه وغشمه وأفعاله الذميمة وأخلاقه اللئيمة فى شوال[1] سنة إحدى عشرة وأربعمائة، من ملك الموت إلى مالك[2].

وقد تولى الظاهر الخلافة خمس عشرة سنة وكانت وفاته فى شهور[3] سنة سبع (١٧٣) وعشرين وأربعمائة.

* * *

(١) المتفق عليه بين المؤرخين هو أن الحاكم فقد وقتل فى ٢٧ أو ٢٨ شوال، انظر ابن الأثير ٩: ١٣٠، وابن خلكان ٢: ٢٥١، والخطط ٢: ١٦٧، ٤: ٧٤، وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٢: ٨١ وأبى الفدا ٢: ١٥٨، ودستور المنجمين ٣٤٢.

(٢) اسم خازن جهنم، انظر كتب التفاسير فى تفسير آية ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾، وهذه العبارة، مصراع من بيتين لأبى الفتح البستى أوردهما الثعالبى فى الإيجاز والإعجاز وهما:

قلت له لما قضى نحبه　لا ردك الرحمن من هالك

أما وقد فارقتنا فانتقل　من ملك الموت إلى مالك

(٣) توفى على وجه التحديد فى الخامس عشر من شعبان من السنة المذكورة، انظر ابن الأثير ٩: ١٨٦، وابن خلكان ١: ٤٠٣، وابن القلانسى ٨٣، وأبى الفدا ٢: ١٥٩، والخطط ٢: ١٦٩، وابن تغرى بردى فى النجوم ٢: ١٣٦.

ذكر محضر المهدى المقدوح

فى سنة تسع وثلاثمائة[1] (صح: إحدى وأربعمائة)، كان صاحب الموصل من قبل الخلفاء العباسيين فى عهد القادر بالله هو معتمد الدولة أبو منيع[2] قرواش بن المقلد العقيلى. وقد بدأ الحاكم الكتابة إليه، وكان يرسل إليه من مصر (١٧٤) التحف والعطايا بعضها فى أثر بعض ويدعو لمبايعته، فاستجاب له معتمد الدولة، وحرض أهل الموصل على طاعة الحاكم ومخالفة القادر بالله، وقرأ الخطبة باسم الحاكم، وتوجه من هناك إلى الكوفة، وجعل الخطبة هناك أيضًا باسمه[3]. وفى ذلك الوقت كان بهاء الدين ابن عضد الدولة قد ذهب إلى فارس، فلما علم بهذا الأمر أرسل شخصًا إلى معتمد الدولة وشدد عليه، فأسف معتمد الدولة من فعلته وأفرغ ذهنه من ربقة طاعة الحاكم. فقرئت الخطبة مرة أخرى فى البلاد المذكورة باسم القادر بالله، فصار مخصوصًا بالخلع الثمينة من دار الخلافة. وتفصيل هذا الأمر وكيفيته مسجلة فى كتب التاريخ، فلنسلك هنا سبيل الإيجاز. والغرض من هذا هو نقل المحضر الذى أجمعوا فيه على بطلان نسبهم، وهذه نسخته[4]:

---

(١) وذلك خطأ واضح، والصواب "إحدى وأربعمائة" كما ذكرنا فى المتن بين قوسين؛ أولا لأن هذه الواقعة – يعنى قراءة قرواش الخطبة فى ممالكه باسم الحاكم – تذكر بإجماع المؤرخين فى وقائع سنة ٤٠١ (انظر ابن الأثير ٩: ٩٢، وابن خلكان ٢: ٢٣٧، وأبا الفدا ٢: ١٣٩، وابن تغرى بردى فى النجوم ٢: ١٠٧ – ١١٠). ثانيًا لأن ولادة الحاكم كانت فى سنة ٣٧٥هـ أى بعد ٦٦ سنة من سنة "تسع وثلاثمائة" فكيف يمكن إذن أن يكون قرواش قد قرأ الخطبة باسم الحاكم قبل ولادته بست وستين سنة؟!

(٢) والصواب " أبو المنيع" بألف ولام، انظر ابن الأثير ٩:٨٢، وابن خلكان ٢:٢٣٦، ٢٣٧،والنجوم ٧:١٠٧ وغيرها وقد صححنا قرواش عن ضبط ابن خلكان ٢:٢٣٩.

(٣) "وفى هذه السنة (٤٠١) أيضًا خطب قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل للحاكم بأمر الله العلوى صاحب مصر بأعماله كلها وهى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها" (ابن لأثير ٩:٩٢).

(٤) ذكر هذا المحضر أيضًا، باختلاف يسير مع جهانكشاى، أبو الفدا فى ٢:١٥٠، والمقريزى فى الاتعاظ ٢٢ ـ ٢٣ (=٥٨ ـ ٦٠ طبع مصر)، وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٢:١١٢ –١١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما شهد به الشهود أن معد[1] بن إسماعيل[2] المستولى[3] على مصر هو معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن[4] بن سعيد[5]، وأنهم منتسبون إلى ديصان بن سعيد الذى انتسب إليه الديصانية، وأن سعيدا المذكور[6] صار إلى المغرب[7] وتسمى[8] بعبد الله[9] وتلقب[10] بالمهدى وأن هذا الناجم[11] بمصر هو منصور الملقب[12] بالحاكم - حكم الله عليه بالبوار والدمار - ابن نزار[13] بن معد[14] ابن إسماعيل[15] بن عبد الرحمن[16] بن سعيد[17] وإن من تقدمه (١٧٦) من سلفه الأرجاس النجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين أدعياء خوارج، لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، ولا يتعلقون منه بسبب[18]، وأن ما ادعوه من الانتساب إليه باطل

---

(١) أى المعز.

(٢) أى المنصور.

(٣) أى الذى استولى سابقا، يعنى المعز.

(٤) أى القائم، واسمه عند عامة المؤرخين محمد، ولكن المقريزى نقل فى الاتعاظ ص ٤٥ قولا أن اسمه عبد الرحمن، وذكر المسعودى فى التنبيه والأشراف ص ٣٣٤ أيضا أن اسمه عبد الرحمن.

(٥) هذا هو اسم المهدى على زعم أعدائه.

(٦) كذا فى جميع النسخ، وقد أضافت النجوم: لما. ولا نجد هذه الجملة فى أبى الفدا واتعاظ.

(٧) كذا فى جميع النسخ، ولا نجد هذه الواو فى النجوم، والجملة بأكملها ليست موجودة فى أبى الفدا واتعاظ.

(٨) كذا فى النجوم، وفى بعض النسخ يسمى، ولا نجد الجملة فى أبى الفدا واتعاظ.

(٩) النجوم: بعبيد الله، والجملة ليست موجودة فى أبى لفدا واتعاظ، وكما يبدو صراحة فى دستور المنجمين عبد الله كلاهما اسمان صحيحان للمهدى، انظر ص ١٥٧ ج ١ وما يقابلها من الترجمة العربية. إذا فلا موجب للتوهم بأن عبد الله فى المتن تصحيف عبيد الله.

(١٠) كذا فى النجوم، والجملة ليست موجودة فى أبى الفدا واتعاظ.

(١١) كذا فى بعض النسخ وأبى الفدا والنجوم واتعاظ.

(١٢) كذا فى جميع النسخ، وكذا أيضا فى النجوم، وأبى الفدا واتعاظ: المتلقب. ولعله أظهر.

(١٣) أى العزيز.

(١٤) أى المعز.

(١٥) أى المنصور.

(١٦) أى القائم، انظر حاشية (٤).

(١٧) أى المهدى، انظر حاشية (٥).

(١٨) هذه الجملة ليست موجودة فى أبى الفدا واتعاظ والنجوم.

وزور لم يتوقف أحد من أهل بيوتات الطالبيين[١] من[٢] إطلاق القول فى هؤلاء أنهم خوارج أدعياء، وأن هذا الإنكار لباطلهم كان شائعًا بالحرمين و[٣]فى أول أمرهم بالمغرب منتشرًا انتشارًا عظيمًا، وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق و[٤]زنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون[٥] ولمذهب الثنوية[٦] والمجوسية معتقدون، عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج و(١٧٧) أحلوا الخمور، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، وادعوا الربوبية، وكتب فى[٧] ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة وشهد بذلك من العلويين الشرفاء[٨] المرتضى والرضى الموسويان وجماعة منهم[٩]، وشهد من الفقهاء المعتبرين الشيخ أبو حامد الإسفراينى وأبو الحسن[١٠] القدورى وقاضى القضاة أبو محمد بن الأكفانى[١١] وأبو عبد الله البيضاوى[١٢]. وقد قرئ هذا المحضر على المنابر ببغداد وغيرها من البلاد.

---

(١) أبو الفدا واتعاظ لا يكتبان الجملة.

(٢) النجوم: عن. ولعله أصوب.

(٣) كذا فى جميع النسخ، والواو غير موجودة فى النجوم، وأصل الجملة غير موجود فى أبى الفدا واتعاظ.

(٤) كذا فى جميع النسخ، وهذه الواو غير موجودة فى أبى الفدا واتعاظ والنجوم.

(٥) كذا فى أبى الفدا واتعاظ، والجملة ليست موجودة فى النجوم.

(٦) النجوم: اليهودية، وليست الجملة موجودة فى أبى الفدا واتعاظ.

(٧) كذا فى جميع النسخ، وقد أضاف كل من أبى الفدا واتعاظ: شهر.

(٨) هذه الجملة غير موجودة فى النجوم، ولم يذكر كل من أبى الفدا واتعاظ اسم أحد من الشهود.

(٩) أى من العلويين الشرفاء.

(١٠) كذا فى جميع النسخ، النجوم: أبو الحسين، وهو المشهور فى كنيته.

(١١) النجوم: أبو محمد عبد الله بن الأكفانى، ابن الأثير ٩: ٩٨ وابن خلدون ٣: ٤٤٢ كلاهما: ابن الأكفانى.

(١٢) ابن خلدون ٣: ٤٤٢: أبو عبد الله البيضاوى، ابن الأثير ٩: ٩٨: أبو عبد الله بن البيضاوى (بإقحام كلمة ابن)، والنجوم لا تذكره.

ذكر جلوس المستنصر بن الظاهر

لما مات الظاهر كان ابنه أبو تميم معد في السابعة من عمره فأجلس على كرسى العرش (١٧٨) ولقب بالمستنصر. وكان مشهورا بوفرة الجنون وقلة العقل. ونظرا لما كان يأتيه من تلون في الأفعال، وتناقض فى الأعمال، وإسراف فى الأموال فى غير مصارفها القويمة والمنع في مواضع الإطلاق - اشتهر بالمستنصر المجنون. وقد روى فى الكتب وذكر في التواريخ روايات نادرة بعيدة كل البعد عما جرت عليه العادة عند الخلفاء والسلاطين وانتظمته رسومهم. ونحن نذكر هنا حادثة أو حادثتين طريفتين حتى يمكن التوصل عن طريقهما إلى كنه أمثاله ونظائر أفعاله.

أما الحادثة الأولى فهى عن إسرافه؛ وذلك أنه اعتاد أن يطلب عيون الجواهر القيمة من الخزانة، فيدقها كالكحل ويذروها فى جدول ماء. وكان بخيلا لدرجة أنه اضطر الجند - بسبب إمساك الأرزاق المعهودة ومنع الأطلاق المرسومة - إلى الشغب والثورة. فحصروه يوما فى القصر، وطلبوا رواتبهم، فكتب بخطه رقعة فى الاعتذار عن التقدير[1] والإمساك، ثم أرسلها إلى الجند:

أصبحت لا أرجو ولا أتقى   غير إلهى وله الفضل

جدى نبيى وإمامى أبى   وقولى التوحيد والعدل[2]

(١٧٩) المال مال الله والعبيد عبيد الله[3]، والعطاء خير من المنع، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

وأفعاله الباقية مماثلة لهذه الحكاية ويمكن قياسها عليها:

فإنها خطرت من وساوسه   يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

---

(١) "القدر التضييق كالتقدير، وقدر عليه الشيء قدرا وقدره ضيقه، قوله تعالى: ﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه﴾ أى ضيق (لسان وتاج).

(٢) هذان البيتان مذكوران فى تاريخ ابن القلانسى ٩٥، والنجوم ٢: ٢٤٠، ٣٣٩، والخطط للمقريزى ٤: ٧٣ وينسب المقريزى الواقعة المذكورة فى البيتين للحاكم، والنجوم فى الموضع الثانى للآمر بأحكام الله.

(٣) كذا أيضا فى ابن القلانسى ٩٥، والنجوم ٢: ٢٤٠ والعبد عبد الله، والخطط ٤: ٧٣ والخلق عباد الله.

وعلى هذا النحو قضى المستنصر عهده، وبقى فى الخلافة ستين عاما[1]، قال الله تعالى: ﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما﴾.

وكان له ولدان، أحدهما يسمى أبا منصور نزار. جعله فى البداية وليا للعهد ولقبه بالمصطفى لدين الله. ثم تراجع عن ذلك وخلعه، وجعل ابنه أبا القاسم أحمد وليا للعهد ولقبه المستعلى بالله[2].

وقد انقسم أئمة البدعة وأعيانها بعد وفاة المستنصر إلى فريقين: فريق قال بإمامة نزار؛ على اعتبار أن النص الأول هو الصحيح. وكان من هذه الفرقة الإسماعيلية، يعنى ملاحدة العراق والشام وقومش[3] وخراسان، وكان يقال لهم النزارية. وأثبتت الفرقة الأخرى إمامة المستعلى (١٨٠) وهم إسماعيلية مصر وتلك الديار ويقال لهم المستعلوية[4].

وفى عهد المستنصر أظهر الحسن بن الصباح الدعوة بولايات الديلم على التفصيل الآتى فيما بعد. وقد أطلق على طائفة النزارية اسم الإلحاد لأنهم رفعوا – فى دعوة الحسن بن الصباح – الشرائع المحمدية (التى سنها الرسول) عليه السلام، وأباحوا المحرمات. قال الله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾. ولكن طائفة المستعلوية لم ينسلخوا عن ظاهر الشرع، واقتدوا بسنن آبائهم وأجدادهم.

وقد تابع أجناد مصر وأهاليها المستعلى وأجلسوه على عرش الخلافة. وهرب نزار مع ولديه من المستعلى، وتوجه إلى الإسكندرية، فقبل أهلها بيعته. فأرسل المستعلى جيوشا حصرته مدة فى الإسكندرية، وفىالنهاية سلمت الإسكندرية وحمل هو وابناه إلى مصر. وقد ظل الثلاثة فى السجن بالقاهرة إلى أن قضوا نحبهم. وتدعى طائفة النزارية أن أحد أبناء نزار، الذى انتقلت إليه الإمامة – وفق مذهبهم الباطل – ترك ابنا

---

(١) كانت وفاة المستنصر فى ١٨ من ذى الحجة سنة أربعمائة وسبع وثمانين.

(٢) المترجم: هذا سهو واضح؛ لأن الذى خلع نزارا من ولاية العهد هو أمير الجيوش شاهنشاه بن بدر الجمالى المعروف بالأفضل وليس المستنصر، ولقد تم خلع نزار بعد وفاة المستنصر (انظر ابن القلانسى ص ١٢٨ وابن الأثير فى حوادث سنة ٤٨٧، وابن ميسر ص ٣٤ – ٣٥).

(٣) المترجم: قومش وقومس كانت إحدى الولايات الصغيرة الواقعة فى الجنوب الشرقى لسلسلة جبال البرز (انظر حاشية (١) على ترجمة بويل الإنجليزية لهذا الموضع من جهانكشاى).

(٤) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٣٦،٢٣٨،٢٣٩،٢٤٣،٢٤٥،٢٤٧ فى جميع المواضيع: مستعلوية.

له فى الإسكندرية لم يعثر عليه (١٨١) أو يتعرف عليه أحد، وإليه ينتسب رئيس ملاحدة الموت الآن[١]. وسوف يأتى ذكر ذلك فى دعوة الملاحدة الجديدة.

وقد بقى المستعلى فى الخلافة إلى أن توفى[٢].

وقد جلس مكانه ابنه أبو على منصور[٣]، وفى الرابع من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة قضى عليه فجأة جماعة من غلاة المذهب النزارى.

ولما لم يكن قد أعقب ولدا فقد جعل ابن عمه أبا الميمون عبد المجيد بن محمد وليا للعهد[٤]، فقام مقامه، وصار خليفة، ولقب بالحافظ لدين الله. وبقى فى الخلافة عشرين سنة[٥].

وجلس مكانه من بعده أبو منصور إسماعيل[٦]، وقد لقب بالظافر، قتله عباس بن تميم الذى كان وزيره[٧] (١٨٢) ونصب مكانه ابنه أبا القاسم عيسى وهو الخامسة من عمره، وكان لقبه الفائز بالله[٨]. ولقد مات بعد أن مكث فى الخلافة ست سنوات[٩].

ونصب بعد موته ابن عمه أبو محمد عبد الله بن يوسف بن حافظ خليفة، ولقب بالعاضد لدين الله. وقد ظل فى الخلافة إلى أن استولى آل أيوب على مصر وبلادها.

---

(١) من هذا نعلم أن هذا الموضع من الكتاب ألف من قبل فتح قلاع الموت على يد هولاكو. انظر ج ١ مقدمة المصحح ص فد – فاه.

(٢) فى ١٧ صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

(٣) الملقب بالآمر بأحكام الله.

(٤) محمد هذا هو أبو الحافظ لدين الله بن المستنصر، ولم يكن خليفة، وكنيته أبو القاسم.

(٥) توفى فى الخامس من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

(٦) وهو ابن الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد المذكور.

(٧) فى منتصف المحرم، وبقول آخر فى سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة من المعلومات عن عباس بن تميم. انظر ابن الأثير فى حوادث سنتى ٥٤٤ و ٥٤٨، وابن خلكان ج ١ ص ٤٠٧، وأسامة بن منقذ فى كتابه "الاعتبار" طبع فيليب حتى ص ١٨ – ٢٩، وقد ورد اسم عباس بن تميم فى صبح الأعشى ج ١٣: ٢٤٢، ٢٤٣ محرفا "عياش"بياء مثناة تحتانية وشين.

(٨) لقب هذا الخليفة بإجماع المؤرخين هو الفائز بنصر الله، ويختصر أحيانا إلى الفائز، فالفائز بالله الوارد فى المتن سهو بلا شك.

(٩) فى ١٧ رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

ذكر السبب فى ذلك

وما جرت عليه الحال فيه

فى أوائل سنة أربع وخمسين[1] (صح: أربع وستين) وخمسمائة قدم جيش ضخم للفرنج إلى ديار مصر، فأعمل فيها القتل والنهب، (١٨٣) وكان شابور[2] وزير العاضد فى ذلك الوقت هو صاحب الحل والعقد بمملكة مصر، فلما انشغل جند الفرنج بمحاصرة القاهرة ويئس الخليفة والوزير وكافة أهالى مصر والقاهرة، عقد شابور صلحا مع قائدهم بألف ألف[3] دينار مصرى، بعضها بالأجل، وبعضها نقدا. فرفع الفرنج الحصار عن القاهرة، غير أنهم ظلوا مقيمين بالديار المصرية انتظارا لاستيفاء باقى المال الذى اتفقوا عليه.

وفى ذلك الوقت كان نور الدين محمود بن زنجى بن آقسنقر هو صاحب الشام. فاستغاث العاضد والوزير وأهل مصر به من استيلاء الفرنج، وطلبوا الاستعانة بمدده ومعاضدته، لدرجة أنهم أرسلوا إليه (١٨٤) ذؤابات شعر النساء. فأرسل نور الدين

---

(١) هذا خطأ واضح ومخالف لإجماع المؤرخين، ومناقض لما صرح به المؤلف نفسه بعد ما يقرب من خمسة عشر سطرا من أن دخول شيركوه القاهرة مع جنوده كان فى سنة ٥٦٤هـ، والصواب فى المتن "أربع وستين" بدلا من "أربع وخمسين" وقد وضعنا التاريخ الصحيح بين قوسين.

(٢) جامع التواريخ ٦٢ وما بعدها: شاوور (بواوين) فى كل المواضع (ص ٩٢ طبع طهران: شاور)، اسم هذا الشخص مذكور فى جميع كتب المؤرخين العرب بلا استثناء "شاور"، بشين معجمة وواو واحدة، غير أنه لما كان اسمه قد كتب فى هذا الكتاب فى جميع المواضع وجميع النسخ بلا استثناء شابور (أو سابور) لتبين لنا أن هذه الكلمة ليست ناشئة من غلط النساخ، بل من المصنف نفسه الذى خيل إليه أنها شابور، وكان يقرؤها على ذلك، ويؤيد هذه الفقرة ما ذكر فى جامع التواريخ الذى غالبا ما يتابع جهانكشاى فى هذه الفصول، فقد كتبت هذه الكلمة فى جميع المواضيع (شاوور) بواوين، وواضح أننا احتفظنا بالإملاء الأصلية للمصنف فى كافة المواضع. (المترجم: وقد عقد الأستاذ القزوينى فى بحث هذه المسألة فصلا طويلا فى حواشى آخر الكتاب. انظر جهانكشاى ج ٣ ص٣٧١ - ٣٧٩).

(٣) "وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار" (أبو الفدا فى حوادث ٥٦٤ ج ٥٤٧:٣ " فأرسل (شاور) إلى ملك الفرنج يشير بالصلح وأخذ مال، فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجل البعض ويمهل البعض" (ابن الأثير فى حوادث السنة المذكورة ج ١٥١: ١١).

شيركوه، صاحب حمص، بجيش جرار للمحافظة على ديار مصر، وقد صاحب صلاح الدين يوسف بن أيوب عمه شيركوه. ولما سمع الفرنج بخبر جيش الشام عادوا إلى ديارهم، وتوجه شيركوه إلى القاهرة، فوصلها فى السابع من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة. وقد استقبله العاضد وشابور تعظيما وإكراما لمقدمه، فطلب شيركوه من شابور مالا للجند، ولكنه أخذ فى المماطلة والتسويف، فانقلب الولاء والصفاء إلى تنافر وعداء، وأخذ شابور فى التدبير لقتل شيركوه بحجة دعوته لينزل ضيفا عليه[1]. ولما كان العاضد ضعيفا عاجزا فى يد شابور، فقد أخبر شيركوه عن مكيدته، وهكذا وجد الباعث على قتله. وفى أحد الأيام قدم شابور عند شيركوه على سبيل التفقد والتودد فذهب ابن أخيه صلاح الدين يوسف لاستقباله وفق مقتضى العادة مع جماعة من أهل السلاح، فقبض عليه وأرسل رأسه إلى العاضد طبقا لرغبته. وكان ذلك فى السابع عشر[2]من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة.

وقد عهد العاضد (١٨٥) بمنصب الوزارة إلى شيركوه، ولقبه الملك المنصور. ولم تكد تمضى ثلاثة شهور[3] حتى قضى نحبه. فأعطى الوزارة لابن أخيه صلاح الدين يوسف. فضبط صلاح الدين الأمور، إذ استولى علىالعاضد ومملكة مصر، فكان العاضد يأتمر بأمره.

وكتب صاحب الشام نور الدين محمود إلى صلاح الدين أنه: "طالما نفذ الحكم فى تلك الممالك، فينبغى نصرة الحق على الباطل، وأن يوضع الحق فى نصابه، فعليكم أن تظهروا شعار دعوة الإسلام بذكر اسم الخلفاء العباسيين". فاستجاب صلاح الدين

---

(١) المترجم: " ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم... إلخ" (أبو الفدا ج ٤٨:٣).

(٢) انظر ابن الأثير ١٥٢:١١، والخطط ١٧٥:٢، وابن خلكان ٢٣٧:١، ٥٦٠:٢ .

(٣) كانت مدةوزارة شيركوه على وجه التحديد شهرين وخمسة أيام، وكانت وفاته فى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة (ابن الأثير ١٥٣:١١، وابن خلكان ٢٤٦:١).

لذلك وخطب أول جمعة من المحرم سنة ست[1](صح: سبع) وستين وخمسمائة على منابر الديار المصرية باسم الناصر لدين الله[2] كما ضربت السكة باسمه.

ولقد توفى العاضد يوم عاشوراء، فحبس صلاح الدين أولاده (١٨٦) وأنسابه، وفى النهاية أذاقهم جميعًا شربة الفناء، وقطع نسلهم بصفة نهائية. واستقل صلاح الدين يوسف واستبد[3]، وله آثار محموده ومقامات مشهورة.

* * *

(١) وذلك سهو واضح ومخالف لإجماع المؤرخين، وهم جميعًا يذكرون أن قطع خطبة الفاطميين فى مصر وإقامة الخطبة باسم بنى العباس وقع على وجه التحديد فى سنة سبع وستين وخمسمائة، والصواب فى المتن "سبع" بدلا من" ست" بدون أدنى شك وترديد.

(٢) وهذا أيضًا سهو واضح من المصنف، والصواب باتفاق المؤرخين هو"المستضىء بالله" بدلا من الناصر لدين الله، بينما كان تاريخ جلوس الناصر لدين الله فى سنة خمسة وسبعين وخمسمائة، أى بعد ثمانية أعوام من هذه الواقعة. مدة خلافة المستضىء من سنة ٥٦٦ حتى سنة ٥٧٥هـ.

(٣) المترجم: " استبد به تفرد" (القاموس المحيط للفيروز آبادى).

ذكر الحسن بن الصباح وما أحدثه من تجديد

ودعوة الملاحدة التى يقال لها (الدعوة الجديدة)

لا جددها الله تعالى

بعد أن استأصل الحق تعالى - بفضل عزيمة وحركة أمير الدنيا هولاكو - قلاع هؤلاء الملاعين ورباعهم، ودفع شرهم، صدر الأمر عند فتح الموت، بأن يطلع مؤلف هذا الكتاب على مستودعات الخزانة ومحتويات المكتبة، كي يستخرج ما يجده لائقًا بالسلطان. خلاصة القول أننى لما كنت أقوم بفحص المكتبة التى كانوا قد بدأوا فى جمعها منذ سنين عديدة، أخذت استخراج المصاحف ونفائس الكتب ـ كما يخرج الحى من الميت ـ من بين الكثير من أباطيل الفضول وأضاليل الأصول فى مذهبهم وعقيدتهم، بحيث امتزجت بالمصاحف المجيدة وأنواع الكتب النفيسة، فانتسج فيها الخير بالشر، فعثرت على كتاب كانوا يسمونه "سركذ شت سيدنا" (أى سيرة سيدنا) يتضمن (١٨٧) ترجمة حياة الحسن بن الصباح، فنقلت منه ما كان ملائمًا[١] ومناسبًا لسياق هذا التاريخ، وأوردت ما كان مصدقًا ومحققًا[٢].

ترجع نسبته إلى قبيلة حمير. قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى قم، ومن قم إلى الرى، فاستوطنها، وهناك ولد الحسن بن الصباح.

أصلك من قاين وموطنك فى كوشة[٣]

---

(١) حصل رشيد الدين أيضًا على هذا الكتاب ـ سركذشت سيدنا ـ وأدرج خلاصته (وليس هو بعينه كما صرح) فى جامع التواريخ، ولكن منقولاته من ذلك الكتاب أكثر تفصيلا من منقولات الجوينى، وأغلب الظن أن الجوينى نظرا لفرط تدينه وتصلبه فى العقيدة قد استعمل هذا الكتاب - الذى كان يعد فى نظره من كتب الكفر والضلال - بكل كراهية واشمئزاز. ولهذا نلاحظ أنه أفرط فى تلخيصه واختصاره، واقتصر بقدر الإمكان على أقل ما يمكن منه وما هو ضرورى لفهم تاريخ "الملاحدة".

(٢) المترجم: فى المقارنة بين نص الجوينى ورشيد الدين انظر فيما سبق ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٣) كذا فى مجمع الفصحاء وهفت اقليم، من أبيات لكوشككى القاينى من شعراء عهد السلطان سنجر وهو مخاطب الشاعر، انظر هفت اقليم فى عنوان قهستان، ومجمع الفصحاء ج ١ ص ٤٤٨.

أيها الديوث الغبى، ماذا تفعل فى جيلان؟

(١٨٨) اسمه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد (ابن)[١] الصباح الحميرى، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

ذكروا فى السيرة[٢] أن جماعة من أتباعه كتبوا أحوال آبائه وأحضروا الأوراق إليه، إلا أنه ـ على سبيل التصنع والتلبس ـ لم يقبلها وغسلها فى الماء.

ويقرر هذا الحسن اللعين: "كنت أتبع مذهب آبائي، وهو مذهب الشيعة الإثناعشرية. وكان فى الرى رجل يسمى أميره ضراب على مذهب باطنية مصر. وكنا نتناظر معًا بصفة دائمة، فيكسر مذهبنا، ولكنى لم أكن اسلم بينما استقرت آراؤه فى قلبى. وفى تلك الأثناء أصبت بمرض خطير شديد، فقلت فى نفسي: إن ذلك المذهب هو الحق، ولكنى لم أقبله من جراء تعصبى الشديد. فلو وصل الأجل الموعود – والعياذ بالله – لهلكت دون أن اصل إلى الحق. فشفيت مما ألم بى من مرض، وكان هناك رجل آخر من جملة الباطنية يسمى أبو نجم سراج. فذهبت أتعرف عنده على هذا المذهب. فشرحه لى وفصله حتى وقفت على غوامضه. وكان هناك رجل آخر يسمى "مؤمن" منحه عبد الملك بن عطاش الإجازة بالقيام بأمر الدعوة (١٨٩)، فأردت أن آخذ على يديه عهد البيعة فقال: إن مرتبتك أعلى من مرتبتى فأنت حسن، أما أنا فمؤمن، فكيف آخذ عليك عهدًا؟ يعنى كيف آخذ منك البيعة لإمام؟". إلا أنه آخذ العهد منى بعد إلحاح.

ولما وصل عبد الملك بن عطاش داعى العراق فى ذلك الوقت إلى الرى فى سنة أربع وستين وأربعمائة أعجب بى، فأمر بأن أتولى نيابة الدعوة، وأشار بوجوب توجهى إلى خليفة مصر، وكان فى ذلك الوقت هو المستنصر[٣].

---

(١) كلمة "ابن" ساقطة من جميع النسخ الخطية. بينما الصواب بلا شك هو إثباتها؛ لأن الصباح لم يكن لقب محمد كما يظن إذا سقطت كلمة "ابن"، بل كان اسم أبيه، وكلمة الصباح من الأعلام المعروفة عند العرب؛ إلا أنها لم ترد لقبًا فى أى موضع على الإطلاق.

(٢) يعنى سر كذ شت سيدنا (سيرة سيدنا).

(٣) جامع التواريخ ٦٦ – (نسخة المكتبة الأهلية بباريس Pers. 1113 –Suppl.= ص ٩٩ ط . طهران): "وكان خليفة ذلك الزمان هو المستنصر بالله".

وفى سنة تسع وستين وأربعمائة توجـهت - عازمًـا علـى السـفر إلى مصـر - إلى أصفهان (ثم سار منها عن طريق آذربيجان إلى الشام بعد الأخطار التى شاهدها ودونها فى ذلك التاريخ[1].

وفى النهاية وصلت إلى مصر فى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة[2]. فأقمت[3] بها ما يقرب من سنة ونصف ولم أصل طوال[4] (١٩٠) مدة إقامتى إلى المستنصر، ولكـن المستنصر كان واقفًا على أمرى وامتدحنى غير مرة. وكان أمير الجيوش[5]، أمير جنده، هو المتسلط والحاكم المطلق، (وهو فى نفس الوقت) صهر[6] المستعلى، الابن الأصغر الذى كان المستنصر قد نص نصًا ثانيًا بأن يكون وليًا للعهد. وكنت أنا طبقًا لقاعدة أصول مذهبى (١٩١) أقوم بالدعوة لنزار، (وقد مضى تقرير ذلك)، لهذا ساءت علاقة

---

(١) كذا بصيغة الغائب -ولقد لخص المصنف فصلا طويلا ابتداء من جملة: "ثم سار منها عن طريق آذربيجان" إلى هنا، ولهذا أورد الأفعال بصيغة الغائب. والفقرة المعادلة لهذه الكلمات فى جامع التواريخ تقع فى ما يقرب من صفحة كاملة (ورقة ٦٦ س ٢٤ - ورقة ٦٧ س ١٢ ويقع هذا الفصل فى طبعة طهران من ص ٩٩ - ١٠١) وهو يقصد بالتاريخ هنا "سركذ شت سيدنا" (سيرة سيدنا).

(٢) جامع التواريخ ٦٧ = ص ٩٩ طبع طهران: "وصل سيدنا إلى القاهرة المعزية يوم الأربعاء الثامن من عشر من شهر صفر المظفر سنة أحدى وسبعين وأربعمائة"، ويذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٤٢٧ (ج ٩: ١٨٦) ويتبعه ابن ميسر (ص٢٧) أن تاريخ وصول الحسن بن الصباح إلى مصر كان فى سنة ٤٧٩، وذلك سهو واضح لأن منقولات المصنف من "سركنشت سيدنا" فى هذه المواضع هى غالبًا عين كلام الحسن بن الصباح مباشرة ولا بد أن يكون قوله فى الأمور المتعلقة به شخصيًا مقدمًا على أقوال الآخرين.

(٣) كذا بصيغة المتكلم.

(٤) ابن الأثير فى حوادث سنوات ٤٢٧،٤٨٧،٤٩٤ يكرر التصريح بأن الحسن بن الصباح قابل المستنصر شخصيًا وسأله: "من إمامى بعدك؟ فقال: ابنى نزار". ولا شك فى أن ما جاء فى "سركذ شت سيدنا" فيما يتعلق بالأمور الشخصية للحسن بن الصباح مقدم كما قلنا على أى قول آخر.

المترجم: وانظر مقدمة إيفانوف الإنجليزية لكتاب كلام بير pxx, f.n. 2 حيث يذكر الإشارات التى وردت فى كتابات الإسماعيلية عن مقابلة الحسن بن الصباح للمستنصر الفاطمى.

(٥) يريد به بدر الجمالى أبا أمير الجيوش شاهنشاه المعروف بالأفضل، وقد وصل فى سنة ٤٦٦هـ إلى وزارة المستنصر وبقى فى هذا المنصب حتى نهاية عمره وفى سنة ٤٨٧هـ توفى المستنصر قبل وفاته بخمسة أشهر. (انظر ابن خلكان فى ترجمة ابنه شاهنشاه، وابن ميسر ٢٢ - ٣٠، وخطط المقريزى ٢: ٢١١ -٢١٣، وابن تغرى بردى فى مواضع عديدة).

(٦) المراد بكلمة صهر هنا أبو الزوجة؛ فقد كانت بنت بدر الجمالى زوجة للمستعلى، "وكان المستنصر نعت المستعلى بهذا اللقب (أى بولى عهد المؤمنين) لما عقد نكاحه على ابنة أمير الجيوش بدر" (تاريخ ابن ميسر٦٦).

أمير الجيوش بى، فعقد خاصره استعدادًا للنيل منى، وكانت نتيجة ذلك أنهم أجبرونى على التوجه إلى المغرب فوق ظهر إحدى السفن مع جماعة من الفرنج. وكان البحر هائجًا فألقى بالسفينة إلى الشام. وهناك وقعت لى واقعة[١] وقدمت من هناك إلى حلب فوصلت منها إلى أصفهان عن طريق بغداد وخوزستان فى ذى الحجة سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة. ثم توجهت منها إلى حدود كرمان ويزد فقمت بالدعوة حينًا، ثم عدت بعد ذلك إلى أصفهان، وذهبت مرة أخرى إلى خوزستان، وقدمت من هناك إلى فريم[٢] وشهرياركوه[٣] عن طريق الصحراء.

(١٩٢) وقد أقمت فى دامغان ثلاث سنوات، ومن هناك وجهت جماعة من الدعاة إلى أندجرود[٤] والولايات الأخرى بالموت لكى يدخلوا الناس فى الدعوة. ثم ذهبت إلى جرجان، وطرز[٥]، وسرحد[٦]، وجناشك[٧]. ثم عدت أدراجى من هناك.

---

(١) المراد بـ (الواقعة) كما يتضح من الفقرة المعادلة لهذا الموضع فى جامع التواريخ ٦٨ = ص ١٠٣ ط طهران هى على ما يبدو الكرامة التى أظهرها كما يزعم فى السفينة، وكان قد أخبر الناس قبل حدوث الواقعة بأن السفينة لن تغرق "وفجأة هبت ريح عاصفة فتحطمت السفينة فاضطرب القوم وكان سيدنا خالى البال مطمئنًا، فسأله رجل كيف تجلس هكذا آمنًا والحال على ما ترى قال: أخبرنى المستنصر عن هذا الأمر وقال: لا تخش شيئًا على الإطلاق ولذا تجدنى لا ألقى بالا، فاستقرت السفينة على صخرة إلخ".

(٢) كذا فى جامع التواريخ ٦٨ = ص ١٠٣ ط طهران، مدينة كانت تقع فى المنطقة الجبلية شرقى مازندران.

(٣) شهرياركوه (جبل شهريار) الظاهر أنه كان عبارة عن سلسلة جبال فيروزكوه وسوداكوه الحالية، وكانت فريم هى مدينته الرئيسية.

(٤) أندجرود (أندج رود) وهى ما زالت باقية باسمها حتى الآن. وتعتبر – طبقًا للتقسيم الحالى – إحدى نواحى الموت الأربعة: فيشان ناحية، أندج رود، آثان ناحية، بالا رودبار.

(٥) طرز بطاء وراء مهملتين وزاى معجمة، لم أعثر على هذه الكلمة فى أى كتاب من كتب المسالك والممالك، ويذكر ابن الأثير قرية بنفس الاسم (يعنى طرز) فى حوادث سنة ٥٢٠ ويقول إنها من أعمال بيهق ومن القرى المخصوصة بالباطنية. والاحتمال شديد فى أنها هى نفس القرية المذكورة فى المتن.

(٦) يبدو من سياق العبارة أنه ربما كان موضعًا فى حدود جرجان أو قريبًا من تلك النواحى ولكن لم يتيسر لى تعيين موضعها على وجه التحديد. وفى الكتب القديمة فى المسالك والممالك والكتب الحديثة فى الجغرافيا توجد ثلاثة مواضع باسم "سرحد" ولكن ليس لأى منها صلة بهذا المقام، بل إنها جميعًا بعيدة تمامًا عن الموضع الذى نحن بصدده.

(٧) جناشك: هى إحدى النواحى على الحدود الشرقية لولاية استراباد تبعد عن مدينة استراباد بحوالى عشرين فرسخًا من ناحية الشرق وحوالى عشرة فراسخ غرب جاجروم، وهى الآن عبارة عن ما يقرب من ست قرى منفصلة بعضها عن البعض، وكانت فيما سبق اسمًا لقلعة حصينة أيضًا تقع فى تلك النواحى.

(١٩٣)(وسبب ذلك أن نظام الملك كان قد كلف أبا مسلم الرازى[١] بأن يقبض على الحسن)، فكان يبذل أقصى ما فى وسعه للعثور على. فلم أستطع القدوم إلى الرى وكنت أريد أن أذهب إلى ديلمان ببلاد الروم حيث كنت قد أرسلت الدعاة. ولذلك قدمت إلى سارى ومنها وصلت إلى قزوين عن طريق دنباوند وخور الرى، وهكذا تحاشيت الرى.

وقد أرسلت من قزوين مرة أخرى داعيًا إلى قلعة الموت، وكان يتولاها رجل يقال له علوى مهدى من قبل ملكشاه. والموت اله أموت يعنى عش العقاب[٢]، فقد كان للعقاب عشًا بها. فقبل الدعوة جماعة فى الموت ثم دعوا بدورهم العلوى فقال هو بلسانه (تظاهرًا): "قبلت". واتبع ذلك باستعمال الحيلة فأنزل من القلعة كل من قبل الدعوة وأغلق دونهم بابها، وقال: "هى قلعة السلطان". وبعد نقاش طويل سمح لهؤلاء الجماعة بالدخول ثانية فلم يقبلوا بعد ذلك النزول من القلعة بمقتضى طلبه.

(١٩٤) مجمل القول أنى ذهبت[٣] من قزوين إلى ديلمان، (ثم توجه منها إلى ولاية اشكور[٤]، حيث تركها إلى أندجرود المتاخمة لألموت فأقام بها فترة من الزمن).

وعن طريق تزهده الشديد وقع كثير من الناس فى حبائله وقبلوا دعوته[٥] فحملوه إلى القلعة فى مساء يوم الأربعاء السادس من رجب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة. ومن نوادر الاتفاقات أن حروف اله آموت هى بحساب الجمل تاريخ سنة صعوده إلى الموت التى اغتصبوها. وبقى متخفيًا مدة وسمى نفسه دهخدا. فلما اطلع العلوى على واقع

---

(١) "وكان رئيس الرى إنسانا يقال له أبو مسلم وهو صهر نظام الملك ... فلما هرب الحسن من أبى مسلم طلبه فلم يدركه" (ابن الأثير حوادث سنة ٤٩٤).

(٢) يقول ابن الأثير (١٠: ١٣١): "ومعناه بلسان الديلم تعليم العقاب". والظاهر أن تفسير ابن الأثير أقرب للصواب لأن "آموت" بلغة الديلم ـ كما يبدو ـ هى نفس كلمة "آموخت" ومعناها تعلم.

(٣) كذا بصيغة المتكلم المفرد.

(٤) اشكور بكسر الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الكاف وفتح الواو ثم فى الآخر راء مهملة وهو النطق الحالى للأهالى.

المترجم: ويكتبها بترولى فى The Castels of The Assassins فى كافة المواضع ashkavar بفتح الألف.

(٥) من هذا الموضع حتى أواخر الصفحة التالية فضلا عن فقرات متعددة أخرى من هذا الفصل، وهى المتعلقة بالحسن ابن الصباح نقلت بنصها تقريبًا فى تاريخ ابن اسفنديار، ويبدو أن هذه الفقرات من إلحاقات النساخ المتأخرين على تاريخ طبرستان.

الحال وعلم أنه عاجز عن التصرف، أذنوا له بالرحيل، فكتب (الحسن) حوالة بثلاثة آلاف دينار هى ثمن القلعة لحاكم كردكوه ودامغان الرئيس (١٩٥) المظفر المستوفى الذى كان قد قبل دعوته سرًا. وكان من عادة الحسن أن يكتب الرقاع موجزة أشد الإيجاز بسبب غاية الزهد على نمط هذه الحوالة: الرئيس م ظ[١] حفظه الله، لتسليم علوى مهدى ثمنًا لألموت ثلاثة آلاف دينار على النبى المصطفى وآله السلام وحسبنا الله ونعم الوكيل.

مجمل القول أن علوى أخذ الحوالة وقال لنفسه : "إن الرئيس المظفر رجل عظيم وهو نائب للأمير داد[٢] حبشى بن التونتاق فأنى له أن يعطينى شيئًا برقعة كهذه". وبعد مدة نزل دامغان وكان قد صار مقل الحال فأخذ الرقعة التى كانت معه إلى الرئيس المظفر على سبيل التجربة، فقبل الرئيس المظفر الخط وسلمه الذهب فى الحال.

فلما استقر الحسن بن الصباح ـ أخزاه الله ـ فى الموت واستقل، وجّه الدعاة إلى الأطراف والأكتاف. وقصر عهده على إظهار الدعوة وإضلال قصار النظر. وقد أحدث فى تلك البدعة تغييرًا أطلقت عليه تلك الطائفة من بعده "الدعوة الجديدة". إذكان المتقدمون منهم قد أسسوا مذهبهم على تأويل التنزيل، وعلى الأخص الآيات المتشابهة والاستخراجات الغريبة من معانى الأخبار والآثار وما شاكل ذلك. وكانوا يقولون إن لكل تنزيل تأويلا ولكل (١٩٦) ظاهر باطنًا. ولكن الحسن بن الصباح فتح باب التعليم والتعلم على مصراعيه. وقال إن معرفة الله لا تكون بالعقل والنظر، بل بتعليم الإمام؛ لأن أكثر الخلق فى العالم عقلاء، ولكل شخص نظرة فى طريق الدين. فلو كان نظر العقل كافيًا لمعرفة الله لما اعترض أهل مذهب من المذاهب على غيرهم، ولكان الجميع متساوين؛ لأن كل الناس متدينون بنظر العقل. غير أن سبيل الاعتراض والإنكار مفتوح، ويحتاج البعض إلى تقليد البعض، وهذا هو مذهب التعليم (يبين) أن العقل غير كاف، بل ينبغى وجود إمام بتعليمه يتعلم الناس فى كل دور ويتدينون.

---

(١) يعنى المظفر.

(٢) ذكر عطا ملك فى الجزء الثانى من جهانكشاى اسم أمير خراسان فى ذلك الوقت داد بك (أمير داد) حبشى بن التونتاق. انظر جوامع العلوم للفخر الرازى نسخة باريس Suppl. Pers. 1595 ورقة ٦٧، تاريخ السلجوقية طبع هوتسما ص ٢٥٩، وابن الأثير فى حوادث ٤٩٠، ٤٩٣.

وابتدع عـدة عبـارات موجـزة استعملها ملواحًا لحبـائل خداعـه، وأطلق عليها اسـم الإلزام، فظن الجهال والعوام أن تحت تلك الألفاظ المختصرة معانى كثيرة. وأدق هـذه الألفاظ والمعانى هو ما كان يسأله للمعترضين على مذهبه وهو هل العقـل كـاف أم لا؟ يعنى أن العقل لو كان كافيًا لمعرفة الله لما وصـل لـذى عقـل إنكـار لمعترض، فلو قـال معترض أن العقل غير كاف فيجب -إلى جانب نظر العقل- وجود معلم فى كل حين، هذا هو مذهبه

أمـا مـا يقولـه[1] مـن أن العقـل كـاف أم لا فـإن مذهبه الـذى يطلـب إثباته فـى هـذا السؤال هو أنه يجب وجود التعليم مع العقـل، بينمـا يقـول مذهـب الخصـم بأنـه لا يجـب وجود التعليم مع العقل. فـإذا لم يكـن وجـود التعليـم واجبًا فربمـا كـان وجـوده جـائزًا، فعندئذ يكون معينًا للعقـل على النظر، وربمـا لا يكـون وجـوده جـائزًا فيكتفـى بـالعقل وحده (١٩٧) وإلا فلن تحصل معرفة الله. وهذا وجهان، بينما انشغل هو بإبطال الوجه الثانى، ويقول إنى أبطلت مذهبهم، ولكنه لم يفعل ذلك؛ لأن مذهب جمهور أهل العالم هو أن وجود العقل المجرد ليـس كافيًـا، ويشـترط استعمال العقـل علـى وجـه مخصـوص، فالتعليم والهداية معينان لبعض العقـلاء، وليس للبعض بهما حاجة، إلا أنـه لا مـانع إذا وجدا. فإذا كان الأمر كذلك لعرفنا أنه لم يكـن قـد بلـغ مبلـغ التعرض لإبطـال مذهـب الجمهور.

كما أن وقف التعليم على شخص معين أمر يفتقر إلى دليل، ودليله هو مجرد قوله. إذ إنه يقول: "طالما أننى أثبت التعليـم، وليس هنـاك من أحـد غيرى يقـول بـالتعليم لكـان تعيين المعلم إذن بقولى أنا". وهذا الكلام ظاهر الفساد، وهو بمثابة قـول شـخص: "إننـى أقول إن الإمـام هـو فـلان والبرهـان على ذلـك أننـى أنـا أقـول هـذا الكـلام". فـإذا قـال: "الإجمـاع حـق، أمـا إذا كـان قـولى ليـس صحيحًـا فقـد أبطلـت إذن قـول الآخريـن ولاجتمعت الأمة على البـاطل" فـالجواب عليه أن الإجمـاع حق عنـد الجمهور بسـبب القرآن والخبر وهو ليس كذلك عندك[2]. إذن بناء مذهبك على الإجماع يكون بناء على قول خصمك ولا يفيدك. وليس له خلاف هذا حجة أخرى على تعيين الإمام.

---

(١) يبدأ كلام الجوينى من هنا فى إبطال استدلال الحسن بن الصباح.

(٢) المترجم: لا يعترف الشيعة، ومن بينهم الإسماعيلية، بالإجماع الذى يعتبره أهل السنة أحد مصادر التشريع الأربعة. اللهم إلا باعتباره كاشفًا عند رأى الإمام المعصوم عند الإثنا عشرية.

أما ما كان قد قاله من أن (١٩٨) الرسول عليه السلام يقول: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" وأن هذا يعنى أنه ينبغى أن يأخذوا قول لا إله إلا الله منى، وهذا هو (مذهب) التعليم – فالإجابة عليه بأن هذا معارض لحكاية العجوز التى سألوها عن الله، فأشارت إلى السماء، فقال الرسول عليه السلام: "دعوها فإنها مؤمنة"، وقال: "عليكم بدين العجائز". ولم يقل للعجوز إنك لم تعرفى الله منى فلست مؤمنة. وقال أعرابى: "أليس الزمان حقًّا[1]" قال الرسول عليه السلام: "دعوه فقد فقه". ومن هذا القبيل كثير يمكن إيراده، ولما كان هذا الكتاب ليس مجالا لإبطال مذاهب الباطل وأثبات مذهب الحق فقد روعى أن الاختصار على هذا القدر أولى. هذا[2] أنموذج من الخرافات التى تعد ظواهرها حبائل التلبيس وبواطنها عوامل (١٩٩) إبليس، وكان يقرر أن الهدف من ذلك هو المنع عن نظر العقل وتحصيل العلم، ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.

خلاصة القول أن الحسن كان يبذل قصارى جهده فى استخلاص النواحى المتاخمة لألموت والمواضع القريبة منها، وكان يتسلم كل مكان تيسر بتلبيس الدعوة، وأما ما لم يغتر بتغريره فكان يستولى عليه بالقتل والهتك والنهب والسفك والحرب، وكان يستولى على كل ما يستطيع من القلاع، وحيثما كان يجد منطقة صخرية تصلح للبناء أقام عليها قلعة.

وكان من بين خواص السلطان ملك شاه أمير يسمى يورناس (ظ: يورنتاش)[3] (٢٠٠) كانت نواحى الموت إقطاعًا له. فكان يهاجم سفح الموت المرة تلو المرة وكان يقتل ويغير على كل من قبل دعوة (ابن الصباح) وأطاعه حيثما كان. ولما لم تكن القلعة قد زودت بعد بالمؤن فقد ضاق الأمر على المقيمين بها وأصابهم العجز وعزموا على أن

---

(١) لم استطع أن اعثر على اصل الحديث فى اى موضع.
المترجم: فى الأصل: أليست.

(٢) من هذا الموضع وحوالى خمسة أسطر أخرى مكتوب فى ابن اسفنديار

(٣) يبدو أن هذه الكلمة الفاسدة فى كافة النسخ الخطية هى تصحيف "يورنتاش" وهى فى التركية بمعنى الحجر الأبيض من (يورن) (يورون، يوررونك، اورون، اوررونك) (بمعنى أبيض (تاش) بمعنى حجر، وفى ديوان لغات الترك لكاشغرى ١٢٠:١ يقول "أرنك الأبيض من كل شيء والغزية تسمية آق"، وللكلمة رسم آخر هو أورنكتاش (جامع التواريخ طبع بلوشة ٢٦٥)، ومن نظائر هذا التركيب أرنك قش بمعنى الصقر الأبيض، وتأتى أيضًا بمعنى الطائر الأبيض (الكاشغرى ٢٧٨:١) - ويرنقش رسم آخر لنفس الكلمة وهو من الأعلام التركية المعروفة ويأتى ذكره كثيرًا فى تاريخ السلاجقة، وأورونك تيمور يعنى الحديد الأبيض وهو أيضًا من الأعلام التركية (حواشى بلوشة على جامع التواريخ ٢٦٥)، وأرنبغا (أرنك بوغا) يعنى الثور الأبيض وهو اسم أشخاص عديدين من أمراء مماليك مصر (المنهل الصافى فى باب الألف)، ولم أعثر على أسم هذا الأمير فى أى كتاب من كتب التواريخ المعروفة، وكان ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٩٤ (ج ١٣٢:١٠) قد ذكر أصل الموضوع، ولكنه لم يذكر اسم هذا الأمير، وفى تاريخ كزيده ص ٥١٨ كتب اسم هذا الأمير " التون تاش " والواضح أنها كلمة مغايرة تمامًا وهى تحريف من النسخ أو من المؤلف نفسه.

يسلموا القلعة لعدد ضئيل من الرجال ويتحولوا هم عنها إلى مكان آخر. عندئذ ادعى الحسن بن الصباح أن رسالة وصلته من إمامه، يعنى المستنصر تقضى بألا ينتقلوا من ذلك الموضع؛ فالإقبال منه متوقع. وهكذا استطاع بهذا التمويه أن يجعل القوم يعقدون العزم على مقاساة الشدائد فتمكنوا فى الموت، وأطلقوا عليها اسم بلدة الإقبال؛ نسبة إلى هذا اللفظ الذى ذكره.

وفى سنة أربع وثمانين وأربعمائة أرسل أحد دعاته المسمى حسين القاينى إلى قهستان ليتولى الدعوة بها. فاستجاب له جماعة واستقلوا بإحدى نواحى قهستان. فاعتبر نائبا لحكمهم من قبل الحسن بن الصباح. وكما تقدم الحسن بن الصباح فى الموت بذلوا هم أيضا جهدهم فى العمل على إنشاء الدعوة بقهستان واستخلاص النواحى المحيطة بهم وحدودها عن طريق استعمال التزاوير[1] والاستيلاء على القلاع.

(٢٠١) فلما تفشت حكاية بدعته وامتدت أضرار تلك الطائفة إلى المسلمين المجاورين لهم أنفذ السلطان ملكشاه فى أوائل سنة خمس وثمانين وأربعمائة أميرا يقال له أرسلانتاش لمحاربة الحسن بن الصباح وأتباعه واستئصالهم. فقعد الأمير فى جمادى الأول[2] من السنة المذكورة لمحاصرة الموت، ولم يكن مع الحسن بن الصباح فى ذلك الوقت سوى ستين أو سبعين رجلا، ولم يكن لديهم سوى القليل من المؤن. فكانوا يعيشون على ما يسد الرمق من قليل القوت، وكانوا منشغلين بحرب المحاصرين وقتالهم. وكان داعى الحسن بن الصباح، المسمى دهدار بوعلى، قد انتقل من زواره وأردستان، وأقام فى قزوين، واستجاب له قوم كثيرون من أهل قزوين، كما كان هناك أناس كثيرون قد تقلدوا الدعوة الصباحية فى ولايات الطلقان وكوهبره[3] وولاية الرى، (٢٠٢) وكان رجوعهم إلى ذلك الذى استوطن قزوين، فطلب الحسن بن الصباح المدد

---

(١) لم أتمكن من تصحيح هذه الكلمة (العربية) أو معرفة المقصود منها، ولم أعرف هل المعنى المعروف للتزوير وهو المكر والحيلة والخداع هو المراد هنا أم المراد معنى آخر، وفضلا عن هذا فإن جمع تزوير على تزاوير ولو أنها جائزة قياسا فى الاستعمال إلا أنها تبدو غريبة إلى حد ما وغير مألوفة كما لو جمعنا مثلا تدليس وتنبيه على تداليس وتنابيه.

(٢) كذا بالتذكير، "قال الفراء فإن سمعت تذكير جمادى فإنما يذهب به إلى الشهر" (لسان وتاج)، "قال ابن مكى ولا يقال جمادى الأول بالتذكير وجوزه فى كلامه على تثقيف اللسان" (صبح الأعشى ٢: ٣٦٧).

(٣) كوه بره هى قطعا بره التى وصفت فى نزهة القلوب ٢١٧، ٢١٨ ومن الوصف الذى ورد فى نزهة القلوب نتبين على وجه اليقين أنها منجيل الحالية.

من دهدار بوعلى الذى حرض جماعة من أهالى كوه بره والطلقان كما أرسل من قزوين الأسلحة وآلات الحرب وقدم ثلاثمائة رجل من هؤلاء الرجال لمدد الحسن بن الصباح، فألقوا أنفسهم داخل القلعة وبمعاونة المقيمين فى الموت ومظاهرة قوم من أهالى رودبار، كانوا قد اتفقوا وتواعدوا على لقائهم خارج القلعة، أغاروا ليلا على جيش أرسلانتاش فى آخر شعبان من نفس السنة. فانهزم جيش أرسلانتاش بتقدير إلهى وذهبوا عن الموت، وعادوا أدراجهم إلى ملكشاه.

وجزع السلطان ملكشاه من جراء هذا، ولكنه أصر على استئصال تلك الطائفة، غير أن أجله كان قد وصل إلى نهايته، فتباطأت إجراءات قمع أولئك المخذولين بسبب وفاته وقويت فتنتهم.

وفى أوائل سنة خمس وثمانين وأربعمائة أوفد السلطان أيضا أميرا آخر من خواصه يقال له غزل، سارغ لدفع ملاحدة قهستان، وأمر جيوش خراسان باتباعه ومعاونته. فحاصرهم غزل سارغ فى قلعة (٦٠٣) دره[١] المتاخمة لسيستان وهى من أعمال مؤمناباد[٢] واشتغل بقتالهم. فوصله خبر وفاة ملكشاه قبل استخلاصها، فنهض عنها وتفرق جيشه. وعلى شاكلة طغاة الموت مد أولئك الجماعة يد التطاول إلى كل طرف من الأطراف، وسحبوا قدم التعدى، كما قيل:

يا لك من قبرة بمعمر   خلا لك الجو فبيضى واصفرى[٣]

(١) دره قرية تبعد عن طبس مسينان بحوالى خمسة عشر فرسخا كما تبعد عشرين فرسخا جنوب شرقى بيرجند وتقع على رأس الطريق الموصل من بيرجند إلى سيستان، وما زالت هناك إحدى القلاع القديمة على القمم الواقعة على حدودها. انظر نزهة القلوب ١٤٦، وجامع التواريخ ٧٢ (نسخة المكتبة الأهلية بباريس Suppl. Pers 113 ص١٠٩ ط طهران)، وتاريخ سيستان ٣١، وبلدان الخلافة الشرقية للوسترنج ٣٦٣، والخرائط الأوروبية الجديدة وتكتبه Dere, Duruh والأخيرة هى الإملاء الإنجليزى لهذه الكلمة؛ لأنهم فى اللغة الإنجليزية يكتبون الفتحة أحيانا uوقد طبعت هذه الكلمة فى خريطة إيران لميرزا عبد الرازق خان المهندس (نقلا عن الخرائط الإنجليزية بدون أدنى شك) دوروه بواوين، وذلك سهو.

(٢) مؤمن آباد ناحية جبلية بين بيرجند وطبس سيتان تقع شرقى بيرجند وغربى طبس سيتان وما زالت تحمل نفس الاسم، انظر نزهة القلوب ١٤٦، وجامع التواريخ ٧٢ – ص ١٠٩ ط طهران، وبلدان الخلافة الشرقية ٣٦١ والخرائط الجديدة.

(٣) صدره: يا لك من قبرة بمعمر، من جملة أبيات لطرفة بن العبد أو للكميت بن ربيعة التغلبى، انظر مجمع الأمثال فى باب الخاء (طبع مصر ج ١ ص ١٦١) ولسان العرب فى مادة ق ب ر .

وفى بدء[1] خروج الحسن كان نظام الملك الحسن بن على بن إسحق الطوسى – رحمه الله – وزيرًا لملكشاه. ولقد بذل غاية جهده فى استئصال الفتنة الصباحية من جذورها، وكان يسعى جهده فى تجهيز وتسريح العساكر لقمعهم وقسرهم، وذلك لما كان يراه بنظره الثاقب من شمائل أحوال الحسن (٢٠٤) بن الصباح وأتباعه وهم أمارات الفتن فى الإسلام، ولما كان يشاهده من علامات الخلل. فمد الحسن بن الصباح مصائد المكائد كى يستدرج فى فخ الإهلاك منذ الوهلة الأولى صيدًا عظيمًا، مثل نظام الملك، فيذيع بسبب ذلك صيت ناموسه. فمهد بشعبدة الغرور ودمدمة الزور والتعبئات المزخرفة والمعميات المزيفة[2] لقاعدة الفداوية، فتوجه رجل اسمه أبو طاهر[3] الأرانى، ونسبه خسر الدنيا والآخرة، وهو مزود بالضلال (لاعتقاده) بأنه يطلب سعادة الآخرة – إلى حدود نهاوند فى منزل يقال له سحنه[4] ليلة الجمعة الثانى عشر من رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة على هيئة صوفى. وتقدم إلى محفة نظام الملك وهو متوجه فى المحفة بعد الإفطار من البلاط إلى خيمة الحريم فطعنه بخنجر، فاستشهد نظام الملك متأثرا بجراحه، فكان أول شخص قتله الفداوية[5].

ولما عاد الحسن بن الصباح من مصر توجه إلى أصفهان، كان قد ذاع صيت مقالته (٢٠٥) وانتسابه إلى الباطنية والدعوة التى كان يقوم بها، وكان الأشخاص الذين جبلوا على نصرة الإسلام والذود عن الدين يطلبونه، فكان يتوارى لهذا السبب[6]. وفى

(١) من هنا إلى حوالى ١٤ سطرا آخرين مكتوب بالنص فى تاريخ ابن اسفنديار.

(٢) المترجم: لعل الإشارة هنا إلى (الجنة) التى وصفها ماركوبولو فى رحلته وقد نقل نص ماركبولو ادوارد براون فى المجلد الثانى من موسوعته تاريخ الأدب فى إيران وهو المجلد الذى ترجمه إلى العربية المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم الشواربى، انظر ص ٢٥٣ – ٢٥٥. وانظر أيضا حاشية The History of The World Conquror p. 676 .

(٣) المترجم: فى جامع التواريخ ٧٣ وحبيب السير جزء ٤ من المجلد الثانى ص ٧٣: أبو طاهر، وقد فضلنا رسم جامع التواريخ لأن المصنف قد درج على كتابته "بو" بدون ألف فهو مثلا يكتب اسم المهدى فى ص ١٥٦: بو عبد الله.

(٤) المترجم: قرية من توابع كرمانشاه ما زالت باقية باسمها حتى الآن.

(٥) آخر الفقرة المعادلة لابن اسفنديار.

(٦) المترجم: يضيف رشيد الدين فى هذا الموضع (جامع التواريخ)، (الجزء الخاص بالإسماعيلية ص١١٠ - ١١٢ طبع طهران) "قصة الأصدقاء الثلاثة" وهم الحسن بن الصباح ونظام الملك وعمر الخيام (ونجد هذه القصة منقولة إلى الترجمة العربية للمجلد الثانى من موسوعة براون Alitrary History of Persia vol. II للمرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربى ص ٢٣٦ - ٢٣٨)، وهى مذكورة أيضا فى تاريخ كزيده لحمد الله المستوفى، وروضة=

أصفهان ذهب إلى دار الرئيس أبى الفضل، الذى كان قد قبل دعوته خفية وأقام بها مدة. وعندما كان الرئيس يقابله يتبادلان أطراف الحديث ويناقشان همومهما ومتاعبهما. وذات يوم، فى أثناء الشكوى من الزمان وحكاية تعصب السلطان وأركان دولته، تأوه الحسن بن الصباح، وقال: "واأسفاه! لو كان معى رجلان قلبا واحدا لكنت قلبت هذا الملك رأسا على عقب"، فظن الرئيس أبو الفضل أن الحسن قد أصيب بأعراض الماليخوليا من كثرة الفكر وشدة الخوف ومباشرة الأسفار المحفوفة بالخطر، وإلا فكيف يمكنه بشخصين متحدين أن يقلبوا رأسا على عقب ملكا لسلطان تقع تحت خطبته وسكته البلاد من مصر إلى كاشغر ويسير تحت لوائه الألوف ما بين راحل وراكب، يجعل العالم يضطرب بإشارة واحدة، فأمعن النظر فى هذا، وقال لنفسه:"إنه ليس رجلا من أهل اللغو والقول الجزاف، فلا شك أنه أصيب بمرض عقلى"، وعلى ضوء هذا الظن أخذ يعد العدة لعلاج مرض الماليخوليا دون أن يطلع الحسن. فأعد مشروبات معطرة وأغذية مقوية للمزاج ومرطبة للدماغ تليق بمن يعانى من مثل هذه العلة، وحملها إليه فى الوقت المعتاد لتناول شرابه وطعامه. وعندما شاهد الحسن بن الصباح نوع الشراب والطعام وقف على ما يدور فى خلد الرئيس أبى الفضل وعزم على الرحيل فى الحال. ولقد أكثر الرئيس من التضرع (٢٠٦) والرجاء، ولكنه رفض البقاء. ويقال إنه ذهب إلى كرمان[1]، ثم عاد بعد ذلك وتمكن فى الموت، وقتل نظام

=الصفا لميرخوند، وحبيب السير لخواندامير، وتذكرة الشعراء لدولتشاه، والكتاب المنسوب لنظام الملك "الوصايا"، كذلك فى مقدمة رباعيات الخيام المنشورة بالفارسية والإنجليزية. وانظر تحليلا لهذه القصة فى كل من: كتاب براون فى الموضع المذكور، وحواشى القزوينى على جهار مقالة لنظامى عروضى السمرقندى طبع ليدن ص ٢١٦ - ٢١٧، ومقال لوكهارت فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن المجلد الخامس سنة ١٩٢٩ بعنوان: Hasa – I – Sabbah and The Assassins B.S O S. 1929 VOI. I pp. 676 – 696 ومقال بوين فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعنوان: "The Sar – Gudhasht _ i _ Sayyidna, The Tale of Three School Fellow" and The Wasya of The Nizam el-Mulk by Harold Bown, J.R.A.S. 1931, pp. 771 _ 782. والرأى العلمى السائد الآن بالنسبة لهذه القصة أنها أسطورة اختلقها الإسماعيلية ليضعوا زعيمهم الحسن بن الصباح فى مصاف وزير عظيم له خطورته وشهرته مثل نظام الملك، أو رياضى فيلسوف كعمر الخيام.

(١) جامع التواريخ ٧٥ = ص ١١٣ ط طهران "إلى مصر"، وهذا خطأ فاحش، فالواضح أن الجوينى قال فى بداية هذه الحكاية: "ولما عاد الحسن بن الصباح من مصر توجه إلى أصفهان"، فلا بد أن تكون هذه الواقعة قد حدثت إذن بعد عودته من مصر وليس قبل عودته.

الملك على يد الفدائيين، ومات السلطان ملكشاه بعد نظام الملك بأربعين يوما، واختلت أمور المملكة واضطربت احوالها وظهر الاضطراب والفوضى فى الولايات. وانتهازا لتلك الفرصة قوى أمر الحسن بن الصباح فكان يلجأ إليه كل من أصابه خوف. فانتهز الرئيس أبو الفضل المذكور فرصة وذهب إلى الموت، وانخرط فى زمرته. وذات يوم اتجه الحسن إليه وقال:" لا نعرف على وجه التحقيق من منا كان مصابا بالماليخوليا أنا أم أنت؟ لقد رأيت أنى عندما وجدت رفيقين لمعاونتى وفيت بقولى وبرهنت على دعواى". فوقع الرئيس أبو الفضل ساجدا عند أقدامه وطلب المغفرة.

وبعد[1] نظام الملك بفترة طعنوا اثنين من أولاده بالخنجر على دفعتين. فأما أولهما المسمى أحمد[2] فقد أصيب بالشلل فى بغداد، (٢٠٧) كما طعنوا فخر الملك[3] بالخنجر فى نيسابور. ثم إنه أخذ بعد ذلك فى قتل الأمراء والقواد والمشاهير الواحد تلو الآخر بحيلة الفداوية، فكان يتخلص من كل من يتعصب معه بهذه الحيلة، ويطول بنا المقام لو ذكرنا أسماءهم[4]. ومن أجل هذا ابتلى القريب والبعيد من أصحاب الأطراف بحبهم وبغضهم فكانوا واقعين فى ورطة الهلاك، أما المحبون فكان ينطبق عليهم حكم "خسر الدنيا والآخرة" لما كان سلاطين الإسلام يقومون به من قهرهم واستئصالهم، وأما المبغضون فكانوا يلوذون بقفص التحفظ والحيطة لما كان يتميز به من مكر وحيلة فقتل منهم الكثيرون.

---

(١) فى جامع التواريخ ٧٥ = ص ١١٣ ط طهران: وقبل واقعة نظام الملك، وذلك خطأ فاحش.

(٢) يعنى أبا نصر أحمد بن نظام الملك الذى كان ملقبا بلقب أبيه نظام الملك، وقد عين من سنة ٥٠٠ - ٥٠٤ وزيرا للسلطان المسترشد بالله، وتوفى فى بغداد سنة ٥٤٤، وقد وقعت حادثة طعنه بالخنجر على يد الباطنية فى سنة ٥٠٣هـ فى جامع بغداد، انظر ابن الأثير فى حوادث سنوات ٥٠٠، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥١٦، ٥١٧، ٥٤٤، وتاريخ السلجوقية للعماد الكاتب ص ٩٦ - ١٠٢ ويكتب لقبه ضياء الملك، وراحة الصدور ص ١٥٢، ١٦٢ - ١٦٥.

(٣) يعنى فخر الملك أبا الفتح المظفر بن نظام الملك، اختاره تتش أرسلان وزيرا له فى سنة ٤٨٧هـ. ثم عمل وزيرا فى السنة التالية لبرقيارق بعد قتل تتش، ونال وزارة السلطان سنجر فى حدود ٤٩٠هـ وبقى فيها عشر سنوات إلى أن توفى. وقد قتل بيد الباطنية فى نيسابور سنة ٥٠٠هـ، انظر ابن الأثير فى حوادث سنوات ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٩٠، ٥٠٠، وتاريخ السلجوقية للعماد الكاتب ص ٨٦، ٢٦٥، وراحة الصدور ص١٣٩، ١٤٣.

(٤) المترجم: نجد أسماءهم فى جامع التواريخ القسم الخاص بالإسماعيلية طبع طهران ص ١٣٤ - ١٣٧.

ولما دب النزاع بين بركيارغ وأخيه محمد، ولدى السلطان ملكشاه، وظهر الاضطراب والخلل فى المملكة اتفق الرئيس المظفر الذى كان حاكم دامغان مع منوبه الأمير داد حبشى[1]. على أن يطلب قلعة كردكوه من السلطان بركيارق، (٢٠٨) فقرن السلطان ملتمسه بالإجابة. فذهب الرئيس المظفر بوصفه نائبا عن حبشى إلى قلعة كردكوه وأنفق فى عمارتها واستحكاماتها أموالا طائلة. ونقل كافة خزائن منوبه إليها. فلما استظهر بالذخائر والخزائن أظهر سر معتقده بقبول الدعوة لصاحب البدعة والتزام طريقة الكفر والإلحاد، وأقام فى القلعة أربعين سنة من قبل الحسن بن الصباح حتى نهاية عمره، وحفر بئرا فى فصيل كردكوه فى الحجر الصلب، وتعمق ثلاثمائة ذراع فلما لم يصل إلى الماء ترك الحفر. وبعد وفاته بسنوات وقع زلزال فتفجرت عين فى البئر.

مجمل القول أن أمر الحسن ودعوته قد ارتفعا بمعاضدة الرئيس المظفر الذى كان سدا منيعا وشرا بليغا. وكان المقيمون فى قلعة لمسر[2]، وهى تقع أيضا فى رودبار بالموت، يرفضون دعوته فأرسل أحد رفاقه المسمى كيابزرك أميد مع جماعة من الملاحدة فتسلق القلعة خفية فى ليلة الأربعاء العشرين من ذى القعدة سنة خمس وتسعين[3] وأربعمائة (٢٠٩) وقتل ساكنيها، وأقام بزرك أميد عشرين عاما فى تلك القلعة، ولم يكن ينزل منها إلا عندما يستدعيه الحسن.

وكان للحسن بن الصباح ولدان، أحدهما يقال له الأستاذ حسين، وكان فى قلعة الموت علوى يقال له زيد بن حسنى، وقد كان يدعو لنفسه سرا، وكان قد أوشك على أن يضع نهاية لأمر الحسن بن الصباح. وفى بداية الأمر قتل حسين القاينى[4] الذى كان

---

(١) الأمير داد حبشى بن التونتاق من أمراء السلاجقة المعروفين وكان واليًا على خراسان وقتل فى سنة ٤٩٣هـ فى الحرب التى نشبت بينهم وبين سنجر (انظر ج ٢ ص ٢، ٣، ج٣ ص ١٩٥).

(٢) المترجم: زارت الآنسة فريستارك أطلال لمسر فى سنة ١٩٣١م، ووصفت مشاهداتها فى تلك المنطقة فى فصل كتبته بعنوان "قلعة الحشاشين فى لمسر"، وهو الفصل الرابع من كتابها The Valleys of The Assassins.

(٣) جامع نسخة باريس ورقة ٧٦: وثمانين، = طبع طهران ص ١١٥: تسع وثمانين.

(٤) حسين القاينى من دعاة الحسن بن الصباح المعروفين.

داعى قهستان بيد حسين[١] الدنباوندى. فاتهم الأستاذ حسين بن الصباح بدم حسين القاينى، فأمر الحسن بقتل ابنه أحمد[٢] (٢١٠) الدنباوندى. وبعد مضى عام وقف على حقيقة الأمر فقتل العلوى بابنه الذى قتل.

ولما كان الحسن بن الصباح قد وضع أساس العمل والناموس على الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٣]، فلم يشرب أحد فى ملكه الخمر جهارا أو يصبها فى جرة طوال خمسة وثلاثين عاما[٤] أقامها فى الموت. وقد وصل به الأمر إلى أنه طرد من القلعة رجلا كان يضرب على الناى فلم يعد إليها مرة ثانية. وكان ابنه الآخر واسمه محمد قد اتهم بشرب الخمر فأمر بقتله. وكان من عادته أن يشير إلى أنه إزاء قتل ولديه الاثنين لن يتصور أحد بعد وفاته أنه كان يقوم بالدعوة من أجلهما وأن ذلك كان هدفه.

وعلى منوال هذا الناموس حدث ذات مرة أنه أرسل فى وقت الحصار[٥] امرأته مع ابنتيه (٢١١) إلى كردكوه وكتب إلى الرئيس المظفر: "إذا قام هؤلاء النسوة بالعمل على المغزل من أجل الدعوة فأعطهن أجر حاجتهن". ومنذ ذلك الوقت لم يكن حكامهم[٦] يحتفظون بنسائهم إلى جانبهم أثناء تأديتهم لوظيفتهم.

ولما تمادى الاستيلاء الصباحى واستفحل جمع السلطان محمد بن ملكشاه الجيوش لاستئصالهم، وأرسل على رأسها نظام الملك أحمد بن نظام الملك[٧]. فطوق الموت

---

(١) يبدو من سياق العبارة بعد ثلاثة أسطر أخرى أن "أحمد الدنباوندى" ينبغى أن يكون فى مكان "حسين الدنباوندى" ويظهر أن هذا هو الصواب. وربما كان النساخ، أو المصنف نفسه – نظرًا لكثرة تكرار أسماء الحسن وحسين وحسنى وقد وردت هذه الأسماء عدة مرات على التوالى فى هذه الأسطر الثلاثة – قد أبدلوا "أحمد" بـ "حسين" دون قصد.

(٢) الحاشية السابقة.

(٣) ليس "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" كالمصطلح المستعمل اليوم.

(٤) جامع التواريخ ٨٢: ثمانية وثمانين = ص ١٢٤ ط طهران: ثمانية وثلاثين.

(٥) يعنى محاصرة الموت التى استمرت ثمانى سنوات وقام بها جنود السلطان محمد بن ملكشاه، كما سيصرح المصنف فى الصفحتين التاليتين.

(٦) المترجم: ترجمنا كلمة "محتشم"، وكان يعبر بها عن الرئيس المحلى فى دولة الإسماعيلية فى إيران، إلى: حاكم (انظر كتاب "المغول فى التاريخ" للأستاذ الدكتور فؤاد الصياد ص ١٤٦).

(٧) انظر ص ٢٠٦ ج ٣ وما يقابلها من الترجمة العربية.

واستاوند[1] القرية منها على شاطئ انديج[2]، ونشب بينهم القتال فترة من الوقت، وأتلفوا غلتهم. فلما (٢١٢) عجز عن إنجاز مهمته خرج الجيش من رودبار. وعم قلاعهم غلاء عظيم حتى اقتاتوا بالعشب، وقد أدى ذلك بهم إلى أن دفعوا بنسائهم وأبنائهم إلى كل صوب، كذلك أرسل هو الآخر امرأته وابنتيه إلى كردكوه. وكان الجيش يهاجم رودبار المرة تلو المرة طيلة ثماني سنوات متصلة فيتلف الغلال، وكان الجانبان منشغلين بالقتال. فلما عرف(السلطان محمد) أنه لم يعد لدى الحسن ورجاله قوت ولا قوة أمر الأتابك نوشتكين شيركير[3]على الجيوش فى أول سنة إحدى عشر(ة) وخمسمائة وأمره بأن يحاصر القلاع من الآن فصاعدا. وفى أول شهر صفر حاصروا لمسر، وفى الحادى عشر من ربيع حاصروا الموت. وأقاموا المجانيق واشتدت الحرب بين الفريقين حتى ذى الحجة من السنة نفسها، ولما أن أوشكوا على الاستيلاء على القلاع وتخليص الخلق من فتنهم وصل الخبر بوفاة السلطان محمد بن ملكشاه فى أصفهان. فتفرقت الجيوش، وظل الملاحدة أحياء، وسحبوا الذخائر وآلات الحرب والأسلحة التى كان الجيش قد جمعها إلى داخل القلاع.

لما[4] كان لكل حظ غاية ولكل أمر نهاية قدر الحق تعالى بكمال علمه وقدرته حدها ووقتها (٢١٣) فى أزل الآزال، وإلى أن تحين تلك الساعة لن يتسنى لشىء أن

---

(١) لم أعثر فى كتب التواريخ أو كتب المسالك والممالك القديمة أو الكتب الجغرافية الجديدة على أية إشارة لاستاوند، ولما كان المصنف يشير صراحة إلى أن هذا الموضع كان قريب من الموت فى حدود دماوند وهو – اتفاقًا – من قلاع الباطنية كما أنه حوصر وفتح فى حدود السنوات نفسها فإنه يحتمل إذن أن يكون استاوند، (انظر معجم البلدان فى عنوان " استناوند"، وابن الأثير فى حوادث سنة ٤٩٤ ج ١٣٢:١٠، وتاريخ ابن اسفنديار ترجمة براون ص ٤، ٢٣١، ٢٤٣ = طبعة إقبال ج ١ ص ٦).

(٢) المقصود هو نهر اندج بفتح ألف وسكون نون وكسر دال مهملة وفى الآخر ج وهو أحد فروع نهر الموت وما زال هذا الاسم يعنى "اندج رود" يطلق عليه حتى الآن، واسم ناحية اند جرود الذى مر مأخوذ من اسم هذا النهر. أما نهر الموت فالمعروف أنه عبارة عن الفرع الشمالى من الفرعين الكبيرين لنهر شاهرود. وفرعه الجنوبى هو نهر الطالقان.

(٣) الأمير نوشتكين المعروف بشيركير كان من أمراء السلاجقة المشهورين، وقد قتل فى سنة ٥٢٥هـ بأمر أبى القاسم ناصر بن على الدركزينى الانسابادى وزير السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٢٥هـ، ج١٠:٢٨٥).

(٤) جواب (لما) هو: "فلم تكن مخاصمة ابن أخى السلطان سنجر... الخ".

يتم بأى حال من الأحوال حتى لو استعملت القوة الوفيرة والآلة والعدة، والدليل على ذلك أن فتح هذه القلاع واستئصال هذه البقاع كان منوطًا بظهور دولة سلطان العالم منكوقاآن وكان منضبطًا بقوة وشوكة وحركة أخيه سلطان الدنيا هولاكو، الذى قلب فى الحقيقة كافة أماكنهم ورباعهم أصلا ورأسًا فى أسبوع واحد، فكان جديرًا بأن ينطبق عليه الحكم ﴿وجعلنا عليها سافلها﴾ مما سيأتى شرحه عقب ذلك. فلم تكن مخاصمة [1] ابن أخى السلطان سنجر لتوجد مجالا لتدارك أمر الملاحدة، فاستعادوا قوتهم مرة أخرى، فلما استقر الملك للسلطان سنجر بدأ بإرسال الجند إلى قهستان لتدارك أمرهم. فاستمرت المخاصمة التامة عدة سنوات، وكان الحسن بن الصباح يرسل الرسل لتحرى[2] الصلح، ولكنه لم يكن يجاب إلى طلبه فخدع الحسن بن الصباح جماعة من خواص السلطان بأنواع المصائب (٢١٤) فكانوا يحفظون غيبه أمام السلطان، وخدع أحد الخدم بمال خطير وأرسل خنجرًا غرسوه فى الأرض أمام سرير السلطان فى ليلة كان السلطان قد نام فيها ثملا، فلما استيقظ ورأى السكين ساوره القلق، ونظرًا لأن التهمة لم تثبت على أحد أشار بأن يظل الأمر سرًّا، فأرسل الحسن بن الصباح رسولا وأعطاه رسالة مضمونها "لو لم تكن إرادة الخير بالسلطان قائمة لكان أجدر بذلك الخنجر الذى غرس فى الأرض الصلبة أن يغرس فى صدر السلطان اللين". فخاف السلطان، ومال لمصلحتهم لهذا السبب. قصارى القول أن السلطان كف عن مهاجمتهم بسبب هذا التمويه، فارتقى أمرهم فى عهده. وسمح لهم بإدرار قدره ثلاثة آلاف دينار من خراج أملاكهم فى ناحية قومش، كما عينهم للحراسة والجباية قدر ضئيل من المال من أبناء السبيل أسفل كردكوه، وما زالت هذه العادة باقية حتى الآن. ولقد رأيت مجموعة من المنشورات السنجرية لاستمالتهم وتملقهم كانت قد ظلت محفوظة فى مكتبتهم، ومنها استطعت أن أستدل على وفور إغضاء السلطان وإغماضه (٢١٥) ونشدانه للسلام معهم. خلاصة القول أنهم نعموا فى عهده بالراحة والرفاهية.

وفى أيام السلطان أيضًا مرض الحسن، فى شهر ربيع الآخر سنة ثمانى عشرة وخمسمائة، وأرسل رجلا إلى لمسر يستدعى بزرك أميد، وعينه مكانه، وجعل على

---

(١) والمقصود بمخاصمة السلطان سنجر الخلاف والنزاع الذى دب بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وعمه السلطان سنجر بعد وفاة أبيه كما ترد مفصلة فى كتب التاريخ.

(٢) "والتحرى القصد والاجتهاد فى الطلب وقوله تعالى: ﴿أولئك تحروا رشدًا﴾ أى توخوا وعمدوا" (لسان).

ميمنته دهدار بو علي الأردستاني وخصه بديوان الدعوة، وجعل الحسن بن آدم القصراني على ميسرته، كما جعل كيابا جعفر، الذى كان صاحب الجيش، أمامه، وأوصى بأن يتم تدبير الأمور باتفاق الأربعة جميعًا واستصوابهم إلى أن يأتي الإمام إلى ملكه. وسارع الحسن ليلة الأربعاء السادس من ربيع الآخر سنة ثماني عشر(ة) وخمسمائة إلى نار الله وسقره.

ومنذ ذلك اليوم الذى صعد فيه الحسن بن الصباح إلى القلعة – كما سبق أن ذكرنا – إلى أن توفى، بعد خمسة وثلاثين عامًا، لم ينزل من القلعة مرة واحدة ولم يخرج من القصر الذى كان يقيم فيه سوى مرتين، وصعد إلى سطح (٢١٦) القصر مرتين؛ إذا إنه اعتكف باقى أوقاته داخل القصر يطالع الكتب، ويشتغل بتقرير كلام بدعته وتدبير أمور المملكة. ويؤثر عن الصابى أنه عندما كان يؤلف تاريخ التاجى قال لصديق سأله عما يشغله: "أكاذيب ألفقها وأباطيل أنمقها،[١] حديث خرافة يا أم عمرو[٢]".

لما جلس بزرك أميد هو ورفاقه الآخرون استمر فى انتهاج نفس المنهج وسلوك ذات المسلك الصباحي طيلة عشرين عامًا[٣]، وأخذ يحكم البناء (على شفا جرف هار). ولما

---

(١) انظر ابن خلكان فى ترجمة الصابى (إبراهيم بن هلال)، وقد نقل ابن خلكان هذه العبارة بعكس ترتيبها هنا: أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها.

(٢) مصراع بيت لعبد الله بن الزبعرى الشاعر المشهور الذى عاصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصدره: حياة ثم موت ثم نشر. ذكره الثعالبى فى ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب (طبع مصر، ص ١٠٢)، وانظر مجمع الأمثال للميدانى فى باب الحاء المهملة لمعرفة أصل "حديث خرافة"، وانظر أيضًا شرح مقامات الحريرى للشريشى (ج ١ ص ٨٢) وبه تفصيل ممتع للغاية فيما يتعلق بأصل هذا الحديث.

(٣) رغم وجود كلمة "عشرين عامًا" فى أغلب النسخ الخطية القديمة لجهانكشاى، وكذلك فى جامع التواريخ ٨٩ = ص ١٣٧ ط طهران فإن هذه الكلمة على وجه القطع واليقين ودون أدنى شبهة، غلط فاحش وخطأ بين؛ لأن مدة سلطنة بزرك أميد باتفاق المؤرخين ومن بينهم المؤلف كانت أربعة عشر عامًا وليست عشرين؛ ذلك لأن وفاة الحسن ابن الصباح وقعت فى ٦ من ربيع الآخر سنة ٥١٨هـ كما ذكر المصنف فى السطور القليلة السابقة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد صرح المصنف فى ص ٢٢١ بأن وفاة بزرك أميد كانت فى ٢٦ من جمادى الأولى سنة ٥٣٢هـ، ومن الواضح أن الفترة بين هذين التاريخين تبلغ أربعة عشر عامًا وشهرين وعشرين يومًا وليست عشرين عامًا، وفضلا عن هذا الاستنباط فإن تاريخ كزيده ص ٥٢١ وحبيب السير الجزء الرابع من المجلد الثانى ص ٦٢ يحددان مدة حكم بزرك أميد بصراحة ووضوح بأربعة عشر عامًا وشهرين وعشرين يومًا، فليس خطأ كلمة (عشرين عامًا) موضعًا للشك والشبهة أصلا، وربما كان هذا الخطأ موجودًا فى المصدر الإسماعيلى المشترك الذى استفاد به كل من الجوينى ورشيد الدين وليس من النساخ المتأخرين.

كانت دولة السلطان سنجر لا زالت قائمة فلم يكن هناك أحد يجد فى إقلاع[1] قلاعهم وهدم بقاعهم.

وفى تلك الفترة جرت منافرة بين أمير المؤمنين المسترشد بالله وبين السلطان مسعود السلجوقى، الذى كان حاكمًا للعراق وآذربيجان نيابة عن عمه السلطان سنجر وسبب ذلك أنهم كانوا فى تلك الأيام فى بغداد يذكرون اسم السلطان الغائب فى الخطبة بعد اسم الخليفة، وفقًا لما كان يجرى عليه الحال فى عصر آل بويه، ولكن السلطان مسعودًا لم يكن يذكر على المنابر، فاستقر فى خاطره العزم على مهاجمة بغداد. فأراد المسترشد بالله أمير المؤمنين أن يبادر هو فيسبقه على رأس (٢١٨) جيش كثيف، فلما وصل بالقرب من همدان تقدم السلطان مسعود بجيشه من الناحية المقابلة، فغدر جماعة من جيش بغداد، وانضموا إلى جيش السلطان، وأسر وزيره وكافة أركان دولته. فأمر السلطان مسعود جنده بألا يؤذوا مخلوقًا قط من جيشه وأن يقنعوا بالمال والغارة. ولم يهلك من الجانبين فى هذه المعركة سوى خمسة أنفس.

وقد حبس السلطان مسعود أركان دولة الخليفة بأسرهم فى القلعة، ولكنه التزم حرمة أمير المؤمنين، فسار فى صحبته إلى مراغة، وأرسل رجلا إلى عمه السلطان سنجر ينهى إليه ما حدث. وقد اتفق أن وقعت فى تلك الأيام زلازل متواترة وصواعق مترادفة، فأوقعت الرياح العاصفة الدنيا فى الاضطراب، فنسب كافة الخلق ذلك إلى وقوع هذا الحادث، فأرسل السلطان سنجر وكتب خطابًا إلى السلطان مسعود مضمونه ما يلى: يتعين على ابن غياث الدين مسعود حالما يطلع على هذا المنشور أن يتوجه لخدمة أمير المؤمنين وبعد تقبيل تراب بلاط (٢١٩) حامى العالم يلتمس الصفح الجميل من الجرائم والأثقال[2] التى كانت سببًا للخذلان، وأن يستغفر من بادرات الزلل، وأن يعلم أننى أعرف أن وقوع هذه الحادثة هو السبب فى حدوث مختلف الصواعق وهبوب رياح العواصف التى لم يشاهدها أحد قط فى هذا العصر، والتى استمرت عشرين يومًا

---

(١) إقلاع بوزن إفعال بمعنى الاستئصال، لم يتفق لنا العثور عليها فى كتب اللغة المعتمدة، وقد جاءت فقط بهذا المعنى كل من: قلع، مجردة، واقتلاع (افتعال)، وتقليع (تفعيل).

(٢) "والأثقال الذنوب وقوله تعالى:﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت:١٣] أى آثامهم" (تاج العروس).

حتى الآن، ولذا كنت أخشى أن يضطرب الجند والخلق من جراء هذا الاختلال، وليعلم، والله، أن تلافى هذا الأمر واجب، وليعد ذلك فرضًا عينًا.

ويمكن الاستدلال بما حدث على ما كان عليه السلطان من خشية الله ونقاء العقيدة.

ولقد توجه السلطان مسعود ممتثلا للأمر إلى حضرة أمير المؤمنين، وبعد تقديم الاعتذار والتزام الاستغفار والإقرار بالآثام والأوزار التمس العفو. وقد حمل السلطان مسعود غاشية أمير المؤمنين تبركًا وتيمنا، وسار راجلاً أمام حصانه إلى خيمته التى كان قد أقامها له. فلما استقر أمير المؤمنين على العرش انتصب السلطان واقفًا على قدميه فى موضع الحجاب ومقام النواب.

وأرسل السلطان سنجر مرة أخرى رسولا (لإبلاغهم) أنه إذا كان أمير المؤمنين يفكر الآن فى التوجه إلى دار السلام فلا بد أن يتخذ فى هذا الصدد الاستعداد والترتيب اللائق بحضرته. ولإعلان هذا الأمر أرسل السلطان سنجر أحد المعتمدين[1] من بين كبار المقربين إليه برسالة إلى السلطان مسعود. (٢٢٠) فركب السلطان لاستقبال الرسول، فانتهز جماعة من ملاعين الفداوية والملاحدة فرصة خلو البلاط من الجند والحراس فدخلوا فجأة على أمير المؤمنين وطعنوه بالخناجر فى السابع عشر من ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة فجزع السلطان مسعود جزعًا شديدًا، وأقام عزاء عظيمًا يليق بالجانبين، ودفن أمير المؤمنين فى داخل مراغه[2].

وكان جماعة من قصار النظر وسيئى الطوية بالنسبة للدولة السنجرية ينسبون هذا الحادث إلى حضرة السلطان سنجر[3]، ولكن كذب المنجمون ورب الكعبة، فحسن طوية السلطان سنجر ونقاء سريرته فى اتباع الدين الحنيف والشريعة وتقويتهما، وتعظيمه لكل ما يتعلق بدار الخلافة، إلى جانب شفقته ورأفته(٢٢١) - كل ذلك واضح بحيث لا يمكن أن ينسب إلى حضرته أمثال هذا البهتان وأشكال هذا التزوير،

(١) يطلق عليه كل من العماد الكاتب (ص ١٧٧ = ص ١٦٢ ط مصر) وابن الأثير (١١: ١٢): يرنقش قرآن خوان.

(٢) "وبقى حتى دفنه أهل مراغة" (ابن الأثير ١١: ١٢).

(٣) من بين الأشخاص الذين يعرفون أن المسترشد قتل بتحريض من السلطان سنجر العماد الكاتب فى تاريخ السلجوقية ص ١٧٨ = ص ١٦٢ ط مصر: "فعرف بقرائن الأحوال أن سنجر سير الباطنية لقتله وما أشنع وما أفظع ما أقدم عليه من فعله".

فقد كان منبع الصفح ومنشأ الرأفة. مجمل القول والكلام يجر بعضه بعضًا، أنا وصلنا إلى ما نريد أن نقول، فقد ظل بزرك أميد جالسًا على رأس الضلال فى دست[1] الجهل حتى السادس والعشرين من جمادى الأول (صح: الأولى) من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، حيث سحق تحت أقدام الهلاك واشتدت لهيب الجحيم من حطب جثته.

أما ابنه محمد الذى كان قد جعله وليًّا لعهده قبل وفاته بثلاثة أيام، فقد شايع[2] سنته بحكم ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾، كما كانت خاتمة أبيه الوخيمة هى قتل المسترشد بالله كانت فاتحته الذميمة قتل ابن المسترشد الراشد بالله، وسبب ذلك ما يلى:

لما جلس الراشد للخلافة مال البعض لخلعه بينما تمسكت طائفة بقرارها فى مبايعته. وبعد أن اشتبك مع السلطان مسعود فى عدة مواقع استقر عزمه على السير من بغداد لقصد الملاحدة والثأر لدم أبيه. فأصيب بمرض فى الطريق ووصل إلى أصفهان وهو لا يزال على حالته من الوهن. فدخل عليه فى بلاطه جماعة من مخاذيل الفداوية فجأة وطعنوه بالخناجر[3]، وقد دفن هو أيضًا حيث قتل. ومنذ ذلك الوقت عاد الخلفاء العباسيون إلى الاختفاء واحتجبوا عن الخلق.

وكان محمد بن بزرك أميد، متابعًا لمذهب الحسن بن الصباح وأبيه، يبذل قصارى جهده فى إحكام قواعد المذهب، ودأب على نهج نهجهم فى إقامة رسوم الإسلام والتزام الشرع (على النحو) الذى أظهروه (٢٢٢)، إلى أن توفى فى الثالث من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة وألحق بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

---

(١) يعنى فى مسند أو عرش.

(٢) شايعه: قواه وتابعه.

(٣) فى ٢٥ أو ٢٦ رمضان سنة ٥٣٢هـ (ابن الأثير ١١: ٢٨، العماد الكاتب ص ١٨٠ = ص ١٦٢ ط مصر).

ذكر ولادة الحسن بن محمد بن بزرك أميد

ولد الحسن فى سنة عشرين وخمسمائة. ولما قارب البلوغ استولت عليه الرغبة فى تحصيل وبحث أقاويل مذهب الحسن بن صباح وأسلافه، فتتبع بإتقان كلام الدعوة فى طريقة الصباحى وإلزاماته، وصار بارعًا فى تقرير مذهبهم. فلما قام بخلط ذلك النوع من الكلمات بمواعظ المتصوفة وطرقهم، وصب من تخريجاته الشخصية الغث والسمين فى هذا الكتاب، كان يردد على الدوام فى عهد أبيه محمد، الكلمات الخطابية وأمثالها التى يعجب بها العوام والناقصون من الناس منذ النظرة الأولى التى يسمونها النظرة الخرقاء[1]، كما كان يقول باستحسان تلك الدعوة، ويزيد من خداع أولئك القوم. ولما كان أبوه عاريًا من هذا الفن فقد بدا ابنه بهذه التلبيسات والتزويقات[2] عالمًا متفوقًا إلى جانبه، فكان من أجل ذلك يرفع من ضلالات أهل الجهالة؛ رغبة فى أن يتابعه العوام. (٢٢٤) ونظرًا لأنهم لم يكونوا قد سمعوا مثل تلك المقالات من أبيه بدأوا يظنون أنه هو الإمام الذى وعدهم به الحسن بن الصباح. فاشتدت محبة الطائفة له وكانوا يسارعون إلى متابعته.

فلما سمع أبوه محمد بهذا الحال ووقف على مظانّ القوم، وكان متشددا فى التزام مبادئ أبيه والحسن[3] فيما يختص بالدعوة للإمام وإظهار شعار الإسلام[4]، فاعتبر أن سلوك ابنه معارض لتلك المبادئ، وأنكره عليه إنكارًا بليغًا، وجمع الناس وقال: "هذا

---

(١) لا شك فى أن المصنف يقصد أن يشير إلى المثل المعروف "النظرة الأولى حمقاء" (أى خادعة وقائمة على غير أساس والمقصود من ضرب هذا المثل هو وجوب التروى والتفكر وتجديد النظر؛ فالنظرة الأولى غير كافية؛ لأنها فى الغالب خاطئة واهية). وننتهى من هذا إلى أن هذا المثل لم يكن بعين العبارة فى ذهن المصنف، وأنه نقله من حافظته فبدل حمقاء بخرقاء، ومعناهما واحد، انظر فى المثل المذكور ذيل مجمع الأمثال للميدانى (لفريتاغ) ج ٣ ص ٥١٣ نقلا عن المستصفى فى الأمثال للزمخشرى وعن غاية الكمال فى شوارد الأمثال لشرف الدين إسماعيل المعرى.

(٢) التزويق معناه التزيين والتحسين الظاهرى والتمويه والتلبيس ـ قال فى تاج العروس: "والتزويق والتزيين والتحسين، زوقت الشىء إذا زينته وموهته وكلام مزوق، أى محسن، وقد زوقه تزويقًا، ويقال هذا كتاب مزور مزوق" انتهى أصل الكلمة معناها الطلاء بالزئبق.

(٣) يعنى الحسن بن الصباح.

(٤) يعنى أن محمد بن بزرك أميد كان متشددًا ومتصلبًا فى اتباع طريقة أبيه بزرك أميد والحسن بن الصباح والعمل بسيرتهما فى الدعوة للإمام والتقيد بمتابعة شريعة الإسلام.

الحسن ابنى، وأنا لست الإمام، بل إننى داع من دعاته، وكل من يعير هذا الكلام أذنًا صاغية ويصدقه يعتبر كافرًا لا دين له". وعلى هذا الأساس أنزل بالقوم الذين سلموا بإمامة ابنه أنواع المطالبات والعقوبات، وقتل مائتين وخمسين نفسًا فى القلعة من المتهمين دفعة واحدة وربط جثثهم على ظهور مائتين وخمسين من المتهمين بنفس التهمة، وأخرجهم من القلعة. وبهذه الوسيلة انزجروا وامتنعوا.

ولقد استولى الخوف على الحسن نفسه من تبعة هذا، واشتدت خشيته من أبيه. فكتب فصولا فى التبرؤ من تلك التهمة والتباعد عن تلك المقالة (٢٢٥) وطعن فى الجماعة التى كانت تظن مثل هذه الظنون ولعنهم، وبذل قصارى جهده فى إبطال هذه الأقوال وتثبيت مذهب أبيه وتوطيده وألف الرسائل التى ما زالت ألفاظها مشهورة حتى الآن بين تلك الطوائف.

وكان الحسن قد اعتاد شرب الخمر خفية فتناهى إلى سمع أبيه إشارة عن هذا الحال فبذل غاية جهده فى استكشاف حقيقة الأمر. إلا أن الحسن أخذ يدبر لطائف الحيل للتخلص من التهمة، حتى تبخر ذلك الظن من ضمير أبيه، ولم يعد له أثر.

وكان أتباعهم الكفرة الفاسقون، الذين أوشكوا على الانسلاخ من شعار الشريعة، يعتبرون ارتكاب المحظور وشرب الخمور علامة على ظهور الإمام الموعود. فلما قام مقام أبيه بدأ أشياعه وأتباعه بزيادة توقيره بحكم اعتقادهم فيه؛ إذكانوا يظنون أنه الإمام. فلما تفرد واستبد[1] لم يعاتب القوم على إطلاق ذلك الهذيان ولم يعاقبهم، بل إنه بدأ، منذ اللحظة الأولى لجلوسه فى مكان أبيه، يجيز مسخ ونسخ الرسوم الشرعية والقواعد الإسلامية التى ظلوا يلتزمون بها منذ عهد الحسن بن الصباح، وكان يتناولها بالتغيير، (٢٢٦)، وفى رمضان سنة تسع وخمسين أمر بإقامة منبر فى ساحة ميدان أسفل الموت بحيث تكون قبلته فى الوجهة المغايرة لقبلة أهل الإسلام. فلما أن كان السابع عشر من رمضان أمر أهالى ولايته، الذين كان قد استدعاهم إلى الموت فى ذلك الحين، بأن يجتمعوا فى ذلك الميدان. ونصب أربعة أعلام كبار الحجم ذات أربعة ألوان هى: الأبيض والأحمر والأخضر والأصفر، كانوا قد أعدوا لهذا الغرض، على أركان المنبر الأربعة. ثم اعتلى المنبر وأظهر لأولئك المتجبرين الأشقياء، الذين كانوا يتوجهون بتأثير

(١) المترجم: تفرد واستبد كلاهما بمعنى واحد (انظر القاموس المحيط).

غوايته وإضلاله نحو الشقاء والخسران، أن رجلا قدم إليه فى الخفاء من لدن المقتدى المذموم، أعنى الإمام الموهوم الذى كان مفقودًا ليس له وجود وأحضر على حد تعبيرهم، خطبة وسجلا[1] تمهيدًا لقاعدة معتقدهم الفاسد. ثم ألقى وهو معتلى المنبر المنحرف حديثًا فى قضية مذهبهم الباطل المتعسف. وقال إن إمامهم قد فتح باب رحمته وأبواب رأفته على المسلمين وعليهم كذلك، وأرسل إليهم الترحم، ودعا أتباعه الخاصين المختارين ورفع عنهم آصار[2] الشريعة وأوزارها ورسومها (٢٢٧)، وأوصلهم إلى القيادة. وعندئذ قرأ خطبة باللغة العربية، كانت جميع معانيها كذبًا وزورًا وتلفيق خرافات كما كان أغلب ألفاظها غلطًا وسقطًا وخطأ فاحشًا وعباراتها مشوشة، (قرأها) على أنها كلام إمامهم المجهول المعدوم.

وأوقف واحدًا من جهال ضلال أتباعه الأراذل كان عارفًا بالعربية[3] على إحدى درجات المنبر ليترجم للحاضرين باللغة الفارسية تلك الترهات المردودة والألفاظ غير المحدودة ويقررها لهم. وكان مضمون خطبته: "الحسن بن محمد بزرك أميد هو خليفتنا وحجتنا وداعينا، على شيعتنا أن يطيعوه ويتابعوه فى أمور الدين والدنيا. وأن يعتبروا حكمه محكمًا، ويدركوا أن قوله هو قولنا، ويعرفوا أن مولانا (فاها بفيهم)[4] قد نشر رحمته عليهم، ودعاهم إلى رحمته وأوصلهم إلى الله".

وعلى هذا المنوال قرأ زخارف الزور، ولطائف الغرور، والفضائح المخرقة[5]، وقبائح الزندقة، المجهولة فى الشرع المرفوضة للعقل.

---

(١) سيتكرر اصطلاح "الخطبة والسجل" فى نفس الفصل بعد ذلك.

(٢) "والإصر العهد الثقيل، وفى التنزيل ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ والإصر الذنب والثقل، وجمعه آصار" (لسان).

(٣) المترجم: كان هذا هو الفقيه محمد البستى. انظر إيفانوف (كلام بير) ص ١١٧.

(٤) جملة دعائية، قل فى اللسان: "ومن أمثالهم فى باب الدعاة على الرجل فاها لفيك تريد فا الداهية، قال سيبويه فاها لفيك غير منون إنما يريد فا الداهية وقيل معناه الخيبة لك وأصله أنه يريد جعل الله بفيك الأرض كما يقال بفيك، وحكى فاها بفيك منونة، أى ألصق الله فاك بالأرض" انتهى باختصار.

(٥) مخرقة بفتح ميم وسكون خاء معجمة بمعنى الكذب والحيلة والخداع وخفة اليد قال فى تاج العروس: "المخرقة إظهار الخرق توصلا إلى حيلة وقد مخرق والمخرق المموه وهو مستعار من مخاريق الصبيان" يقول الثعالبى فى ثمار القلوب ص ٢٠٠ "الشعوذة هى السرعة والخفة وهى مخاريق وخفة فى اليد وتصوير الباطل فى صورة الحق" انظر أيضًا طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١: ٣٢٠ ص ٢١، وسياستنامه لنظام الملك ص ٤٨ س ١٩.

(٢٢٨) وبعد الانتهاء من الإنشاد البارد، والإيراد غير الوارد نزل من على المنبر وصلى ركعتى العيد، فأعد خوان ودعى القوم للإفطار، ففعلوا، بينما كان أصحاب الملاهى وأسباب المناهى يحيطون بهم إظهارًا للطرب والابتهاج على رسم الأعياد. وقال: "اليوم عيد"[١]. ومنذ ذلك الحين والملاحدة – على الباقين منهم ما يستحقون – يطلقون على اليوم السابع عشر من رمضان اسم (عيد القيام)، وفى ذلك اليوم كان أغلبهم يشرب الخمر بشره ويتظاهر باللهو والطرب، فقد كان أكثر هؤلاء المجهولين المخذولين يريدون بذلك التهتك والإفضاح مضايقة المسلمين الذين ابتلوا بالإقامة بينهم ومعاندتهم.

وما أنا منهم بالعيش فيهم   ولكن معدن الذهب الرغام[٢]

كذلك أظهر الحسن قبيح السيرة، إذ كان مضل البصيرة، فى أثناء الفصل والخطبة[٣] المذكورة أنه حجة وداع من قبل الإمام. يعنىهو القائم مقامه ونائبه المنفرد، وهو فى نفس الوقت ابن محمد بن بزرك أميد؛ لأنه كان يكتب على أبواب القلاع والحصون ولوحات الجدران وعناوين كتاباته أنه "الحسن بن محمد بن بزرك أميد". وعلى هذا النمط كانت كل أقوال أولئك الجهال الضلال وأفعالهم مخاريق[٤] وتزاويق[٥]كما يقال فى المثل السائر يسر حسوا فى ارتغاء[٦]. ثم إنه أخذ شيئًا فشيئًا يؤكد فى الفصول التى كان يكتبها دون استناد إلى أصول لتقرير المذهب غير المهذب الذى كان يضطلع بنشره، أحيانًا بالتعريض وأحيانًا بالتصريح، أنه على الرغم من أنهم اعتبروه فى الظاهر ولد محمد بن بزرك أميد إلا أنه فى الحقيقة هو الإمام وهو ابن إمام من أولاد نزار بن المستنصر.

---

(١) "اليوم عيد القيامة" جامع التواريخ ١٠٦ (ص ١٦٥ طبع طهران).

(٢) للمتنبى من قصيدة مطلعها:

فؤاد ما يسليه المدام   وعيش مثل ما تهب اللئام

(٣) سيتكرر فيما يلى ذكر تعبير "الفصل والخطبة".

(٤) انظر حاشية (٤) فى الصفحة السابقة.

(٥) انظر فيما سبق ص ٢١٢ ج ١.

(٦) الارتغاء شرب الرغوة، قال أبو زيد والأصمعى أصله الرجل ينال من اللبن – يضرب لمن يظهر أمرًا وهو يريد غيره (مجمع الأمثال ٢: ٢٥١، ولسان العرب فى ر غ و).

ولما أرسل إلى قهستان، فى ذلك الوقت، بالعلامة[1] التى ترمز إلى دعوته التى يطلقون عليها اسم "دعوة القيامة"، وأراد إشاعة تلك الشناعة هناك أيضًا، وكان قد ذكر رغبته فى ذلك صراحةً، فالذى حدث هو أن حاكم قهستان الذى كان نائبًا من قبله فى تلك المملكة، يسمى الرئيس المظفر، فأرسل الحسن إليه الخطبة والسجل والفصل[2]، وقد سبق ذكرها، مع شخص يقال له محمد بن خاقان ليقرأها على القوم هناك. وأعطى، على لسان (٢٣٠) ذلك الشخص، رسالة إلى أهالى قهستان ملائمة لمضامين تلك الأكاذيب.

وفى الثامن والعشرين من ذى القعدة سنة تسع وخمسين وخمسمائة أقام الرئيس المظفر فى القلعة التى كانت منشأ كفرهم وإلحادهم رغم أنهم كانوا يطلقون عليها اسم "مؤمناباد" منبرًا منحرفًا عن سمت السداد منصرفًا لجهة الفساد على الوجهة التى كان إمامه المفتضح قد ولاه إياها فى الموت. واعتلى المنبر، وقرأ الخطبة والسجل والفصل، التى أرسلت إليه، ثم صعد محمد بن خاقان إلى الدرجة الثانية من المنبر وقرأ رسالة الحسن الشفوية ومضمونها "أن المستنصر كان قد أرسل قبل ذلك برسالة إلى الموت مؤداها أن الله تعالى جعل على الدوام بين الناس خليفة، وجعل لهذا الخليفة خليفة. واليوم أنا خليفة الله وخليفتى الحسن بن الصباح، فلو أطاعوا أمر الحسن واتبعوه فقد أطاعوا أمرى أنا المستنصر، واليوم أقول، أنا الحسن، إننى خليفة الله على أرضه وخليفتى هو هذا الرئيس المظفر، فينبغى أن تطيعوا أمره وتعتبروا كل ما يقوله دينًا لكم".

وفى ذلك اليوم، لدى تقرير إفشاء هذه المخازى وتقرير تلك المساوئ فى مقام الملاحدة مؤمناباد، قام حريم ذلك الجمع بضرب الصنج والرباب وشربن الخمر جهارًا على درجات المنبر ذاتها.

ولأولئك الجهلة (٢٣١) المجهولين والبطلة المخذولين روايتان، بل غوايتان، فى كيفية الميلاد والانتساب الباطل للحسن المطعون، الذى كان فى الحقيقة وثنًا ملعونًا، من إمام مفترض، رغبة فى إثبات أنه من أعقاب نزار بوجه منقوض. والمبنى على المحال محال. فالوجه الأشهر الذى هو معتقد أكثرهم (يدل على أنهم) لم يتوقفوا ولم يتخلفوا قط عن

(١) ولعل المقصود هنا حكاية الأعلام الأربعة ذات الألوان الأربعة: الأبيض والأحمر والأخضر والأصفر التى سبقت الإشارة إليها فيما سبق.

(٢) مر ذكرها فى الصفحات القليلة السابقة..

إطلاق ولد الزنا عليه؛ ذلك لأنهم اتفقوا جميعًا فى القول بأن شخصًا من مصر يقال له القاضى أبو الحسن الصعيدى، كان من أقارب المستنصر وثقاته، جاء إلى الموت عند الحسن بن الصباح فى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، أعنى بعد سنة واحدة[1] من وفاة المستنصر، ومكث بها ستة أشهر ثم عاد فى رجب من نفس السنة إلى مصر. وقد كان الحسن بن الصباح يؤكد ضرورة معاملته بالتعظيم والتوقير، كما كان هو نفسه يبذل جهدًا بالغًا فى معاملته على هذا النحو. وكان قد أحضر إلى الموت، فى زى التخفى ولباس التورية، حفيدًا لنزار الذى كان إمامًا من جملة أئمتهم، ولكنه لم يفش هذا السر ولم يظهره إلا للحسن بن الصباح وحده دون غيره. وقد أسكنوه قرية أسفل الموت. وبسبب (٢٣٢) الحكمة الأزلية، كان يجب أن ينتقل مستقر الإمامة من مصر إلى ولاية الديلم، ولأنه كان ينبغى أن تظهر تلك الفضيحة التى يطلقون عليها اسم "دعوة القيامة" فى الموت – زنا نفس الشخص[2] الذى قدم من مصر أو ابنه الذى كان قد ولد داخل حدود الموت – ولم يطلع الناس على حقيقة أمره – بامرأة محمد بن بزرك أميد، فحملت تلك المرأة بالحسن من الإمام. فلما اتفق أن وقعت الولادة غير المباركة فى منزل محمد ابن بزرك أميد، اعتبر كل من محمد وأتباعه أنه ابنه[3] بينما كان الحسن إمامًا ابن إمام.

هذا هو القول المشهور الذى يعتبر متمسك الجمهور، وهو الأصح والأصلح عندهم، (٢٣٣) وهو مبنى على أنواع الخزى والافتضاح. وأول ذلك أنهم كانوا يقولون إن الصبى الذى رضوا بإمامته ابن حرام. ويقول الشاعر فى ولد الزنا:

فمتى تقر العين من ولد الزنا ومتى تطيب شمائل الأوغاد

وأما ثانيًا فكيفية نسبه الذى أثبتوه بلا حسب مخالفة للخبر النبوى المصطفوى على قائله الصلاة والسلام: "الولد للفراش وللعاهرة الحجر"، صدق رسول الله صلى الله عليه

---

(١) كانت وفاة المستنصر كما مر فى هوامش ص ١٧٩ (وما يقابلها من الترجمة) فى ١٨ من ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ وإذا كان القاضى أبو الحسن الصعيدى قد بقى فى الموت ستة أشهر كما يقول المصنف ورجع إلى مصر فى رجب ٤٨٨هـ فلا يكون قدومه إلى الموت بعد وفاة المستنصر بسنة كاملة، بل بشهر أو شهرين على الأكثر، كما يتضح من الحساب، إذن فتعبير "سنة واحدة" مسامحة غير عادية.

(٢) يعنى حفيد نزار.

(٣) يعنى محمد بن بزرك أميد.

وسلم، وأن القول ما قالت حذام[1]. وأما ثالثًا فإن الطامة الكبرى وموجب الشقاء، وخسران العقبى، أنهم –رغبة فى تصحيح هذا الوجه السقيم– وضعوا حال الأنبياء والمرسلين موضع التشبيه، ونسبوا هذا الحال المموه للرسل المنزهين، فقالوا هذا الانتساب كانتساب ذبيح الله إسماعيل ابن خليل الله إبراهيم صلوات الله عليهما، وقد كان فى الحقيقة ابن ملك السلام الذى ورد ذكره فى التوراة بملخيزداق، كما جاء فى مقدمة هذه الأوراق. ولقد كان إسماعيل – على زعم هذه الطائفة الضالة إمامًا من جملة أئمتهم، وكانوا قد اعتبروه فى الظاهر ابن إبراهيم صلوات الله عليه، فيكون إسماعيل بمقتضى هذه الدعوة إمامًا عندهم وإبراهيم ليس إمامًا.

أما الوجه الثانى الذى (٢٣٤) كان معتقد أولاد بزرك أميد وأقاربه، أعنى الخاصة من أهالى منطقة الموت، فهو أن محمد بن بزرك أميد رزق بولد فى قلعة الموت، وفى نفس اليوم رزق الإمام المجهول – الذى لم يكن له وجود – بالحسن من أمه فى القرية التى تقع أسفل الموت. وبعد ثلاثة أيام صعدت امرأة قلعة الموت ودخلت قصر محمد بن بزرك أميد. وقد لاحظ عدة أشخاص أنها كانت تضع تحت عباءتها شيئًا. وقد جلست حيث وضع طفل محمد بن بزرك أميد لينام، وبحكم الحكمة الإلهية لم يكن هناك فى تلك الساعة غيرها، فوضعت الحسن هذا، الذى كان ابن إمام، مكانه وحملت طفل محمد بن بزرك أميد تحت الرداء وذهبت.

وهذا الوجه فى حد ذاته أكثر افتضاحًا من الوجه الأول؛ إذ كيف تدخل امرأة غريبة قصر الملك، ولا يكون حوالى طفل الملك أحد على الإطلاق فتضع طفلا غريبًا مكانه، وتحمله دون أن تسترعى انتباه أحد. وبعد ذلك لا يتمكن أحد قط سواء كان أبوه أو أمه وحاضنته والخدم والغلمان من التعرف على الاختلاف بين الطفل الغريب وطفلهم. وقد نشأ هذا الوجه ذاته دون أدنى ريب من جراء مكابرة العقل، وتكذيب الحس، ومعاندة العرف والعادة. وبناء على تصديق هذا القول يروون عن محمد بن الحسن هذا أنه كان قد قال: "إن حديث بنوة الحسن بن محمد بن بزرك أميد تشبه بنوة إسماعيل من إبراهيم عليهما السلام. بيد أن التفاوت بينهما لم يتعد معرفة إبراهيم بأن

---

(١) شطر من بيت مشهور للجيم بن صعب أو لوسيم بن طارق، وأصل البيت هكذا:

إذا قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام

انظر شواهد العينى بهامش خزانة الأدب ٤: ٣٧٠، ولسان العرب فى ح ذ م.

إسماعيل ابن إمام، وليس ابنه، لأن تبديل الولدين[1] (٢٣٥) حدث بمعرفة ورضا إبراهيم عليه السلام، ولم يكن ذلك سرًّا مخفيًا عليه. بينما لم يعرف محمد بن بزرك أميد هذا السر وظن أن الحسن ابنه، فى حين أنه كان إمامًا".

ولقد قال أرباب الاعتقاد الأول والرواية المتقدمة أن محمد بن بزرك أميد عرف، بعد ولادة الطفل، أنه ليس ابنه، وأن ذلك الشخص الذى تفترض الطائفة الضالة إمامته قد ارتكب الفجور والزنا بامرأته فقتله خفية. وبمقتضى هذا الظن يكون محمد بن بزرك أميد قد قتل إمامًا.

ولقد كنا ذكرنا أنه[2] كان قد ضيق نطاق التصلب والتشدد فى التزام رسوم الإسلام ومتابعة أركان الشريعة على مبادئ مذهب الحسن بن الصباح، ذلك المذهب الذى كان عين الافتضاح.

فكانوا يعادونه ويلعنه أغلبهم ولا يسمحون بزيارة قبره، الذى كان يقع بجانب قبر الحسن بن الصباح وبزرك أميد ودهدار بوعلى الأردستانى. (٢٣٦) ثم إن الملاحدة جميعًا، خذلهم الله، انقسموا إلى فرقتين مرة أخرى فى عدد الآباء بين الحسن هذا وبين نزار، فقال قوم ينبغى أن يكون بينهم ثلاثة آباء، وهم يدعونهم[3] بالإمامة إذ يقولون إن أسماءهم مجهولة بينما كانوا فى الحقيقة - كما ورد فى المثل - اسمًا بغير مسمى، فهؤلاء القوم يعتقدون أنهم: الحسن بن القاهر بقوة الله بن المهتدى بن الهادى بن المصطفى نزار بن المستنصر. وقال الآخرون لم يكن بينهم أكثر من أبوين لأن القاهر بقوة الله كان لقب الحسن هذا، ويقولون فى نسبه: الحسن بن المهتدى(٢٣٧) بن الهادى بن نزار.

وكانت شهرة الحسن هذا فى عرف طائفة الملاحدة بعلى ذكره السلام، ولقد كان أصل اللقب، حيث طبق فى مبدأ الأمر عليه، دعاء كانوا يقولونه لبعضهم البعض فى زمانه، ثم صار بعد ذلك لقبًا مشهورًا له لا يدعونه بلقب غيره.

---

(١) المراد بـ "الولدين" ولد حضرة إبراهيم وولد ملخيزداق السابق الذكر.

(٢) أى محمد بن بزرك أميد

(٣) يعنى أنه لما كانت الأسماء الحقيقية للآباء الثلاثة بين الحسن ونزار مجهولة فقد اضطر الإسماعيلية إلى ذكرهم فقط بألقاب إمامتهم التى هى عبارة عن القاهر بقوة الله والمهتدى والهادى.

قصارى القول أن حاصل هذا المذهب كان بلا حاصل كما كان سر هذه الدعوة كله شرًّا؛ ذلك أنهم قالوا قول الفلاسفة بقدم العالم وبأن الزمان غير متناه والمعاد روحانى. وقد أولوا الجنة والنار وما فيها[1] جميعًا بهذه الطريقة؛ لكى يؤولوا معانى تلك الوجوه تأويلا روحانيًّا، ثم إنهم قالوا، بناء على هذا الأساس، أن القيامة أيضًا هى الوقت الذى يصل فيه الخلق إلى الله، وتظهر بواطن الخلائق وحقائقهم، وترتفع أعمال الطاعة، ففى عالم الدنيا يكون الكل عملا، بينما لا يوجد حساب، أما الآخرة فكلها حساب ولا يوجد عمل. وهذه هى الروحانية، كما أن القيامة الموعودة والمنتظرة فى كافة الملل (٢٣٨) والمذاهب هى هذه التى أظهرها الحسن. وكان قد رفع - على ضوء هذه القواعد - التكاليف الشرعية عن الناس؛ لأنه ينبغى على الجميع فى دور القيامة هذا التوجه إلى الله بكل الوجوه وترك رسوم الشرائع وعادات العبادات المؤقتة. ومن المقرر فى الشريعة أنه يجب أن تقام عبادة الله فى اليوم والليلة خمس مرات وتكون لله. ذلك تكليف ظاهر، ولكن الآن فى (عصر) القيامة ينبغى أن يكون الناس دائمًا مع الله بقلوبهم، وأن تتوجه النفس ذاتها بصفة دائمة إلى الحضرة الإلهية، وتلك هى الصلاة الحقيقية.

وقياسًا على هذا أولوا كافة أركان الشريعة ورسوم الإسلام وظنوا التظاهر[2] بها مرتفعًا، ورفعوا حلال وحرموا معظم (التعاليم). وكان الحسن قد قال فى مناسبات عديدة، إما بالتعريض وإما بالتصريح، أنه كما هو الحال فى دور الشريعة، إذا لم يقم الإنسان بالطاعة والعبادة ولكنه أدى حكم القيامة معتبرًا أن الطاعة والعبادة شىء روحانى فإنه يؤخذ بالنكال والعقاب، ويرجم. فإن الحال يكون كذلك بالنسبة لدور القيامة؛ بحيث لو أقام فيه أحد حكم الشريعة وواظب على العبادات والرسوم الإسلامية، كان التنكيل والقتل والرجم والتعذيب أكثر وجوبًا بالنسبة إليه. (كما قرر الشىء الكثير) على نمط هذه الخرافات والمزخرفات.

وباتباع هذا الطريق الذى هو سبيل الغواية والإغواء والإبطال والإضلال غرق أولئك المدابير المخاذيل فى بحار الضلال وتحيروا فى بيداء الحيرة. و "خسر الدنيا

(١) ليست "فيهما" كما يمكن أن يتوهم.

(٢) يعنى أنهم رفعوا التظاهر برسوم الشريعة الإسلامية وآدابها التى كانت سيرة الحسن بن الصباح وخلفائه.

والآخرة" فمارسوا الإباحة والتزم غلاتهم، عن عمد أو عن جهل، مذهب الإباحة، وأطلق قوم – والتراب فى أفواههم – الألوهية على أئمة ضلالهم، الذين كانوا فى مرتبة أخس من البهائم والسباع والحشرات.

فلما أجازوا إظهار هذه البدعة والإلحاد نادى جماعة (٢٣٩) من أهالى تلك الديار، وكان لديهم من العقل نصيب كما كان قد بقى شعاع من البصيرة على أفئدتهم (بنداء) : "ومن نجا برأسه فقد ربح"، فتركوا الاستيطان بين أولئك الضالين، وقذفوا بأنفسهم خفية وجهارًا فى بلاد المسلمين، خصوصًا قهستان حيث جلا عنها عدد كبير من الناس واستوطنوا خراسان ﴿وكذلك ننجى المؤمنين﴾. أما من لم يستطع منهم الذهاب، أو من لم يرغب فى الجلاء عن مسكنه القديم فقد مكثوا على ديارهم وأسبابهم، ورضوا هم كذلك من أثر الشقاوة بأن يوسموا بسوء الاسم واسم الإلحاد، ولكنهم كانوا مسلمين فى ضمائرهم، وكانوا كلما استطاعوا يلتزمون بأوامر الشرع ونواهيه فى الخفاء. فكان جمهور أهالى ولايات الملاحدة – خذلهم الله – يتبعون معنى هذه الآية من القرآن المجيد: ﴿فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾.

وبسبب هذا العقد المزخرف والنقد المزيف للحسن بن بزرك أميد، الذى كان ينادونه بعلى ذكره السلام، يسمونه بقائم القيامة كما يسمون دعوتهم "القيامة".

ومن بين الناس الذين كانت لا تزال تصل إلى ضمائرهم رائحة من خشية الله والديانة رجل يقال له الحسن بن ناماور أخو الحسن من جهة الأم من بقايا آل بويه، الذين كانوا أصلهم من ولاية الديلمان كما هو مسطور فى التواريخ. ولم يطق هذا الرجل صبرًا على إفشاء تلك الفضائح والأضاليل، رحمة الله وجزاه عن حسن نيته خيرًا، فطعن الحسن المضل بخنجر فى يوم السبت السادس من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة داخل قلعة لمسر، فغادر الدنيا إلى نار الله الموقدة.

(٢٤٠) أما ابنه محمد فكان الشقى الماضى[١] قد نص على إمامته، بحكم الضلال بمقتضى زعمهم، فجلس مكان أبيه وهو فى التاسعة عشرة من عمره، ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾. وقد قام بتعذيب وقتل الحسن بن ناماور، مع كافة أقربائه من الرجال

---

(١) المترجم: يريد به الحسن بن محمد بن بزرك أميد.

والنساء والأطفال، وكانوا البقية الباقية في تلك الديار من قبيلة بويه، بعد تعذيبهم والتنكيل بهم. فقطع نسل بويه.

وكان محمد الاسم مذمم الفعل، هذا أكثر غلوًا من أبيه في إظهار البدعة التي كانوا يطلقون عليها اسم دعوة القيامة، التي تعتبر الإباحة من لوازمها، كما كان أكثر صراحة في إظهار الإمامة. وكان يدعي الحكمة والعلم بالفلسفة رغم أنه كان عاريًا عاطلا من ذلك العلم، بل من كل العلوم. وكان قد أدرج اصطلاحات الفلاسفة في الفصول التي كتبها[١] والأصول غير المرتبة التي قالها، وكان يظهر التفوق والتسوق[٢] بإيراد النقاط على نمط حديث الحكماء. ولقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: "المتشبع بما ليس(٢٤١) عنده كلابس ثوبي زور[٣]". وكانت معظم ألفاظ كلامه ومعانيها في العربية والحكمة والتفسير والأخبار والأمثال والأشعار التي كان قد انتحلها جميعًا وادّعاها لنفسه تحريفًا وتخريفًا[٤] وخطأ وتصحيفًا.

وبحكم نص التنزيل الحكيم: ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أمهل في الملك ستا وأربعين سنة. وفي عصره سفك الملاحدة كثيرًا من الدماء البريئة، وأثاروا الفتن، ومارسوا أنواع الفساد، ونهبوا الأموال وقطعوا الطرق، وأصروا على فساد الإلحاد كما استقروا على قاعدة الكفر.

وكان لمحمد ابنان، أكبرهما الحسن، الذي لقب بجلال الدين. كانت ولادته في سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وكان أبوه قد نص عليه في أيام طفولته (٢٤٢) بأن يخلفه. فلما كبر وظهر أثر التعقل فيه، بدأ ينكر طريقة أبيه، ويستقذر رسوم الإلحاد والإباحة.

---

(١) المترجم : قد بقي من مؤلفاته رسالة صغيرة الحجم بعنوان "رسالة درنصيحت" (انظر Ivanow, A Guide)

(٢) التسوق هو البيع والشراء وهو مشتق من السوق، يقال تسوق القوم إذا باعوا واشتروا (اللسان). وهذا المعنى كما هو ملاحظ لا يتناسب مع المقام، ولعل مراد المصنف هو(تزيين السوق) و (العمل على رواج السوق) بالمعنى المجازي لهذين التعبيرين، يعني أن يظهر فضله للأنظار، أو يحرص على إظهار الفضل ونحو ذلك.

(٣) قال في اللسان في ش ب ع تشبع الرجل تزين بما عنده، وفي الحديث المتشبع بما لا يملك كلابس ثوب الزور أي المتكثر بأكثر مما عنده يتجمل بذلك كالذي يرى أنه شبعان وليس كذلك، ومن فعله فإنما يسخر من نفسه وهو من أفعال ذوي الزور، بل هو في نفسه زور وكذب ، انظر نفس المرجع في ث وب ، و زور، وشرح الجامع الصغير للسيوطي ج ٣ ص ٣٥٩ - ٣٦١، مجمع الأمثال ٢:٦٤ تحت عنوان "كلابس ثوبي زور".

(٤) تخريف بالخاء المعجمة، قال في تاج العروس "خرفه تخريفاً نسبه إلى الخرف أي فساد العقل".

فتفرس أبوه أثر ذلك فيه، فنشأ بينهم نوع من العناد، وكان كل منهم يخالف الآخر ويحترز منه. وعندما كان جلال الدين الحسن يطلب - في أيام الاحتفالات والمجامع العامة - الدخول إلى البلاط، كان أبوه يحذر منه ولا يأتمنه، وكان يخفي درعًا تحت ملابسه. كما كان يحتفظ(حوله) دائمًا بالملاحدة الذين كانوا أهل ثقته، ويغالون في القول بدعوة الغواية، لحفظه من أية مؤامرة يدبرها ابنه.

وكان جلال الدين حسن - إما عن حسن اعتقاد أو عن طريق العناد الذي وقع بينه وبين أبيه، (والله أعلم بما في الضمائر، والحكم من الخلق على الظاهر والله يتولى السرائر فله أو عليه ما يستحقه) - كان قد أرسل الرسل خفية على سبيل مكايدة أبيه إلى خليفة بغداد وإلى السلاطين والملوك الآخرين ليظهر أنه ليس على غرار أبيه، مسلم العقيدة وأنه إذا ما وصل الدور إليه بعد أبيه فإنه سيرفع الإلحاد ويمهد لقاعدة الإسلام، وبهذا النوع قدم توطئه وتأسيسًا. وقد توفي محمد غير المحمود هذا والمقتدي المطرود في العاشر من ربيع الأول سنة سبع وستمائة، وقال قوم: مات مسمومًا.

(٢٤٣) جلس مكانه بعده بمقتضى ولاية العهد ابنه جلال الدين حسن، فأظهر الإسلام منذ أن تولى الحكم مباشرة، وقام بزجر قومه وشيعته ومنعهم، بالتوبيخ والتشديد، عن الإلحاد، وحملهم على التزام الإسلام، واتباع رسوم الشرع. وأرسل الرسل إلى خليفة بغداد وإلى السلطان محمد خوارزمشاه وملوك وأمراء العراق والأطراف الأخرى لإبلاغهم بهذه التغيرات، وبمقتضى التوطئة والتمهيد الذي كان قد شرع فيه خلال عهد أبيه وأبلغ به الأطراف، صدقوا كلامه، وعلى الأخص أصدرت دار الخلافة الحكم بإسلامه، وأظهرت أنواع العطف بالنسبة له، ففتحت طريق المكاتبات والمراسلات معه، وكتبوا له الألقاب بالحرمة. وبتلك الوسيلة الحميدة أفتى الأئمة من جميع البلاد الإسلامية بإسلامه هو وقومه وأجازوا مواصلته والزواج به، واشتهر ذكره بجلال الدين نومسلمان (أي المسلم الجديد)، كما سمي أتباعه في عهده أيضًا بنومسلمان.

ولقد أمر بعمارة المساجد في ولايته، وطلب الفقهاء من أطراف خراسان والعراق ليتولوا شئون القضاء والخطابة، وأمثال هذه الأمور الدينية في ملكه، فأعزهم وأكرمهم.

أما أهالي قزوين فقد أبوا في البداية قبول إسلام جلال الدين وقومه. وكان ذلك بسبب تدينهم وصلابتهم في الإسلام، فضلا عن شدة معرفتهم، بحكم الجوار وقرب

المسافة، بتزويرات الملاحدة وأكاذيبهم وتمويهاتهم ومكائدهم، وأنهم عانوا منه المتاعب ولحقتهم أشد الأضرار، وقامت بين الجانبين حروب فتأصلت بينهم العداوة. ولذلك قام قضاتهم وأئمتهم بفحص الأمر (٢٤٤) والتدبر فيه، وطلبوا الدلائل والبينات على صدق تلك الدعوى، فلما تم تقرير قبول إسلامهم بمقتضى فتاوى دار الخلافة وأئمة بلاد الإسلام الأخرى بذل جلال الدين قصارى جهده في استرضاء (أهالى قزوين)، وكان يتقرب إلى عظمائهم، وطلب إيفاد جماعة من أعيان قزوين إلى الموت؛ لكى يروا مكتبات الحسن بن الصباح وأسلاف جلال الدين ففصلوا عددا كبيرا من فصول أبى جلال الدين وجده والحسن بن الصباح والكتب الأخرى التى تتضمن تقرير مذهب الإلحاد والزندقة وتخالف عقائد المسلمين، فأمر جلال الدين بإحراقها بحضور أولئك القزوينيين أيضًا وفقًا لما أشاروا به، وقال بطعن ولعن آبائه وأسلافه والممهدين لتلك الدعوة. ولقد رأيت فى أيدى أعيان قزوين وقضاتها ورقة، كانوا قد كتبوها على لسان جلال الدين الحسن فى التزام الإسلام، وقبول شعار الشريعة، والتبرى من الإلحاد ومذهب الآباء والأسلاف. وكان جلال الدين قد دون بخطه عدة سطور على صدر الورقة تبرأ من ذلك المذهب، فلما وصل إلى اسم أبيه وأجداده كتب هذا الدعاء عليهم: "ملأ الله قبورهم نارًا" . مجمل القول أن إسلامه وإسلام شيعته قد انتشر، وظهر لأهل الإسلام نوع من الألفة معهم، كما منع خليفة الوقت وسلاطين العصر مهاجمتهم أو قتلهم.

وتوجهت أم جلال الدين، وكانت امرأة مسلمة، للحج فى سنة تسع وستمائة وكان جلال الدين قد أرسل معها سبيلا[١] فأعزوا أمه وأكرموها ببغداد إكرامًا عظيمًا[٢] وقدم سبيله فى طريق الحج على سبيل ملوك الأطراف.

---

(١) الظاهر أن السبيل هو القافلة من الحاج التى يصحب أحد الأعلام وأمير الحاج وفيها كل ما يحتاج إليه الحجاج ويعطى فى سبيل الله بلا مقابل، ومن ذلك الدواب والطعام والشراب. يقول النسوى فى سيرة جلال الدين المنكبرنى فى نفس المورد ص ١٦: "وانضاف إلى ذلك استهانتهم (يعنى أهل بغداد) بالسبيل الذى كان للسلطان فى طريق مكة حرسها الله تعالى حتى بلغه تقديمهم صاحب الإسماعيلية جلال الدين الحسن على سبيله"، ويقول ابن الأثير أيضاً فى نفس المورد فى حوادث سنة ٦١٤ "وكان سبيله إذا ورد بغداد يقدم غيره عليه ولعل فى عسكره ماية مثل الذى يقدم سبيله عليه" ويفترض دوزى فى القاموس أن هذه الكلمة معناها المؤن وما يحتاج إليه الحاج وأورده العبارة التالية لابن خلكان للتدليل على ذلك: "وكان يقيم فى كل سنة سبيلاً للحجاج ويسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه فى الطريق". والشاهد أهم من المدعى، فالمراد بالسبيل فى هذه العبارة كما هو واضح هو نفس المعنى الذى سبق ذكره.

(٢) ابن الأثير حوادث ٦٠٨.

(٢٤٥) وكان جلال الدين قد وطد علاقات الموافقة والصداقة مع الأتابك مظفر الدين أوزبك، ملك أران وآذربيجان، وكان يحرص على أن تكون صلته به أوثق من صلته بمن سواه من الملوك. وكانت بين ناصر الدين منكلى الذى كان يتملك العراق، وبين الأتابك معاندة، ووقع بينهما عداء، وكان جيشه يغالب جلال الدين على بعض ولاياته. فاتفق كل من الأتابك وجلال الدين وتواضعا، وتوجه جلال الدين إلى آذربيجان فى سنة عشر وستمائة عازمًا على مدد الأتابك وقتال منكلى. وكان الأتابك يجتهد فى معاملة جلال الدين بالإعزاز طوال المدة التى قضاها فى ملكه، وهى مدة تبلغ عامًا ونصف عام. وقامت بينهما مؤخاة، وكان الأتابك يواظب على إرسال المؤن الوفيرة إليه، ويفرط فى بذل الأموال، لدرجة أنه بعد إقامة الأنزال والعلوفات لجلال الدين وجيشه وبعد توزيع كافة أنواع التشريفات والخلع الثمينة، لا على كبار قواد الجيش جلال الدين فحسب، بل على كافة الجند، كان يرسل إلى خزانته كل يوم ألف دينار من الذهب المسكوك (٢٤٦) للمتطلبات اليومية.

مجمل القول أن جلال الدين أقام مع الأتابك أوزبك مدة فى بيلغان، وأرسلا الرسل متفقين إلى حضرة دار الخلافة والشام والديار الأخرى طلبًا للإمدادات لطرد منكلى من العراق. فأرسلت دار الخلافة مظفر الدين وجه السبع مع جيش كامل لمددهم، وأمرت مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك[1] أن ينضم إليهم بجيش من أربل لكى يعمل الجميع فى يوم القتال برأيه وتدبيره ويطيعون إشارته وتوجيهه. وأرسل جيش آخر من الشام لمددهم.

وفى سنة إحدى عشرة وستمائة[2] هزموا ناصر منكلى، كما هو مشهور ذكره وإيراده هنا ليس مناسبًا لسياق هذا التاريخ. ومكنوا سيف الدين ايغلمش[3] مكان

---

(١) صدر فى الأونة الأخيرة كتاب بالعربية عن مظفر الدين المذكور بعنوان "مظفر الدين كوكبورى أمير أربل" لعبدالقادر طليمات. العدد ٣٢ من سلسلة أعلام العرب طبع مصر.

(٢) ضبط ابن الأثير ١٢: ١٤١ تاريخ هذه الواقعة فى شهر جمادى الأولى سنة ٦١٢هـ.

(٣) كذا فى جامع التواريخ ١١٤ (= ص ١٧٧ ط طهران) ، هذه الكلمة محرفة وفاسدة فى كافة نسخ جهانكشاى الخطية؛ لأن اسم الشخص الذى نصب بعد هزيمة منكلى فى سنة ٦١١ (أو سنة ٦١٢) حاكماً على العراق من قبل الخلفاء وقتل بعد أربع سنوات من حكومته على يد الباطنية فى أوائل سنة ٦١٤ يأتى فى كافة كتب المؤرخين=

منكلى (٢٤٧) فى العراق وأعطوا أبهر وزنجان لجلال الدين جزاء سعيه، وبقيت هاتان المدينتان ونواحيهما تحت تصرف نوابه.

وبعد عام ونصف عام من المقام فى العراق وأران وآذربيجان عاد جلال الدين إلى الموت، وفى هذا السفر ونظرًا لطول مدة إقامته بتلك البلاد صارت دعوة إسلامه أكثر تأكيدًا وأشد تصديقًا، وزادت مخالطة المسلمين له، وقد التمس جلال الدين خطبة النساء من أمراء جيلان، فأبدوا تقاعدًا ولم يقبلوا بغير إذن يصدر من دار الخلافة، فأرسل جلال الدين رسولا إلى بغداد، فأجابه أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى ملتمسه، وأجاز بأن يقوم أمراء جيلان بمواصلته بحكم الإسلام. وبمقتضى هذا تزوج جلال الدين أربعا من بنات أمرائهم، أولاهن أخت كيكاوس، الذى كان لا يزال حيًّا يمتلك ولاية كوتم[1]، وقد ولد علاء الدين محمد، ابن جلال الدين من هذه (٢٤٨) المرأة.

وهم يقولون إنه لما تحرك سلطان الدنيا جنكيز خان قادمًا من تركستان أرسل جلال الدين إليه أمراءه خفية قبل أن يصل إلى بلاد الإسلام، وكتب الرسائل وعرض عليه الخضوع والطاعة. كان هذا هو زعم الملاحدة، والحقيقة غامضة غير واضحة، ولكن الشيء الواضح أنه لما دخلت جيوش السلطان فاتح العالم جنكيز خان بلاد الإسلام، كان أول شخص من الملوك أرسل الرسل فى هذه الناحية من جيحون لإظهار العبودية وقبول الخضوع هو جلال الدين.

استعمل قاعدة الصواب، وأسس بناء الصلاح، غير أنه جاء بعده ابن جاهل وأتباع حيارى فلم يبادروا - بسبب الشقاوة والجهل - بتشييد ذلك الأساس وإتمامه، ولكنهم

=المعاصرين أو قريبى العصر لهذه الواقعة مثل ابن الأثير ١٤١:١٢، ١٤٥، ١٤٦، والنسوى ١٣، وأبى الفدا ١١٦:٣، وجهانكشاى نفسه ج ١٢١:٢ فى جميع المواضع اغلمش (بألف وغين معجمة ثم لام وميم وفى الآخر شين معجمة)، وفى جامع التواريخ كما مر (ايغلمش) بنفس الضبط المذكور بزيادة ياء بعد الحرف الأول، ولما كان المصدر الوحيد الذى اعتمد رشيد الدين عليه فى هذه الفصول المتعلقة بأواخر الإسماعيلية يتمثل فى كتاب جهانكشاى للجوينى؛ حيث نقل أغلب عباراته بعينها حرفاً بحرف فلا يبقى شك تقريباً فى أن اغلمش كانت مسطورة فى نسخة جهانكشاى التى كانت لديه فى الموضع الذى نحن بصدده بحيث حفظها بنفس إملائها ، لذا قمنا بتصحيح اغلمش التى كتبها كافة المؤرخين مناط الصحة برواية جامع التواريخ التى هى أقرب الصور مطابقة للمتن. فى آثار البلاد للقزوينى اسم هذا الشخص فى ص ٢٠١ ايقلمس وفى ص ٢٥١ ايقلمش.

(١) المترجم: تعرف حالياً بكهذم، وهى ناحية بولاية جيلان تقع غربى سفيدرود، ما بين منجيل من الجهة الجنوبية، ورشت من الجهة الشمالية (انظر حواشى القزوينى على جهانكشاى ج ٣ ص ٤١٨ وما بعدها).

أخذوا بالتدبير الفاسد، بل الإدبار القاصد فى نقض ذلك الترتيب، حتى رأوا ما رأوا: ﴿ولايحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾.

وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب – عليه السلام – قد ذكر فى إحدى خطبه قومًا من المتمردين رأوا وخامة عاقبة تدبيراتهم الفاسدة، فقال كلمتين أو ثلاثا فى ذلك الصدد تتفق وحال الطائفة المذكورة والحكاية المسطورة: "زرعوا الفجور وسقوه الغرور فحصدوا الثبور[١]".

(٢٤٩) كان علاء الدين محمد فى التاسعة من عمره عندما جلس مكان أبيه الذى توفى فى منتصف رمضان سنة ثمانى عشرة وستمائة. ولم يكن له سوى ابن واحد هو علاء الدين المذكور.

وكان جلال الدين قد مات مريضًا بالإسهال فاتهموا نساءه بدس السم له بالاتفاق مع أخته وبعض أقاربه، فقام الوزير، الذى كان بمقتضى وصيته مدبرًا للملك ومربيًا لابنه علاء الدين، بقتل خلق كثير من أقاربه، وأخته، ونسائه، وخواصه، وأهل بطانته بتلك التهمة، وقام بحرق بعضهم.

ولما كان علاء الدين لا يزال طفلا، ولم يكن قد لقى نصيبًا من التربية والتأديب، وطبقًا لمذهبهم المزيف وطريقهم المزخرف يعتبر إمامهم متشابهًا، فى المعنى الأصلى فى أطوار الطفولة والشباب والشيخوخة وكل ما يقوله كيفما كان يعتبر حقًا، والامتثال لأمره فى أى أسلوب يمارسه دين لأولئك الكفرة، ولذلك لا يمكن لمخلوق تعنيفه بأى حال من الأحوال كما لا يجوز فى اعتقادهم المذموم تأديبه ولا توجيه نصح إليه أو إرشاد. فلا غرو أن أغفلوا تدبير (أمور) الدين والدنيا، والمحافظة على المبادئ التى كانوا قد التزموا بها بإسلامهم وأعرضوا عن الاهتمام بأمور الملك، وكان الطفل الجاهل الذى (بايعوه) يتكفل بأمور دينهم ودنياهم ويرعى مصالحهم.

ومن كان الغراب له دليلا فناووس المجوس له مقيل[٢]

---

(١) فقرة من الخطبة الثانية من نهج البلاغة، انظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١:٤٥، وانظر أيضاً شرح الكتاب لابن ميثم البحرانى ٩٣، ورواية نهج البلاغة فى هذين الموضعين هى "وحصدوا" بالواو.

(٢) انظر ذيل مجمع الأمثال لفرايتاغ ص ٤٦٦، وحياة الحيوان ٢: ٢١٤ فى عنوان "الغراب"، وقد روى الاثنان هذا المثل على النحو التالى:

ومن يكن الغراب له دليلاً يمر به على جيف الكلاب

ولقد شغل مع أقرانه من الأطفال باللعب واللهو واقتناء الجمال ورعى الأغنام فوقع تدبير الأمور برأى النساء، حتى اضمحلت الأسس التى كان أبوه قد وضعها، (٢٥٠) وبطلت التدابير، التى كانت على منهاج الإصابة. وأول ذلك كله أن أولئك الذين كانوا قد تقلدوا الشريعة والإسلام خوفًا من أبيه وهم خبثاء الطوية مظلمو الضمير وكانوا لا يزالون يعتقدون فى مذهب جده الفاسد ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل﴾ لم يروا من يمنعهم ويزجرهم عن ارتكاب المنكرات والمحظورات، ونظرًا لأنه لم يكن لديهم محرض أو وازع على اتباع الفرائض والسنن واقتفاء آثار السداد والرشاد، ارتدوا مرة أخرى إلى إلحادهم ومروقهم، ولم تكد تنقضى مدة قصيرة حتى عادت لهم الغلبة والقوة. أما الآخرون الذين كانوا قد قبلوا الإسلام عن بصيرة وأرادوا المداومة على هذا المذهب فقد خافوا من مهاجمة أولئك الملحدين ونكايتهم وأخفوا إسلامهم مرة أخرى؛ خوفًا على حياتهم، فشاع الإلحاد مرة ثانية - لا أعاده الله أبدا - بين تلك الطائفة المشئومة والجامعة المذمومة. ولهذا السبب أهملت قواعد الملة والدولة ومصالح الدين والدنيا مرة أخرى وولت وجهها نحو الاندراس.

ولما انقضى ما يقرب من ست سنوات على تولى ذلك الطفل الملك قام الطبيب الذى استخدموه بقصده، دون أن يكون مريضًا وبدون داع وخلافًا للنصيحة والمشاورة، فأخرج دمًا بكثرة بالغة، فاختل دماغه، وتمثلت أمامه الخيالات. وبعد مدة قصيرة ظهرت عليه علة الماليخوليا. ولم يكن لأحد قوة ولا جرأة على أن يقول بوجوب اعتزاله أو معالجته كما لم يتمكن الأطباء هناك وغيرهم من ذوى العقل والمعرفة من القول بأنه مصاب بالماليخوليا أو بأذى مماثل، وإلا فإن عوام تلك الطائفة سوف تسعى دون أدنى ريب فى طلب دمهم. لأن الأذى الذى يتعلق به نقصان فى العلم أو زوال فى العقل، (٢٥١) لا يجوز على الإمام بحيث يمكن عندئذ نسبة بعض أوامره وأفعاله إلى اختلال العقل وفساد المزاج والدماغ، فلا غرو أن كانت تلك العلة تتزايد يومًا بعد يوم حتى استولت عليه تمامًا. وفى خلال السنوات الأخيرة من عهده أصبح علاء الدين الخالى من التدابير مجنونًا من أثر ذلك المرض، فضلا عن نقصان العقل الغريزى وانعدام التأديب والتربية فى أيام الصبا.

فصارت القيود والسلاسل مناسبة له. ونظرًا لأن هذا قد حدث فى هذا العهد ويعرف المعاصرون سوء تدبيره وفساد عاداته، وخبث خياله، وإهماله وإضلاله، وغاية

جنونه، ورسومه غير الميمونة، فلا حاجة إذن إلى شرح؛ لأن التفصيل يستطيل، ولا يتيسر تقرير عشر العشير من وصفة بتحرير الطوامير، فلو اشتبه أحد فينبغي عليه الاستدلال على الفاتحة من الخاتمة، وعلى البداية من النهاية، وعلى المقدمة من النتيجة. هذا فضلا عن نخوة الملك والغرور لمن كان أتباعه وأشياعه أشقياء أغبياء، من الطفولة إلى آخر العمر، ونظرا لفساد خيالهم وبلادة حسهم أقاموا فى ضميره الأسود وخاطره الفاسد أن كل ما يفكر فيه إنما يطالعه من نقوش اللوح المحفوظ، وكل ما يقوله إنما يقوله بإلهام إلهى، ولا يجوز أن يكون فكره وقوله خطأ وسهوا. حتى انخدع هو أيضا بذلك، فوقع فى خطأ مع نفسه، وكان يروى من الأحوال الماضية (٢٥٢) التى تظهر (لهم) وكأنها أعاجيب، ويجعل من الأخبار الخفية أشياء مغيبة، كلها خبط عشواء، وقول على العمياء، وكذب صراح، ومحض افتضاح، ولم يكن يفكر فى أن تلك الهذيانات سوف تصطدم بتكذيب ذوى العقول.

وبسبب ما كان فى طبعه من سوء التربية وعدم الممارسة والشراسة والزعارة[1] لم يكن أحد يملك القدرة على أن يعارضه أو يشير فى حضوره إلى نقطة تتعلق بمصالح المملكة يتغير منها خاطره قليلا. فلا شك أن الجواب على ذلك الشخص يكون قتله فى الحال بالنكال بعد معاقبته بالمثلة غير اللائقة وقطع أعضائه.

فلا غرو أن أخفيت عنه أخبار داخل ملكه وخارجه وأحوال الأصدقاء والأعداء، لدرجة أنه كان يرسل إلى حضرات السلاطين، فإذا ما عادوا فإنهم لا يعيدون على مسامعه الجواب الذى رد به الملوك على التماسه وكرمه؛ لأن ذلك لم يكن موافقا لطبعه على الإطلاق. ورغم أنه كان يعرف هذا إلا أنه كان يخفيه فى نفسه، ولم يجرؤ ناصح قط على التلفظ أمامه بكلمة عن ذلك. وكانت كل رسائله للسلاطين كذبا وتلفيق أكاذيب، وكان يظن أن ذلك التزوير الذى يتظاهر جهال قومه بتصديقه نفاقا، إما لجهلهم وإما لخوفهم، سوف ينطلى على حضرات السلاطين أو يشكل على العقلاء.

وكانت تقع فى ملكه كل يوم سواء بأمره أو بدون أمره إحدى حوادث السرقة وقطع الطريق وإيذاء الخلق، فكان يظن أنه يمكنه تمهيد العذر عن ذلك بالكلام التقليدى وبذل المال. إلى أن زاد الأمر عن الحد وأصبحت حياته ونساؤه وولده ودماؤه

---

(١) المترجم: "الزعارة الشراسة" (القاموس المحيط).

وملكه وماله كلها عرضة لذلك التخبط والجنون. وليس ذلك كله بحاجة إلى شرح أو تقرير؛ لأنه فى غاية (٢٥٣) الوضوح والاشتهار.

وكان ركن الدين خورشاه هو أكبر أبناء علاء الدين، وفى أثناء طفولته كان علاء الدين نفسه لا يزال فى سن الشباب إذ لم يكن فارق الميلاد بينهما يتجاوز ثمانية عشر عامًا. وعندما كان ركن الدين لا يزال طفلا كان علاء الدين يقول لنفسه :"إن ركن الدين سوف يكون إمامًا وهو ولى عهدى". فلما كبر ركن الدين لم يفرق مخاذيل أتباعهما بينه وبين أبيه من حيث التعظيم والمرتبة، فكان حكمه نافذًا كحكم أبيه. لذلك استاء منه علاء الدين وأخذ يردد: "سوف أجعل ولى عهدى ابنًا آخر غير ركن الدين". فلم يقبل قومهما، بمقتضى مذهبهم، ذلك الكلام وقالوا: " اعتبار النص الأول صحيح".

ومن أجل ذلك كان علاء الدين يؤذى ركن الدين كما كان يعذبه بلا سبب، ويعاقبه بصفة مستمرة بمقتضى جنونه وغلبة اختلال عقله، كما كان دائم المؤاخذة له. وكان قد اضطره إلى البقاء بصفة دائمة مع الحريم فى حجرة مجاورة لحجرة أبيه، فلم يكن يجرؤ على الخروج فى وضح النهار. فكان ينتهز الفرصة عندما يكون أبوه ثملاً أو مشغولاً برعى قطيع من الأغنام - وفقًا لما جرت عليه عادته - أو منشغلاً بشىء آخر أو غافلا (عنه) فيتسلل من الحجرة فى المساء لشرب الخمر أو يذهب إلى حيث يريد.

مجمل القول أن علة جنون علاء الدين وغلبة هوسه قد اشتد فى شهور سنة ثلاث وخمسين وستمائة، فازداد تغيره على ركن الدين بالأسباب والاتفاقات الفلكية التى يطول تفصيل الحديث عنها، ولا يليق إيرادها فى هذا التاريخ، فاستمر فى عقابه وإيذائه، وكان يواصل مهاجمته وتهديده ووعيده، حتى خاف الولد منه على حياته وكان يقول (٢٥٤): "لست آمن - فى أى وقت من الأوقات - على حياتى من أبى". ولهذا أخذ يعد العدة للهرب من وجه أبيه على أن يذهب إلى قلاع الشام ويستولى عليها أو يسيطر على الموت وميمون دز وبعض قلاع رودبار المشحونة بالخزائن والذخائر وينفصل عن أبيه ويتمرد عليه.

وقد حدث فى نفس السنة أن كان أكثر أركان دولة علاء الدين وأعيان مملكته خائفين منه، بحيث لم يكن أحد منهم قط يثق فى بقائه على قيد الحياة؛ إذ كان قد اتهم

بعضهم بمتابعة ركن الدين، فتغير عليهم. كما كان قد اتهم بعضهم – بسبب خياله الشاذ ودماغه المختل – بتهم أخرى فكان يواصل إيذائهم وتعذيبهم. ولو أنهم لم يكونوا فى خوفهم يحادثون بعضهم بعضًا وإنما كانوا يتبعون أسلوب المداراة تظاهرًا ونفاقًا بحيث أدى ذلك كله إلى أن مل منه الخواص والعوام، وكانوا على ثقة من أن ذلك التدبير الذى كان قد مارسه ومخايل الادبار التى لاحت على أحواله سوف تذهب بسلطته وملكه أدراج الرياح.

وكان ركن الدين يتخذ من الكلام التالى شراكًا ينصبها: "نتيجة لما يأتيه أبى من أعمال وأفعال سمجة عزم جيش المغول على مهاجمة هذه المملكة بينما لا يلقى أبى بالاً. أما أنا فإننى أعتزله وأرسل الرسل إلى حضرة سلطان وجه الأرض وإلى عبيد بلاطه وأنا أقبل الخضوع والعبودية. ولن أسمح لأحد بعد الآن أن يقوم بحركة فاسدة فى ملكى حتى يبقى الملك وتبقى الرعية".

لهذه الأسباب والدواعى بايعه أغلب العظماء والأركان ورجال الجيش واتفقوا على شرط أن يكونوا معه فى كل ناحية يتوجه إليها وأن يحفظوه من أتباع أبيه وأجناده وأن يبذلوا أرواحهم دونه، إلا إذا قصده أبوه فإنهم عندئذ لن يضربوا أباه ضربة أو يرفعوا عليه يدًا.

فلما انقضى شهر على هذا الحديث مرض ركن الدين ولزم الفراش وبقى عاجزًا عن الحركة. (٢٢٥) وفى يوم من الأيام شرب أبوه خمرًا فنام حيث كان يشرب فى كوخ من الخشب والغاب مجاور لاصطبل الأغنام، وكان ينام من حوله عدد من الغلمان والرعاة والجمالين وأمثال هؤلاء الأرذال والسفلة. وفى منتصف الليل وجد مقتولا من أثر طعنة بلطة فى رقبته. وكان أمره قد انتهى بهذا الجرح. ولقد جرح هندى وتركمانى كانا قد ناما بجواره، فمات التركمانى بعد ذلك بينما شفى الهندى. وقد حدث هذا فى سلخ شوال سنة ثلاث وخمسين وستمائة فى مكان يقال له شيركوه[1]، حيث كان علاء الدين يقضى معظم أوقاته.

---

(١) المترجم: اسم قرية وواد يقع فى القسم الغربى من ناحية الموت. (انظر حواشى القزوينى على جهانكشاى ج ٣ ص٤٢٥، وفريا ستارك فى رحلتها إلى قلاع الحشاشين ص ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣١).

ووجه أولاد علاء الدين وقومه تهمة القتل إلى عدة أشخاص، فقاموا متأثرين بذلك الوهم بقتل عدد من المقربين لعلاء الدين وخدمه الذين كانوا قد شوهدوا بجوار الموضع الذى قتل فيه حيث كانوا يقومون بحراسته ليلا. ولقد فتحوا طريق الاتهام والوهم إلى المواضع البعيدة والقريبة، فوصل الأمر بهم إلى أن قالوا إن رجلين أو ثلاثة مجهولين قدموا من قزوين وبالمحاباة وبالاتفاق مع الخواص وكبار المقربين لعلاء الدين وإرشادهم توجهوا إلى فراشه وقتلوه، ثم عادوا أدراجهم بمعاونة أولئك الخواص وحمايتهم. فكانوا يتهمون وهما وظنا كل فرد بالتعاون معهم وإرشادهم، حتى استطاعوا بعد مضى أسبوع أن يتوصلوا بوضوح المخايل والدلائل من شمائل الأحوال عن يقين أن الحسن المازندرانى الذى كان أخص خواص علاء الدين (٢٥٦) وملازمه ليل نهار ومستودع أسراره هو الذى قتله. وقد قيل أيضا إن زوجة الحسن - التى كانت عشيقة علاء الدين ولم يكن الحسن قد أخفى عنها حادثة القتل - أفشت ذلك السر لركن الدين. قصارى القول أنهم قتلوا الحسن، بعد أسبوع، وأحرقوا جثته كما أحرقوا أبناءه الثلاثة وكانوا بنتين وولدا. وجلس ركن الدين خرشاه مكان أبيه.

عندما كان الحسن المازندرانى طفلا حمله جيوش المغول من مازندران، فهرب من الجيش فى العراق وذهب إلى ملك علاء الدين، وكان أمره مليحا، فلما رآه علاء الدين أحبه وقربه إليه. فصار أمامه محل اعتماده التام، وكان يعزه إعزازا بليغا ويسمح له بالكلام فى حرية تامة، ومع هذا كان – بسبب جنونه وسوء طبعه – يؤذيه على الدوام بالتخيلات والتعليلات ويضربه ضربا عنيفا، فتحطمت أكثر أسنانه، وقطع جزءا من عضو ذكوريته[1]. وعلى الرغم من أن لحيته نمت، وظهرت فى النهاية بعض آثار البياض فى شعره إلا أنه ظل منظور علاء الدين ومحبوبه، وكان يفضله على الأمارده والمعشوقين. وقد وهب له الحسن إحدى خادماته، التى كان يعشقها، ليتزوجها. ومع أن الحسن رزق منها بحوالى ثلاثة أبناء إلا أنه لم يجرؤ على الذهاب إلى منزله أو على النوم مع امرأته بدون إذن من علاء الدين. ولم يكن علاء الدين يتجنب الحسن أثناء مقاربته ومباشرته لامرأته. وكان الوزراء وكبار رجال دولة علاء الدين وكافة أهالى المملكة يتقربون إلى الحسن فى رفع الحاجات وإنهاء الحالات والمهمات الأخرى، بل فى

(١) "ذكورة" سماعية ولكننا لا نعثر على "ذكورية" فى كتب اللغة المعتمدة، اللهم إلا فى قاموس دوزى ولا بد أن تكون كذلك قياسا على رجولية وطفولية وما شاكلها.

(٢٥٧) المصالح، إذ لم يكن هناك من يستطيع مباسطة علاء الدين فى الحديث مثله، ولم يكن يقبل تنفيذ أمر بقول امرئ غيره. وكثيرا ما كان الحسن يوافق بنفسه على ما يريد دون استطلاع رأى علاء الدين، وكانت أحكامه تنفذ بتمامها. وكان قد استطاع بهذه المداخل المذكورة أن يجمع مالا كثيرا لم يكن يستطيع أن يتمتع به، وكان يخفيه عن علاء الدين. ولقد كان لباسه، الذى يتكون من رداء من الصوف والقطن الردىء، قديما ممزقا فى أغلب الأحيان، مثله مثل ما على مخدومه المذموم علاء الدين؛ لأنه كان يضطر أن يعيش متشبها فى ملبسه ومأكله وكافة حالاته بعلاء الدين، وكان يلازمه دائما فى السير مترجلا خلف قطيع الأغنام، أما فى وقت التعزز والتنعم فكان يركب حمارا. وعندما كان يرتدى ملابس أفضل أو يقع فى روع علاء الدين أن لديه بعض المال، فإنه كان يبتلى بالضربات المبرحة، والمطالبات الشديدة، والتمثيل الشنيع.

لهذه الأسباب استقر الحقد على علاء الدين فى قلبه وارتبطت دواعى الغضب بعضها بالبعض. وكان رجلا مسلما؛ إذ إنه رغم معاشرته لعلاء الدين السنين الطوال، إلا أن حب الإسلام وبغض الإلحاد كانا قد تمكنا من قلبه وعقيدته. وكان قد نشأ للحسن عن طريق مجانسة الغربة واعتقاد الإسلام مؤانسة إلى بعض المسلمين الذين كانوا فى خدمة علاء الدين، وبقوا بالضرورة أسرى فى ملكه، وظهرت بينهم صداقة، وحينما كان يجد معهم فرصة المناقشة والحوار كان ينصرف إلى ذكر مثالب علاء الدين ونشر مخازيه ومساوئه(تعبيرا) عن نفثه المصدور وشرح الغصة ومقاساة شدائد معيشته. وبمقتضى هذه الدواعى أصبح التوفيق رفيقه حتى اغتال علاء الدين فخاطر بقلبه وروحه فى ذلك الجهاد جزاه الله بنيته خيرا.

(٢٥٨) ولقد قال البعض بأن ركن الدين خورشاه قد قتل أباه، وهذا مخالف للحقيقة؛ لأن ركن الدين كان مصابا بالحمى فى تلك الليلة وملازما للفراش، وبقى عاجزا عن الحركة عدة أيام. ولكن للأسباب التى سبق ذكرها، فضلا عن قرائن الأحوال المختلفة عن ذلك، يمكن الاستدلال على أنه لم يستنكر قتل أبيه أو يسترده وأن الحسن قد أقدم على فعل ذلك برضا رأيه. ويمكن أيضا أن يكون الحسن قد اتفق منذ البداية مع ركن الدين وأقدم على هذه الفعلة باستشارته وموافقته، لأنه لما ذاع الخبر بأنه قتل علاء الدين لم يقبض عليه ركن الدين، ولم يطالب ويستعلم عمن ساعده فى ذلك العمل، وكيف نشأ الإغراء، بل أرسله على سبيل التعليل ليتولى أمر قطيع غنمه

الخاص الذى كان قد بقى عن علاء الدين، بحيث يعنى بالخراف ويهتم بأمرها. وأرسل فى عقبه أحد معتمديه، فضرب الحسن ببلطة لما غفل، فقتله بطريقة لا يستطيع بها أن يعرف أنه هوجم (٢٥٩) فلا يتمكن من التفوه بحرف. فقال الناس مستندين إلى هذه الأمارات والدلائل إن ركن الدين والحسن كانا قد تواضعا وتعاهدا على قتل أبيه فخشى، إذا أجرى تحقيق أو محاكمة، أن يشى الحسن بكلمة عن معرفته بالأمر أو حتى عن إذنه أو إشارته والتماسه. وكانت أم ركن الدين وإخوته - خلال السنة التى بقيها فى الملك خلفا لأبيه - إذا أرادوا إيذاءه واستزادته يتهمونه بقتل أبيه ويعدون ذلك من معايبه. وكانوا يتهمون الجماعة الذين كانوا يعتبرون أصدقاء ركن الدين ومن أهل رعايته فى عهد علاء الدين وهم الذين أعزهم ركن الدين - لما جلس مكان أبيه - واعتبرهم من خاصته وأهله - فينسبون إليهم أنهم تعاونوا معه فى قتل أبيه علاء الدين، بل كانوا يقولون إن ركن الدين رضى بقتل أبيه أو أمر به بتعليمهم وتحريضهم، والله أعلم بالخفيات والسرائر.

ذكر أحوال ركن الدين خورشاه بعد وفاة أبيه

بعد أن فرغ من مراسم العزاء التى استغرقت ثلاثة أيام وجلس مكان أبيه، أرسل الجيش الذى كان أبوه قد جهزه لمهاجمة شال رود[1] من ناحية خلخال، (٢٦٠) فاستولوا على قلعتها وأعملوا فيها القتل والغارة. وبعد ذلك أرسل رجلا إلى جيلان وغيرها من البلاد المجاورة لإعلان وفاة أبيه، وبدأ - خلافا لسيرة أبيه - فى وضع أسس الصفاء مع أولئك الجماعة، وأرسل إلى كافة ولاياته بالتزام الإسلام، وبأن يسلكوا سبل السلام.

وأرسل رسولا إلى يسورنوين فى همدان يقول: "طالما تقلدت الحكم فسوف أسلك طريق الخضوع، وأمحو غبار الخلاف من طلعة الإخلاص". فأجابه يسورنوين بأن مواكب الأمير هولاكو وشيكة الوصول والصلاح فى أن يخرج بنفسه، ولقد بذل غاية جهده فى حثه على ذلك. وبعد ذهاب الرسل وقدومها أرسل رسالة وقرر "سأرسل أخى شهنشاه بادئ ذى بدء حتى يسير فى رفقة يسورنوين". فسير شهنشاه فى صحبة جماعة من كفاة الحضرة فى غرة جمادى الأول[2]، فوصل إلى يسورنوين فى حدود قزوين فأرسل يسور ابنه موراقا فى صحبة شهنشاه إلى حضرة السلطان.

وفى العاشر من نفس الشهر قدم يسور إلى جيوش المغول والفرس فى رودبار الموت. (٢٦١) وكان جنود ركن الدين وفداويوه قد تجمعوا على قمة سيالان كوه[3] فى أعلى الموت. وعزم الجيش المغولى على الصعود من أسفل فوقعت موقعة عظيمة. إلا أنه لما كانت قمة الجبل محكمة والرجال كثيرون فقد تراجع جيش المغول وأتلف جنوده غلاتهم عن آخرها واشتغلوا بتخريب الولاية. وفى أثناء ذلك وصل الرسل الذين كانوا

---

(١) انظر نزهة القلوب لحمد الله المستوفى ص ٨٢، ٢٢٣، (حيث تبدو فى الموضع الأول س ١٤ تصحيف "شالرود" ويكرر لوسترنج فى " بلدان الخلافة الإسلامية" ص ١٦٩ ألفاظ المستوفى بعينها وبنفس التصحيف، هذا إذا كان ذلك فى الواقع تصحيفا، كما يكرر ذلك فى الخريطة المقابلة لـ ص ٨٧).

(٢) سنة ٦٥٤ - "الأول" كذا.

(٣) أغلب الظن أن المراد هو "سيالان كوه" (بسين مهملة وياء مثناة تحتانية ثم ألف ولام ثم ألف وفى الآخر نون) (أى جبل سيالان) وهو اسم جبل يقع فى شمالى منطقة الموت الجبلية شرقى الجبل المعروف بتخت سليمان. ولا زالت بعض آثار قلعة الموت المشهورة باقية حتى الآن، وكانت قد بنيت على صخرة من صخور هذا الجبل، وقد طبعت هذه الكلمة محرفة وخطأ فى أغلب الكتب الجغرافية والخرائط الأوروبية الجديدة : ففى جغرافيا اليزه ركلو ج ٩ ص١٥٨ - ١٥٩، وفى قاموس فيفن دوسن مارتن ج ٣ ص ٧٤٠:سيلار - Siyalar - براء مهملة فى آخر الكلمة بدل النون، وفى الخريطة الكبرى لإيران طبع وزارة الدفاع البريطانية سنة ١٨٩١:سيفالا Sivala ، وبناء على التحقيق الذى قام به صديقى الفاضل السيد ميرزا عباس اقبال اشتيانى فى طهران معتمدا على بعض المثقفين من أهالى نفس المكان تحقيقا لرغبتى يتبين لى الكلمة "سيالان" كما ضبطناها هى الصحيحة. ولا شك فى أن أهل البيت أدرى بما فى البيت، وقد طبعت هذه الكلمة فى الخريطة الكبرى لإيران التى أعدها السيد ميرزا عبد الرازق خان المهندس "سبالان" بالباء الموحدة، ولكن المؤلف المحترم صرح شفاهة للسيد إقبال بأن الباء الموحدة خطأ مطبعى وأن الصواب ياء مثناة تحتانية.

قد أمروا بالسير من قبل سلطان الدنيا من استو بعد وصول شهنشاه إلى العبودية فى أواخر جمادى الآخر (صح: الآخرة) إلى ركن الدين وسلموه مرسوما باستمالته (٢٦٢) واستعطافه؛ إذ إنه "نظرا لأنه أرسل أخاه وأدى العبودية والخضوع وما زال يؤديهما، فقد عفوت عما ارتكب أبوه وأتباعه من أخطاء فى عهد أبيه. وحيث إنه لم يصدر عن ركن الدين نفسه أى جرم خلال المدة التى جلس فيها مكان أبيه فإنه إذا خرب القلاع وتوجه للعبودية فلن تقدم الجيوش على عمل من أعمال التخريب فى ولايته". فأظهر ركن الدين الطاعة وخرب عددامن القلاع، أما فى الموت وميمون دز ولمسر فقد رمى أبوابها وحطم بعض أسوارها وأبراجها.

وبمقتضى أمر السلطان ـ الذى سبق ذكره ـ انسحب يسورنوين وجنوده من الولاية. وتوجه أحد خاصة السلطان وصدر الدين فى صحبته إلى عبودية السلطان، فوصلا للعبودية لإبلاغه بما انتهى إليه الأمر وطلبا حاكما والتمسا مهلة سنة واحدة. وقد بقى بعض الرسل هناك بغرض الانتهاء من تخريب القلاع الباقية. وفى أوائل شعبان كان رسول السلطان وصدر الدين قد وصلا إلى الحضرة فى شغان[1]، ثم رجعا من البلاط وسلما ركن الدين مرسوما مقدرا على الترغيب والترهيب. وكان تولاك[2] بهادر قد قدم فى صحبتهما وكانت التعليمات تقضى بأنه لو أطاع ركن الدين فإن عليه ـ بمقتضى الأمر ـ أن يتوجه لإظهار الخضوع وأن يتولى تولاك الحكم فى غيبته للمحافظة على الولاية.

أما ركن الدين فقد حمله قصور تفكيره على إظهار شىء من التقاعد عن الخروج وخاف وتلعثم، وأثار غبار التعلل. وقد سير وزيره شمس الدين كيلكى، وابن عم أبيه سيف الدين سلطان ملك بن كيابو منصور، فى صحبة الرسل إلى الحضرة فى السابع من شعبان، أما هو فقد اعتذر وطلب مهلة. كما أرسل استدعاءين لكى يحضر نوابه من كردكوه وقهستان إلى خدمة السلطان ويظهروا العبودية والطاعة. وقد وصل الشخصان المشار إليهما إلى الحضرة فى حدود الرى. ولما رفعت رايات السلطان فى ولاية اللار ودماوند أوفد (السلطان) شمس الدين كيلكى من هناك إلى (٢٦٤) كردكوه ليحضر حاكمها إلى حضرته، كما أوفد رجلا من مصاحبى الوزير إلى قهستان لإحضار

(١) المترجم: انظر حواشى القزوينى على جهانكشاى ج ٣ ص ٤٢٥ إلى ٤٢٨.

(٢) جامع التواريخ طبع كاترمر = الترجمة العربية ص ٢٥٠: توكل.

حاكمها. كذلك أوفد سيف الدين سلطان ملك مع جماعة الرسل إلى ركن الدين لإبلاغه بأنه لما كان سلطان الدنيا قد نزل فى دماوند فقد أصبح من الواجب على ركن الدين أن يتوجه لإظهار العبودية، ولو حدث أن تخلف بهدف تدبير أمره خمسة أيام فعليه أن يرسل ابنه أولا. وقد وصلوا[1] فى أول رمضان أسفل ميمون دز، ولقد اضطرب ركن الدين وقومه من نبأ وصول رايات فاتح العالم إلى الحدود، ومن الإشارات السلطانية التى أشار بها السلطان، فاستولى الرعب والخوف على ركن الدين، وقال: "سوف أرسل ابنى". وهذا ما فعله بعد إشارة النصحاء والمشيرين[2] وبعد استشارتهم ثم بدأوا فى التجهز (للرحيل). إلا أنه أخذ يدبر التلبيسات والتمويهات خفية مستمعا لقول النساء وقصار النظر. فما كان منه إلا أن أرسل طفلا فى سن ابنه، وكانت أم هذا الطفل كردية تعمل خادمة فى قصر أبيه، فلما افتضح أمر حملها بالطفل أرسلها علاء الدين إلى منزل أبيها. ولما ولد الطفل لم يجسر أحد على القول بنسبته إلى علاء الدين ولم يعيروا الأمر انتباها . فجعل (ركن الدين) هذا الطفل شركا للخداع فى هذا الشأن، وأخفى الأمر وموهه على مدبريه ومشيريه وأعلن: "ها أنذا أرسل ابنى" وقد أرسل هذا الطفل فى صحبة الرسل فى السابع عشر من رمضان.

وكانت رايات السلطان وصلت إلى حدود ولاية ركن الدين، فكيف يبقى الأمر سرا؟ ولقد كان واضحا أنه أرسل ابنا مزيفا[3]، إلا أن حضرة السلطان لم يأمر فى الحال بكشف ذلك التلبيس واستمر الإغضاء والمواراة. وبعد يومين أعيد الطفل المزور برسالة مضمونها أنه لا يزال مجرد طفل صغير، فإذا كان ركن الدين (٢٦٥) سوف يضطر إلى التأخر قليلا عن الوصول إلى العبودية، فعليه أن يعجل بإرسال أخيه الآخر، حتى يعيدوا إليه أخاه شهنشاه، الذى لازم خدمة البلاط مدة طويلة، إجابة لملتمس ركن الدين. وقد وصل الابن المزور إلى ركن الدين فى الثانى والعشرين من رمضان.

---

(١) يعنى رسل هولاكو.

(٢) المترجم: كان نصير الدين الطوسى أحد هؤلاء. وكان، طبقا لتاريخ طبرستان لابن اسفنديار (ترجمة براون ص٢٥٩) يعمل وزيرا لركن الدين.

(٣) يعتقد جامع التواريخ (كاترمر ٢٠٤ = ص ٢٥٢ من الترجمة العربية) أنه كان الابن الحقيقى لركن الدين، ولم يكن فى الأمر كذب أو بهتان: "وفى السابع عشر من رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة، أرسل خورشاه إلى هولاكو، ابنه الذى كان فى السابعة أو الثامنة من عمره – وكان قد أنجبه من محظية – بصحبة طائفة من الأكابر والأعيان".

وفى هذه الأثناء لما كانت المسافة بين رودبار الموت وبلاط السلطان قريبة كان الرسل يترددون على الدوام يحملون الرسائل من حضرة السلطان، وعدا ووعيدا، واستمالة وإنذارا. مجمل القول أن ركن الدين سير أخاه الآخر، المسمى شيرانشاه[1] إلى حضرة السلطان فى الخامس من شوال، فوصل شيرانشاه إلى عبودية السلطان فى اليوم الثالث الموافق السابع من شوال بناحية يقال لها فسكر من مضافات الرى. وفى نفس الوقت عاد الوزير كيلكى من كردكوه وقد أحضر حاكمها القاضى تاج الدين مردانشاه، إلى عبودية سلطان الدنيا. وفى التاسع من شوال أعيد أخوه شاهنشاه من هناك برسالة مضمونها "أنه لو خرب ركن الدين قلعة ميمون دز وتوجه بنفسه إلى عبودية السلطان، فسوف يصير موضع شفقتنا وإعزازنا، على النحو الذى تجرى عليه عادة عاطفتنا، وإلا فلا يعلم إلا الله ما بقى محتجبا عن النظر فى العاقبة".

وفى أثناء (٢٦٦) هذه المفاوضات وتردد الرسل ما يقرب من شهر كان بوقاتيمور وكوكا ايلكاى، اللذان كانا قد توجها أيضا بجيوش كثيفة من ناحية اسبيدار، يقتربان من شاطئ البحر الذى يقع خلف ظهر مملكة ركن الدين، وخصوصا ميمون دز، التى كانت حصنا له ومعقلا، وكانا يستوليان على القلاع والبقاع المحيطة بها.

وفى منتصف شوال توجه سلطان العالم من بسكر[2] إلى ولاية ركن الدين سالكا طريق الطلقان، ثم نزل فى السابع عشر من نفس الشهر أسفل ميمون دز فالتفت الجيوش الأخرى القادمة من كافة النواحى وأحاطت بالقلعة.

ولما كان ركن الدين يتأنى ويتوقف فى اقتفاء سعادته وانتهاج جادة مصلحته. ويحجم عن النزول من القلعة. قامت مهاوشة[3] وحرب دامت ما يقرب من ثلاثة أيام بين قوات السلطان القريبة من القلعة وبين سكان الجبل وجنود ركن الدين الذين أحرزوا بعض الانتصارات إلا أنهم لم يلبثوا أن ذاقوا شيئا من المهابة السلطانية (٢٦٧) وسطوة قدرتها. وفى الخامس والعشرين من شوال قامت الحرب السلطانية، التى

---

(١) جامع التواريخ يطلق عليه نفس الاسم فى الجزء الخاص بالإسماعيلية ١٢٢ = ص ١٨٨ طبع طهران، بينما يطلق عليه فى الجزء الخاص بهولاكو طبع كاترمر ص ٢٠٤ = ص ٢٥٢ من الترجمة العربية – اسم (شرونشاه).

(٢) الظاهر بل من المؤكد أن بسكر هذه هى نفس فسكر المذكورة فى الصفحة السابقة.

(٣) مهاوشة ومناوشة متقاربتان فى المعنى ومعناهما الحرب الخفيفة والقتال غير الشديد "وفى حديث قيس بن عاصم كنت أناوشهم وأهاوشهم فى الجاهلية، أى أقاتلهم" (اللسان).

لايمكن أن يكون هناك أكثر عظمة ومهابة منها. فشاهد ركن الدين نموذجا وعرف أنه لا قبل له (بالمقاومة). وفى اليوم التالى أرسل ابنه الوحيد، وأخاه الآخر المسمى إيرانشاه مع طائفة من أعيان قومه وكفاتهم ومقدميهم.

وفى يوم السبت التاسع والعشرين من شوال وصل هو نفسه إلى عبودية سلطان العالم، وحظى بسعادة المثول فى الخدمة. وأخرج كل قومه والمتصلين به من ميمون دز وقدم خزائنه إلى السلطان دليلا على الخضوع. ومع أنها لم تكن فاخرة كما اشتهر عنها، إلا أنهم أخرجوا ما كان موجودا. فأمر السلطان بتوزيع أغلبها على الجند، واستخلص القلعة، كما استخلص باقى قلاع ركن الدين. وأما كيفية استئصال القلاع واستخلاص تلك الولايات بلا استثناء فسوف يتم شرحها بمزيد من الوضوح فيما يلى مباشرة.

كان قتل علاء الدين، أبى ركن الدين خورشاه، فى آخر شوال سنة ثلاث وخمسين وستمائة. وكان بدء تقلد (ركن الدين) حكم أولئك القوم، وهم مطيعوهم وأتباعهم، فى اليوم الأخير من شوال. وقد خرج ركن الدين من شهر شوال سنة أربع وخمسين وستمائة، ووقف أما حضرة السلطان فى مقام العبودية، وبذلك كانت مدة حكومته مكان أبيه سنة كاملة.

ذكر قلاع ركن الدين بعد نزوله

كان ركن الدين لا يزال يتمتع بحسن الطالع إذ نزل من القلعة[1]. وقد لازمه من الأمراء تمغا، أحد أمراء البلاط، مع جماعة آخرين لحمايته. وكان ركن الدين قد أرسل معتمديه فى صحبة الرسل لهدم قلاع تلك الولايات وتخريبها. فحطموا ما يربو على أربعين قلعة، وهبط منها سكانها الذين كانوا كلاب الإلحاد، بمقتضى الأمر فيما عدا سكان قلعتى الموت ولمسر، الذين تعللوا والتمسوا أن ينزلوا من القلعة عندما تصل مواكب السلطان إلى حدود الموت.

وبعد يومين أو ثلاثة[2] تحرك السلطان، وعبر شهرك رودبار مرة ثانية وعسكر الجيش هناك. وكانت شهرك هذه فى أيام الجاهلية قبل الإسلام وفى الإسلام قبل الإلحاد مركزا لملوك الديلم ثم أنشئ بها فى عهد علاء الدين حديقة وقصر وكانت متنزها لهم. ولقد أقام (المغول) احتفالا بالفتح والظفر استمر تسعة أيام، ثم توجهوا من هناك إلى أسفل الموت، حيث توقفوا يوما واحدا، وأوفد ركن الدين إلى أسفل القلعة (٢٦٩) لكى يفاوض أولئك القوم ويدعوهم (للتسليم). فتمرد مقدم القلعة المسمى مقدم الدين[3] وأبى النزول إباء تاما. فترك السلطان الأمير بلغاى[4] مع جيش جرار لإحكام الحصار حول القلعة، بينما عزم هو على التوجه بنفسه إلى لمسر.

---

(١) يعنى ميمون دز كما سبق للمصنف أن صرح فى الصفحات السابقة.

(٢) بعد فتح ميمون دز بحوالى ثلاثة أيام.

(٣) الفقرة المعادلة فى جامع التواريخ ١٢٤ = ص ١٩١ ط طهران: وتمرد مقدم الدين الذى كان مقدم القلعة. وواضح من سياق العبارة أن مقدم لو مقدم الدين كان اسم رئيس قلعة الموت.

(٤) بلغاى هو الابن الرابع لشيبان (شيبتان) بن توشى بن جنكيز خان، وقد أرسله باتو لمدد هولاكو فى أثناء توجهه إلى إيران، وقد مات فجأة فى حدود ٦٥٧هـ، انظر جامع التواريخ طبع بلوشة ص ١١٥ ، ١١١ ، ١٣٧ - ١٣٨، وجامع التواريخ طبع كاترمر، ص ٣٥٨ = ص ٢٨١ من الترجمة لعربية لجامع التواريخ طبع كاترمر، وأيضا ص٢٨٦ و٢٨٧ و٣١٧، ومختصر الدول لابن المعرى ص ٤٦٠، وقد كتب اسم بلغاى بتفاوت فى الرسم بين كل من الجامع ومعز الأنساب وأبو الغازى ومختصر الدول: بلغاى وبلغا وبلغه وبالاقان وبلقه ، كل هذه الأسماء لمسمى واحد.

ولقد دخل أرباب الموت من باب المصلحة، وأغلقوا طريق الممانعة، إذ أخذوا يرسلون الرسول تلو الرسول إلى ركن الدين أسفل لمسر، حتى شفع لهم عثراتهم فى حضرة السلطان، وحصل لهم على مرسوم الأمان، ثم سار إليهم، ولقد نزل "مقدم" من القلعة، فصعد جماعة من المغول إليها، وسمحوا لركن الدين بالصعود معهم، فحطموا المجانيق، وخلعوا الأبواب. وطلب سكان القلعة ثلاثة أيام مهلة، واشتغلوا بنقل ما كان فى القلعة من أمتعة وأقمشة، وفى اليوم الرابع صعد كافة الجنود والمجندين وأغاروا على البقايا التى تركوها .

والموت جبل شبهوه بجمل برك، ووضع رقبته على الأرض. وعندما كنت بأسفل لمسر، استولت على الرغبة فى تفقد مكتبة الموت، التى استطار صيتها فى الأقطار، (٢٧٠) فعرضت على السلطان أنه لا ينبغى تضييع نفائس الكتب الموجودة بالموت. فتقبل السلطان طلبى بقبول حسن، وأعطى الأوامر اللازمة، فتوجهت لتفقد المكتبة، وأخرجت كل ما وجدت من المصاحف ونفائس الكتب على مثال ﴿يخرج الحى من الميت﴾ كما اخترت الآلات التى كانت موجودة مثل آلات الرصد من الكراسى وذات الحلق[١]، والاسطر لابات التامة والنصفية والشعاع[٢] وأحرقت ما بقى وكان متعلقا بضلالتهم وغوايتهم، وهو ما لم يكن مستندا إلى منقول ولا معتمدا على معقول. ورغم وجود الخزائن الوفيرة وأجناس الذهبيات والفضيات التى لا تدخل فى نطاق الحصر إلا أنى ناديت عليها بنداء (يا صفراء اصفرى ويا بيضاء ابيضى)[٣] فأنعمت بها بكرم.

---

(١) انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ٢٣٥ ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٢: ١٥١ (فى ترجمة نصير الدين الطوسى)، وكشف الظنون عنوان "الآلات الرصدية".

(٢) كذا فى معظم النسخ الخطية، وفى إحدى النسخ زيدت كلمة "وذات الشعبتين" فى الحاشية -لم أتمكن من تصحيح هذه الكلمة، وذات الشعبتين هى أيضا اسم آلة من آلات التنجيم كذات الحلق، انظر كشف الظنون فى المواضيع المذكورة.

(٣) قول مشهور لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، قال فى تاج العروس فى ص ف ر: "والصفراء الذهب للونها، ومنه قول على بن أبى طالب رضى الله عنه: "يا صفراء اصفرى ويا بيضاء ابيضى وغرى غيرى". ويروى هذا الحديث مع اختلاف فى الألفاظ فى مواضع أخرى، انظر مروج الذهب فى حكاية حرب الجمل ٤: ٣٣٦ ، والعقد الفريد ٣: ٩٥ ، وكشف الغمة ٤٧، ومقدمة ابن خلدون ١٢١ (ص ٥٣٨ طبع الدكتور على عبد الواحد وافى) فى فصل "انقلاب الخلافة إلى الملك".

ولقد وجدت - فى أثناء تفقدى للمكتبة - تاريخ الجيل[١] والديلم الذى صنف باسم فخر الدولة (٢٧١) بويه[٢]. وقد ورد فى ذكر الموت أن أحد ملوك الديلم، الذين يقال لهم أرجستان[٣]، بدأ فى عمارة هذا الجبل فى سنة ست وأربعين ومائتين. وكان ملوك الديلم يفتخرون بها كما كانت مصدرا لاستظهار شيعة الإسماعيلية. وقد ورد فى تاريخ السلامى أن حاكم ذلك الموضع - وكان يدعى "سياه جشم" (ومعناه الأسود العين)[٤] - كان من المستجيبين لدعوة الإسماعيلية بمصر؛ وذلك فى أيام استيلاء الديالمة على العراق. وقد وردت كيفية انتقاله[٥] إلى هذه القلعة فى ذكر (٢٧٢) الحسن بن الصباح. والحقيقة أنها كانت قلعة محكمة إحكاما شديدا، وكانت مداخلها ومخارجها ومراقيها ومعارجها قد صارت بفضل التشييد الذى تتمتع به جدرانها المجصصة ومبانيها المرصوصة من القوة بحيث كان الحديد - فى أثناء تخريبها - وكأنه يضرب رأس حجر، ولا يخرج فى يده شيء، وهى لم تزل تقاوم. وشيدوا أحجار تلك الحجار عدة أروقة وأحواض عميقة وارتفاعات مختلفة، بحيث أغنت عن استعمال الحجار والملاط. وكأن

---

(١) المترجم: من الكتب العربية التى اهتمت بتاريخ الجيل كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٣ معارف عامة، انظر الجزء الثانى من المجلد الثالث.

(٢) بويه ليس اسم فخر الدولة كما يمكن أن تتوهم من ظاهرالعبارة، بل إنه اسم جده المشهور الذى تنسب إليه هذه السلسلة. أما اسم فخر الدولة فهو على بن ركن الدولة الحسن بن بويه، وعلى ذلك ينبغى أن يعدل اسمه إلى فخر الدولة البويهى.

(٣) يحتمل أن تكون هذه الكلمة تحريفا لكلمة "جستان" أو آل جستان وكان آل جستان سلسلة من ملوك الديلم توارثوا الحكم فى نواحى رودبار الموت والطالقان وسواحل شاهرود وسفيدرود، ويرد ذكرهم كثيرا فى كتب التواريخ والمسالك والممالك وغيرها.

(٤) يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٣١٦ ج ٨ ص ٧٠ - ٧١ ضمن تفصيل أحوال أسفار بن شيرويه الديلمى: "ولما فرغ أسفار من أمر طبرستان سار إلى الرى وبها ماكان بن كالى (ظ : كاكى) فأخذها منه واستولى عليها وسار ماكان إلى طبرستان، فأقام هناك وأحب أسفار أن يستولى على قلعة الموت، وهى قلعة على جبل شاهق من حدود الديلم، وكانت لسياه جشم بن مالك الديلمى، ومعناه الأسود العين؛ لأنه كان على إحدى عينيه شامة فراسله أسفار إلخ".

(٥) الهاء هنا تعود ولا شك على الحسن بن الصباح المذكور فى نفس السطر، ولا تعود على فلان سياه جشم كما يمكن أن يتوهم من ظاهر العبارة؛ ذلك لأنه لم يسبق أن ورد خبر عن هذه المقولة قط فى الفصل الخاص بالحسن ابن الصباح، بل على العكس جرى الحديث هناك مفصلا عن كيفية انتقال الحسن بن الصباح إلى قلعة الموت (ص١٩٣ - ١٩٥ وما يقابلها من الترجمة).

آية ﴿وتنحتون من الجبال بيوتا﴾ قد وردت فى وصفها. كما نحتوا المخازن والأحواض للشراب والخل والعسل وأنواع السوائل وأجناس الجوامد. وتفاصيل تفاسير آية ﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾ المبينة فى القصص تشاهد فى تلك العمائر من آثار الإنس[1]. وفى وقت الغارة واستخراج الذخائر الموجودة بالقلعة خاض شخص فى حوض العسل فلم يعثر له على قرار وقبل أن يعرف الخبر كان العسل قد غطاه كله فصار وكأنه يونس لولا أن تداركه[2]. وقد مدوا جدولا من نهر باهرو[3] إلى أسفل القلعة حيث حفر جدول فى الصخر على مدار القلعة (٢٧٣)، وشيدوا فى قاعه لتخزين الماء أحواضا من الصخر أيضا كأنها البحر، بحيث كان الماء يندفع بقوته الذاتية فيملؤها على الدوام[4]. وكانت أكثر ذخائرها من السوائل والجوامد قد وضعت فى عهد الحسن بن الصباح، فمضى عليها ما يربو على مائة وسبعين عاما[5]، دون أن تظهر الاستحالة فيها[6]، وكانوا يعتبرونها بركة من الحسن. أما بقية وصف آلات الحرب والذخائر فهى تخرج عن أن يضمها بطن كتاب واحد دون أن يكون فى ذلك ملل.

وقد عهد السلطان إلى أحد الأمراء مع عدد كبير من الحشم والجندين بتخريب القلعة. فلم يعول على المعول، بل أشعلوا النار فى المبانى، ثم بدأوا بعد ذلك فى تحطيمها، وقد استغرق هذا العمل منهم مدة طويلة.

وأقام السلطان فى لمسر، وكانت مشتى تلك النواحى، وأمهل شياطينها عدة أيام عسى أن يتخلوا عن ضلالهم وعسى أن يخرج صلال[7] هؤلاء القوم من جحورهم فى

---

(١) "من آثار الإنس" فى مقابل "الشياطين" يعنى ما نسمعه فى القصص والتفاسير عن الشياطين والجنة فيما يتعلق بإعداد الأبنية الخارجة عن قدرة البشر نشاهد نظيره رأى العين فى تلك العمائر.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة "﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾".

(٣) لم أتمكن من تصحيح هذه الكلمة ، ويحتمل أن تكون هذه الكلمة الفاسدة المحرفة فى كافة النسخ الخطية تصحيفا لكلمة شاهرود".

(٤) المترجم: تقدم لنا الآنسة فريا ستارك فى كتابها The Valleys of The Assassins pp. 247 – 248 وصفا رائعا للوسائل التى كان يتبعها الإسماعيلية فى إمداد قلاعهم بالماء وبخاصة قلعة لمسر.

(٥) انظر ص ١٩٤ وما يقابلها من الترجمة، وقد استولى الحسن بن الصباح على الموت فى ٦ من رجب سنة ٤٨٣هـ.

(٦) المترجم: استخدم المؤلف الكلمة العربية "الاستحالة" بمعنى التحول والفساد فى السوائل المخزونة.

(٧) المترجم: الصلال جمع الصل، وهى الحية. (انظر حواشى الأستاذ القزوينى على جهانكشاى ج٣ ص ٣٠٤ – ٣٠٥).

إحدى اللحظات. فلم يجد فائدة، فترك طاير بوقا مع جيش من المغول والفرس لمحاصرتها (٢٧٤) وعاد بالسعد في السادس عشر من ذى الحجة سنة أربع وخمسين وستمائة موفقا مسددا.

وقد أسكن (السلطان) أمتعة ركن الدين مع حاشيته ومواشيه فى قزوين، ووزع جنده على الأمراء. وقد لزم ركن الدين عبودية السلطان بجانب البلاط الذى كان فى حدود همدان. وسير مع معتمديه رجلين أو ثلاثة فى صحبة رسل السلطان إلى قلاع الشام لكى يحضروا رؤساءها، ويقوموا بجرد خزائنها، وأن يحفظوا تلك القلاع كعبيد للسلطان، التى هى مثوى الفلك، إلى تلك الحدود والديار. ولسوف يصدر الأمر فى هذا الشأن حسب ما تقتضيه المصلحة.

وكان ركن الدين موضع اهتمام السلطان ومرحمته، وفى تلك الأثناء عشق ركن الدين أحدى بنات أراذل الأتراك فقدم ملكه بدلا عن حبها كمجنون ليلى، وفى النهاية زوجوه بها كما أمر السلطان. وفى أحد الأيام طلب من المطربين هذا الرباعى فى مجلس الشراب:

– أيها المليك لقد جئت بابك لاجئا، وأنا خجل مما أتيته من أفعال.

– ولقد جرنى إقبالك من شعرى إلى هنا، وإلا فإلى أى بلاط أذهب ولأى غرض؟

وكانت مراجل خياله تغلى بالهواجس بالنسبة لفحول الجمال البلخية، وكان يناقش فى شأنها كل من يعرف عنها شيئا، وطبقا لهذا أمر له السلطان يوما بمائة ناقة. فرفضها قائلا: "كيف يمكننى أن أنتظر نتاجها؟". وطالب بثلاثين فحلا؛ ذلك لأنه كان شغوفا بمشاهدة مصارعة الجمال.

(٢٧٥) مجمل القول أنه لما فرغ من أمر عروسه التمس من السلطان أن يرسله إلى عبودية حضرة منكوقا آن. وكان ملتمسه موافقا لرأى السلطان، فتوجه فى أول ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة مع تسعة أشخاص إلى تلك الحضرة فى صحبة الرسل ومقدمهم[1].

---

(١) المترجم: بياض فى الأصل. وهو بوجراى كما سيأتى.

ذكر أحوال ركن الدين وانتهاء أمرهم

عندما كان السلطان على وشك أن يوجه (ركن الدين) إلى حضرة سلطان العالم منكوقا آن، وفقا لملتمسه، أخذ على عاتقه خدمة السلطان فى الوقت الذى وصل فيه كردكوه. فأنزل المخاذيل الذين كانوا بها من الذروة. ولما أرسله (السلطان) عهد بحراسته إلى جماعة من المغول برئاسة بوجراى، فلما وصلوا أسفل كردكوه أمر سكانها فى الظاهر بالنزول، ولكنه كان يحرضهم خفية على عدم النزول. فلما غادروا ذلك المكان إلى بخارى طوع له عقله مخاصمة الرسل، فلاكم بعضهم بعضا.

ولما كان مقررا فى أصل مرسوم القا آن (جنكيز خان) وكذلك فى لائحة منكوقاآن ألا يتركوا أحدا منهم حتى ولو كان طفلا فى المهد، وكانوا قد عهدوا بكافة أتباعه، آلافهم ومئاتهم، إلى موكلين عقلاء، وقد صدرت عنهم فى تلك الأثناء أقوال وأفعال (٢٧٦) دعت إلى التعجيل وهيأت الفرصة لإراقة دماء تلك الطائفة. فلقد صدر الأمر بأن يذهب الرسل إلى كافة الجيوش (لإبلاغها) بأن يقتل كل قوم الجماعة التى عهد بها إليهم. وتوجه قراقاى بيتكجى إلى قزوين لكى يسوق ركن الدين وأبناءه وبناته وأخواته وكل من كان من أصله وقومه إلى نار الفناء، وسلموا اثنين أو ثلاثة منهم إلى بلغان[1] لكى يقتلهم قصاصا لدم أبيه جغتاى[2] الذى كان الفداوية قد اغتالوه طعنا بالخناجر، فلم يبق من نسلهم أحد على الإطلاق.

وقد صدر الأمر لأوتاكوجينا، قائد جيش خراسان، (٢٧٧) وكان منشغلا بأمر قهستان - بأن يقضى هو الآخر على كل فرد من تلك الجماعة كان راسخا فى الإلحاد

---

(١) كذا أيضا فى جامع التواريخ ١٢٦ (ص ١٩٤ ط طهران). ويبدو أن بلغان هذا هو نفسه الذى يطلق عليه جامع التواريخ فى موضع آخر قرا بولغان، وهذا نص الفقرة التى ورد بها اسمه على هذا النحو: "كان الأمير الآخر (من قواد الألف جندى الذين أتوا مع جورماغون إلى إيران) هو جغتاى بزرك قورجى من قوم أرلات من أقارب يورغوجين وقد قتله الملاحدة طعنا بالخناجر وأبناؤه طولوداى يارغوجى وباى تيمور وقرابولغان وسرتاقتاى، وكان قرابولغان المذكور أميرا على ألف جندى" (جامع التواريخ طبع برزين ج ١ ص ٥٩ باختصار).

(٢) من الواضح أن (جغتاى) هذا هو أبو بلغاى الذى كان الفداوية قد اغتالوه ليس هو جغتاى المشهور ابن جنكيز خان.

فأخرجهم على سبيل الحشر وقتل اثنى عشر ألفا. وهكذا أعدموا كل من كان منهم على قيد الحياة عن آخرهم حيثما كانوا.

وكذلك فعلوا بركن الدين؛ إذ إنه لما وصل إلى قراقورم قال سلطان العالم منكوقاآن: "لم يكن من الضرورى إحضاره عبر هذه الرحلة الطويلة. وأن المرسوم الملكى الذى أصدرته من قبل معروف". ولم يسمح لركن الدين بأن يرفع الهدايا وأبلغوه بالأمر التالى: "إنك إذا كنت تدعى الطاعة فلماذا تبقى بعض القلاع مستعصاة مثل كردكوه ولمسر؟ فعليك الآن أن تذهب وأن تعود مرة أخرى بعد تخريب تلك القلاع فتحظى بشرف تقديم الهدايا (للحضرة السلطانية)".

بهذا الأمل ردوه، فلما وصل إلى حدود تيعاب[1] قاده الرسل خارج الطريق وأذاقوه الوبال الذى كان أباؤه وأجداده قد أذاقوه لخلق الله إذ تناولوه هو وأتباعه بالركل حتى أحالوهم حطاما ثم أتوا عليهم بالسيوف، ولم يبق منه ولا من نسله أثر، وأصبح هو وأقرباؤه سمرا على اللسنة وخبرا فى الدنيا.

(٢٧٨) وهكذا تطهر العالم الذى كان ملوثا بخبثهم. وأصبح الرائحون والغادون يذهبون ويجيئون بلا خوف أو وجل أو مشقة فى الحراسة، وأخذوا يدعون بالتوفيق للسلطان السعيد الطالع الذى أزال أسسهم ولم يبق لأحد منهم أثرا. والحقيقة أن هذا الأمر كان مرهما لجراح المسلمين وتداركا للدين من الخلل. ويعرف أولئك الذين ينتمون إلى عصرهم إلى أى مدى بلغت فتنة هذه الطائفة وإلى أى حد بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم. وأن الشخص الذى كان على وفاق معهم، منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصر، إنما كان فقط مدفوعا بدافع الخوف والرعب منهم. أما من عاداهم فكان عليه أن يعيش ليله ونهاره سجينا خوفا من رعاعهم. حقا لقد كان كأسا طافحا وريحا عاتية ولكنها أخمدت، ذلك ذكرى للذاكرين، وكذلك يفعل الله بالظالمين.

ثبت بأسماء المراجع

أولاً: المراجع الفارسية

استرن ، س .م.

١ – اولين ظهور إسماعيلية در إيران.

(ترجمه سخنرانى است كه در ١٥ مه ١٩٦١ توسط آقاى برفسور دردانشكده ادبيات طهران ايراد كرديده است)

ترجمة سيد حسين نصر، طهران ١٩٦١.

ابن اسفنديار، بهاء الدين محمد بن حسن.

٢ – تاريخ طبرستان، جلد أول.

باهتمام عباس إقبال طهران ١٣٢٠ هـ . ش.

براون، إدوارد جرانفيل

٣ – تاريخ أدبى إيران از قد يمترين روزكاران تازمان فردوسى

ترجمة وتعليق على باشا صالح، طهران ١٣٢٥ هـ . ش.

بهار، محمد تقى

٤ – سبك شناسى يا تاريخ تطور نثر فارسى

جلد سوم، طهران

خواند أمير، غياث الدين بن همام

٥ – حبيب السير فى أخبار أفراد البشر

نشر محمد حسين كاشانى بمباى ١٢٧٣هـ

ذبيح الله صفا (دكتور)

٦ – تاريخ ادبيات در إيران ازميانه قرن بنجم تاآغار قرن هفتم هجرى، طهران ١٣٣٦هـ. ش .

الراوندى، محمد بن على بن سليمان
٧ - راحة الصدور وآية السرور در تاريخ آل سلجوق، تصحيح محمد إقبال ليدن ١٩١٢م
رشيد الدين فضل الله
٨ - جامع التواريخ
(قسمت إسماعيليان وفاطميان ونزاريان وداعيان ورفيقان) باهتمام محمد تقى دانش بزوه ومحمد مدرسى زنجانى، طهران ١٣٣٨ هـ. ش.
٩ - جامع التواريخ
طبع بلوشه ليدن ١٩١١م، الطوسى، نصير الدين محمد
١٠ - مطلوب المؤمنين
يسمى إيفانوف بمباى ١٩٣٣م
عطا ملك الجوينى، علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد
١١ - تاريخ جهانكشاى (درسه جلد) بسعى واهتمام محمد بن عبدالوهاب قزوينى ليدن ١٩١٢- ١٩٣٧م
عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير
١٢ - قابوس نامه، باهتمام سعيد نفيسى طهران ١٣١٢ هـ .ش.
عوفى ، محمد عوفى
١٣ - لباب الألباب، نشر وتحقيق براون ليدن ١٩٠٣.
الكرديزى، أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود.
١٤ - زين الأخبار، بسعى محمد ناظم برلين ١٩٢٨م
المرعشى، سيد ظهير الدين بن نصير الدين.
١٥ - تاريخ طبرستان ورويان ومازندران باهتمام برنهرد دارن بطرسبورج ١٨٥٠م
مستوفى قزوينى، حمد الله بن أبى بكر
١٦ - تاريخ كزيده (دوجلد) باهتمام ادوارد براون، ليدن ١٩١٠- ١٩١٣م
١٧- نزهة القلوب قسمت جغرافيائى، نشر لوسترنج ليدن ١٩١٣م

أبو المعالى ، محمد الحسينى العلوى.

١٨- بيان الأديان در شرح أديان ومذاهب جاهلى وإسلامى تصحيح عباس إقبال طهران ١٣١٢هـ. ش.

منتجب الجوينى، مؤيد الدولة منتجب الدين بديع أتابك.

١٩- كتاب عتبة الكتبة تصحيح واهتمام محمد بن عبد الوهاب القزوينى وعباس إقبال طهران ١٣٢٩هـ .ش.

مير خوند

٢٠ – روضة الصفا المجلد الثالث لكنو ١٨٩١م

ناصر خسرو، أبو معين ناصر بن خسرو القباديانى المروزى.

٢١ – خوان الإخوان، بسعى واهتمام يحيى الخشاب القاهرة ١٩٤٠م

٢٢ – ديوان ناصر خسرو طهران ١٣٣١هـ

٢٣ – زاد المسافرين برلين ١٣١٤هـ

٢٤ – سفرنامه طهران ١٣٣١هـ

٢٥ – وجه دين

نظام الملك، أبو على الحسن بن أبى الحسن.

٢٦ – سياستنامه طبع شفر انجى ١٨٩١م، طبع طهران ١٣٣٤ هـ .ش.

٢٧- كتاب مجمع الوصايا (وهو منسوب إلى نظام الملك) نشر شفر در ذيل سياستنامه ص ٤٨- ٥٦ انجى ١٨٩١م

نظامى عروضى‌سمر قندى، أحمد بن عمر بن على

٢٨ – جهار مقاله، باهتمام محمد بن عبد الوهاب قزوينى ليدن ١٩٠٩م

هدايت، رضا قلى خان

٢٩- مجمع الفصحاء در دوجلد بومباى ١٢٩٥هـ

مؤلف مجهول،

٣٠ – دربيان شناخت إمام، بسعى إيفانوف القاهرة ١٩٤٧م

مؤلف مجهول،
٣١ - كلام بير يعنى كتاب هفت باب ، باهتمام إيفانوف، بومباى ١٩٣٤م
مؤلف مجهول،
٣٢ - هفت باب بابا سيدنا، بسعى إيفانوف، بومباى ١٩٣٣م

ثانياً - المراجع العربية

ابن الأثير، عز الدين أبو حسن على بن أبى الكرم
٣٣ - الكامل فى التاريخ، ١٢ جزءا ، طبع ليدن ١٨٥٣م، طبع مصر ١٣٠١هـ
اجناس جولد زيهر
٣٤ - العقيدة والشريعة فى الإسلام، ترجمه إلى العربية محمد يوسف موسى وآخرون، مصر ١٩٤٦م.
أحمد شلبى (دكتور)
٣٥ - تاريخ التربية الإسلامية ، بيروت ١٩٥٤م.
أحمد محمود الساداتى(دكتور)
٣٦ - تاريخ جهانكشاى، مقال نشر فى مجلة تراث الإنسانية، العدد الثانى من المجلد الرابع ، فبراير ١٩٦٦.
أرثر كرستنس
٣٧ - إيران فى عهد الساسانيين، ترجمه عن الفرنسية الدكتور يحيى الخشاب، مصر ١٩٥٧م
الإسفراينى، أبو حامد محمد
٣٨ - التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، مصر ١٩٤٠م.

الأشعرى، أبو الحسن على بن إسماعيل
٣٩ – مقالات الإسلاميين الجزء الأول، استانبول ١٩٢٨م.
براون، إدوارد جرانفيل
٤٠ – تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، ترجمه إلى العربية المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، مصر ١٩٥٤م.
برنارد لويس
٤١ – أصول الإسماعيلية، ترجمه إلى العربية خليل أحمد جلو، جاسم الرجب ، مصر ١٩٤٧م.
البغدادى، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر
٤٢ – الفرق بين الفرق، باهتمام محمد بدر، مصر ١٩١٠م.
البيرونى، أبو الريحان محمد بن أحمد
٤٣ – الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبع سخاو ، ليبزج ١٨٧٨م.
٤٤ – تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة نشر سخاو ، ليبزج ١٩٢٥م.
ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف
٤٥ – المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى مخطوط بدار الكتب المصرية فى ثلاثة مجلدات برقم ١١١٣ تاريخ.
جعفر حسين خصباك(دكتور)
٤٦ – أحوال العراق الأقتصادية فى عهد الايلخانيين المغول(٦٥٦ - ٧٣٧)
مقال نشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد، بغداد ١٩٦١م.
جمال زكريا قاسم(دكتور)
٤٧ – الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤، مصر ١٩٦٦م
الجوذرى، أبو على منصور العزيزى
٤٨ – سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق الدكتور محمد كامل حيسن والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، مصر ١٩٥٤م

ابن الجوزى، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن

٤٩ – تلبيس إبليس، تصحيح محمد منير الدمشقى، مصر ١٩٢٨م.

٥٠ – المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، عشرون جزءاً

حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٧هـ.

أبو حاتم الرازى، أحمد بن حمدان

٥١ – كتاب الزينة فى المصطلحات الإسلامية تحقيق الدكتور حسين فيضى الهمدانى ، مصر ١٩٥٦م

حاجى خليفة، مصطفى بن عبد الله

٥٢ – كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون

مجلدان استانبول ١٩٤١م

ابن حزم الأندلسى، أبو محمد

٥٣ – الفصل فى الملل والأهواء والنحل، مصر ١٣١٧هـ.

حسن إبراهيم حسن (دكتور) وطه شرف(دكتور)

٥٤ – عبيد الله المهدى، مصر ١٩٤٧م.

حسن إبراهيم حسن (دكتور)

٥٥ – تاريخ الدولة الفاطمية ، مصر ١٩٥٨م.

ابن حنبل، عبد الله أحمد بن محمد

٥٦ – المسند، ستة مجلدات، مصر ١٣١٣هـ

أبو حنيفة الدينورى، أحمد بن داود

٥٧ – الأخبار الطوال

تحقيق عبد المنعم عامر، مصر ـ ١٩٦٠م

أبو حيان التوحيدى

٥٨ – الإمتاع والمؤانسة

ثلاثة أجزاء تحقيق أحمد أمين وأحمد زين ، مصر ١٩٣٩ـ ١٩٤٤م

ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
٥٩ – المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٠م.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد
٦٠ – العبر وديوان المبتدأ والخبر
سبعة أجزاء، مصر ١٢٨٤هـ
٦١ – مقدمة ابن خلدون
باهتمام الدكتور على عبد الواحد وافى، مصر ١٩٥٨م.
الدوادارى، أبو بكر محمد بن أيبك
٦٢ – كنز الدرر وجامع الغرر (الجزء السادس)
النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ الذهبى، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان
٦٣ – تاريخ الإسلام
النسخة المصورة بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ
الرازى، أبو بكر محمد بن زكرياء
٦٤ – رسائل فلسفية، مع قطع بقيت من كتبه المفقودة
جمعها وصححها بول كراوس، مصر ١٩٣٩م.
الرواندى، محمد بن على بن سليمان
٦٥ – راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ السلجوقية
ترجمه عن الفارسية الدكاترة إبراهيم أمين الشواربى، عبد النعيم محمد حسنين، فؤاد عبد المعطى الصياد، مصر ١٩٦٠م.
رشيد الدين فضل الله
٦٦ – جامع التواريخ (طبع كاترمر)
ترجمه عن الفارسية الدكتور يحيى الخشاب، الدكتور فؤاد الصياد، والأستاذ صادق نشأت، مصر ١٩٦٦م

زكى النقاش (دكتور)
٦٧ – الجشاشون وأثرهم فى السياسة والاجتماع
مخطوط بالمكتبة العامة بجامعة القاهرة برقم ١٤٤ رسائل.
السبكى، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب
٦٨ – طبقات الشافعية الكبرى
فى ثلاثة اجزاء، المطبعة الحسينية بمصر
ابن سعد،
٦٩ – الطبقات الكبرى
نشر سخاو ، ليدن ١٩٢٢ - ١٩٢٩م.
السمعانى، أبو سعيد عبد الكريم بن أبى بكر
٧٠ – الأنساب
باهتمام مارجيليوث، ليدن ١٩١٢م.
سيديو ا ل . أ
٧١ – تاريخ العرب العام
ترجمة عادل زعتر، لبنان ١٩٤٨م.
ابن شاكر الكتبى، محمد بن شاكر بن أحمد
٧٢ – فوات الوفيات (جزءان)، مصر ١٢٨٣هـ.
الشبيبى، محمد رضا
٧٣ – مؤرخ العراق ابن الفوطى (جزءان)، بغداد ١٩٥٠- ١٩٥٨م.
الشهرستانى، محمد بن عبد الكريم
٧٤ – الملل والنحل (جزءان)
تحقيق أبى الفتح بدران، مصر ١٩٤٧م.
الصولى، أبو بكر محمد بن يحيى
٧٥ – أخبار الراضى بالله والمتقى بالله
نشر ج. هيورث دن ، مصر ١٩٣٤- ١٩٣٥م.

الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير
٧٦ – تاريخ الرسل والملوك (سبعة مجلدات)
باهتمام ديخويه ، ليدن ١٨٨١- ١٨٨٣م
ابن الطقطقى، محمد بن على بن طباطبا
٧٧ – الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مصر ١٩٢٧م
طه أحمد شرف (دكتور)
٧٨ – دولة النزارية أجداد أغا خان كما أسسها الحسن بن الصباح (زعيم الإسماعيلية فى فارس)، مصر ١٩٥٠م.
عبد العزيز الدورى (دكتور)
٧٩ – "الإسماعيلية" عرض وتحليل
مقدمته للترجمة العربية لكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس، مصر ١٩٤٧م.
عبد القادر أحمد طليمات
٨٠ – مظفر الدين كوكبورى
سلسلة أعلام العرب (٣٢)، بمصر ١٩٦٤م.
عبد المنعم ماجد (دكتور)
٨١ – المستنصر بالله الفاطمى، مصر ١٩٦١م.
عبد النعيم محمد حسنين (دكتور)
٨٢ – سلاجقة إيران والعراق، مصر ١٩٥٩م.
٨٣ – نظامى الكنجوى شاعر الفضيلة
ابن العبرى، أبو الفرج غرغوريوس بن أهرون
٨٤ – مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠م.
أبو عبيد الله بن عبد العزيز
٨٥ – المغرب فى ذكر إفريقية وبلاد المغرب
باهتمام دى سلان ، الجزائر ١٩١١م.

ابن عذارى المراكشى،
٨٦ – البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب
الطبعة الأولى باهتمام دوزى، ليدن ١٨٤٨م.
الطبعة الثانية باهتمام ليفى بروفنسال، ليدن ١٨٤٨م.
العسقلانى، أحمد بن على بن حجر
٨٧ – لسان الميزان (ستة أجزاء)، حيدر آباد الدكن ١٣٢٩هـ.
(الداعى) علم الإسلام ثقة الإمام
٨٨ – المجالس المستنصرية
نشر الدكتور محمد كامل حسين
العماد الأصفهانى، عماد الدين محمد بن محمد
٨٩ – تاريخ دولة آل سلجوق
اختصار الفتح بن على بن محمد البندارى، مصر ١٩٠٠م.
ابن عنبة، أحمد بن على بن الحسين
٩٠ – عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب
مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٨٠ تاريخ، وطبع فى بومباى سنة ١٣١٨هـ.
العينى، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى
٩١ – عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان
مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ.
الفخر الرازى، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين
٩٢ – اعتقادات فرق المسلمين والمشركين
باهتمام على سامى النشار، مصر ١٩٣٨م.
أبو الفداء، إسماعيل بن على عماد الدين
٩٣ – المختصر فى أخبار البشر (أربعة اجزاء)، القسطنطينية ١٢٨٦هـ

ابن فضل الله العمرى، شهاب الدين أحمد بن يحيى
٩٤ – مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف عامة
فؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور)
٩٥ – المغول فى تاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو خان، مصر ١٩٦٠م.
فيليب حتى (وآخران)
٩٦ – تاريخ العرب (مطول) الجزء الثانى ، لبنان ١٩٥٣م.
فان فلوتن
٩٧ – السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات فى عهد بنى أمية
ترجمه عن الفرنسية حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم، مصر ١٩٣٤م.
القالى، أبو على إسماعيل بن قاسم
٩٨ – الأمالى (ثلاثة أجزاء)، مصر ١٩٢٦م.
القرطبى، عريب بن سعد
٩٩ – صلة تاريخ الطبرى، المطبعة الحسينية بمصر
القزوينى، زكريا بن محمد بن محمود
١٠٠ – آثار البلاد
طبع ووستنفلد ، جوتنجن ١٨٤٨م.
القلانسى، أبو يعلى حمزة
١٠١ – ذيل تاريخ دمشق
باهتمام آمدورز ، بيروت ١٩٠٨م.
القلقشندى،
١٠٢ – صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، مصر.
القمى، سعد بن عبد الله خلف الأشعرى
١٠٣ – كتاب المقالات والفرق
نشره وحققه الدكتور محمد جواد مشكور، طهران ١٩٦٣م.

كاشف الغطاء، محمد الحسين آل كاشف الغطاء
١٠٤ – أصل الشيعة وأصولها، مصر ١٩٥٨م.
الكرمانى، الداعى أحمد حميد الدين
١٠٥ – راحة العقل
تحقيق وتقديم الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى، مصر ١٩٥٢م.
الكشي، أبو عمر بن عبد العزيز
١٠٦ – معرفة الرجال، بومباى ١٣١٧هـ.
الكميت، ابن زيد الأسدى الشاعر
١٠٧ – الهاشميات، شرح محمد الرافعى، مصر ١٩١٢م، ، مصر ١٩٥٥م.
محمد إقبال
١٠٨ – تجديد التفكير الدينى فى الإسلام. ترجمة عباس محمود وآخر، مصر ١٩٥٥م.
محمد ضياء الدين الريس(دكتور)
١٠٩ – النظريات السياسية الإسلامية، مصر ١٩٦٠م.
محمد كامل حسين (دكتور)
١١٠ – أدب مصر الفاطمية، مصر ١٩٥٨م.
١١١ – ديوان المؤيد داعى الدعاة، مصر ١٩٤٩م.
١١٢ – نظرية المثل والممثول فى شعر مصر الفاطمية، مصر ١٩٤٨م.
المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين
١١٣ – التنبيه والاشراف
طبعة دى خويه، ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية ليدن ١٨٩٣م.
١١٤ – مروج الذهب ومعادن الجوهر(جزءان)، مصر ١٢٨٣هـ.
مسكويه، أبو على أحمد بن محمد
١١٥ – تجارب الأمم (جزءان) باهتمام آمدورز، مصر ١٩١٤م.

أبو المعالى، محمد الحسينى العلوى

١١٦ - بيان الأديان

نقله إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب ونشر بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، المجلد التاسع عشر الجزء الأول مايو ١٩٥٧م.

المقدسى، شمس الدين أحمد أبو عبد الله

١١٧ - أحسن التقاسيم

بعناية دى خويه ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية، ليدن ١٩٠٦م.

المقريزى، تقى الدين أحمد بن على

١١٨ - اتعاظ الحنفا

النسخة المصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٦ تاريخ، نسخة مطبوعة بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، مصر ١٩٤٨م.

١١٩ - الخطط (أربعة أجزاء)، مصر ١٣٢٤هـ.

١٢٠ - السلوك لمعرفة دول الملوك

طبع الدكتور محمد مصطفى زيادة، مصر ١٩٣٩م.

المؤيد، هبة الله بن موسى

١٢١ - السيرة المؤيدة

نشر الدكتور محمد كامل حسين ، مصر ١٩٤٩م.

ابن ميسر، محمد بن على بن يوسف

١٢٢ - أخبار مصر، باهتمام هنرى ماسيه، مصر ١٩١٩م.

ناصر خسرو العلوى

١٢٣ - سفر نامه

ترجمه إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب، مصر ١٩٤٥م.

ابن النديم، محمد بن إسحق

١٢٤ - كتاب الفهرست، ليبزج ١٨٧١م.

النوبختى، أبو محمد الحسن بن موسى
١٢٥ – فرق الشيعة، النجف ١٩٣٦م.
النويرى، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
١٢٦ – نهاية الأرب نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة.
النيسابورى،
١٢٧ – استتار الإمام تحقيق إيفانوف ـ مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد الرابع، ديسمبر ١٩٣٦م.
ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى
١٢٨ – معجم البلدان، طبع مصر ١٣٢٣هـ.
طبعة أخرى مصورة عن طبعة وستنفلد، طهران ١٩٦٥م.
اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر
١٢٩ – تاريخ اليعقوبى (ثلاثة أجزاء)، النجف ١٣٥٨هـ.
اليمانى، محمد بن محمد
١٣٠ – سيرة جعفر الحاجب
تحقيق إيفانوف ـ مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ـ المجلد الرابع، ديسمبر ١٩٣٦م.
يوليوس فلهوزن
١٣١ – أحزاب المعارضة السياسية فى صدر الإسلام (الخوارج والشيعة)
ترجمه عن الألمانية الدكتور عبد الرحمن بدوى ١٩٥٨م.

ثالثاً: المراجع الإنجليزية

Arbery, A. J.

-١٣٢

Classical Persian Litrature London 1953

Barthold, W.

-١٣٣

Turkestan Down to the Mongol Invasion Oxford 1928

Bowen, H.

-١٣٤

The sar-gudhasht –i—sayydna, The "Tale of the three Schoolfellows" and the Wasaya of the Nizam al-Mulk. J.R.A.S. 1931 pp. 771—782.

Browne, E.G.

-١٣٥

An abridged Translation of the History of Tabaristan by D. isfandiyar London 1905

-١٣٦

A Litrary History of Persia Vol. 1. London 1919

Boyle, J.A. (Translator)

-١٣٧

The History of the World conquror, by Ala-ad-Din Ata Malik Juvaini - has been revised by V. Minorsky Harfard 1958

-١٣٨

Ibn al-Tiqtaqa and the Tarikh -i- Jahan-Gushay of Juvaini B.S.O.A.S. Vol. XIV, part 1 1952

Freya Stark

-١٣٩

The Valleys of the Assassins and other Persian travels London 1937

Hamadani, H.

-١٤٠

Some unknown Ismaili Authors and their Works J.R.A.S.

Ivanov, W.

-١٤١

The Alleged Founder of Ismaillism Bombay 1946

-١٤٢

Brief Survey of the evaluation of Ismailism London 1952

-١٤٣

A Guide to Ismaili Litrature London 1933

-١٤٤

Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimid Liden 1942

-١٤٥

Kalami Pir, A treatise on Ismaili Doctrine Bombay 1935

-١٤٦

Nasri Khusraw and Ismailism Bombay 1947

-١٤٧

Studies In Early Persian Ismailism Liden 1948

-١٤٨

Tow Early Ismaili Treatises Oxford 1933

Lewis, B.

-١٤٩

Ismaili Notes, B.S.O.A.S. London 1948

-١٥٠

The Origins of Ismailism Cambridge 1940

Lock Hart, L.

-١٥١

Hassan – i - Sabbah and the Ismailism

B.S.O.A.S. Vol. (V) London 1929

Miles

-١٥٢

The Numismatic History of Rayy New York 1938

Minorsky, V.

-١٥٣

Hudud al Alam Lidden 1937

Rosenthal, E.

-١٥٤

Political Thought in Medieval Islam Cambridge 1958

Sanaullah, Mawlawi Fadil,

-١٥٥

The Decline of the Saljuqid Empire Calcutta 1939

Stern, S.M.

-١٥٦

The Early Ismaili Missionaries in North West

Persia and in Khurasan and Transoxani

B.S.O.A.S. London 1960

١٥٧-

The First Appearance of Ismailism Tehran 1961

١٥٨-

Ismaili Propaganda and Fatimid Rule in Sind, Islamic Culture 1949

Vatikiotis, P.J.

١٥٩-

The Syncritic Origins of the Fatimid Da'Wa, Islamic Culture Oct. 1954

Walker, J.

١٦٠-

The Coinage of the Second Saffarid Daynasty in Sistan New York 1936

Willey, P.

١٦١-

The Castles of the Assassins London 1963

هذا الكتاب

بحث فى تطور الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة

مع ترجمة للنص الفارسى الذى ورد عنها فى كتاب «تاريخ جهانكشاى»

لعطا ملك الجوينى

وقد كان المؤرخ عطا ملك الجوينى مرافقاً لهولاكو عندما قدم على رأس الجيوش المغولية للقضاء على دولة الإسماعيلية فى إيران سنة ٦٥٢هـ. وقد أذن له هولاكو بالاطلاع على (مكتبة الموت)، وهى مكتبة الإسماعيلية الذائعة الصيت التى تضم معارفهم وتواريخهم وأسرارهم. وقد اعتمد الجوينى علي كل ذلك وأكمله بما شاهده وعايشه من أحداث وأخبار، حتى أتم هذا الجزء من كتابه (تاريخ جهانكشاى)، والذى يترجمه الدكتور جمال الدين فى هذا الكتاب إلى العربية لأول مرة ليصبح فى مقدور قراء العربية ـ ولأول مرة ـ أن يطلعوا على تاريخ دولة الإسماعيلية فى إيران منقولاً عن مصادرهم التى عثر عليها فى (مكتبة الموت)، أو شروحاً عن طريق شاهد عيان مباشر عاصر دولتهم فترة من الزمن ورافق حملة هولاكو التى قضت عليهم مما يجعل هذا الكتاب إضافة جديدة ومهمة إلى المكتبة العربية.



وتعميقاً للفائدة فقد قدم المؤلف لهذه الترجمة بدراسة عن نشأة ... وعقائدهم ونظام الدعوة عندهم وتتبع الدور الذى قام به دعاة الإسما... قيام دولتهم فى إيران.